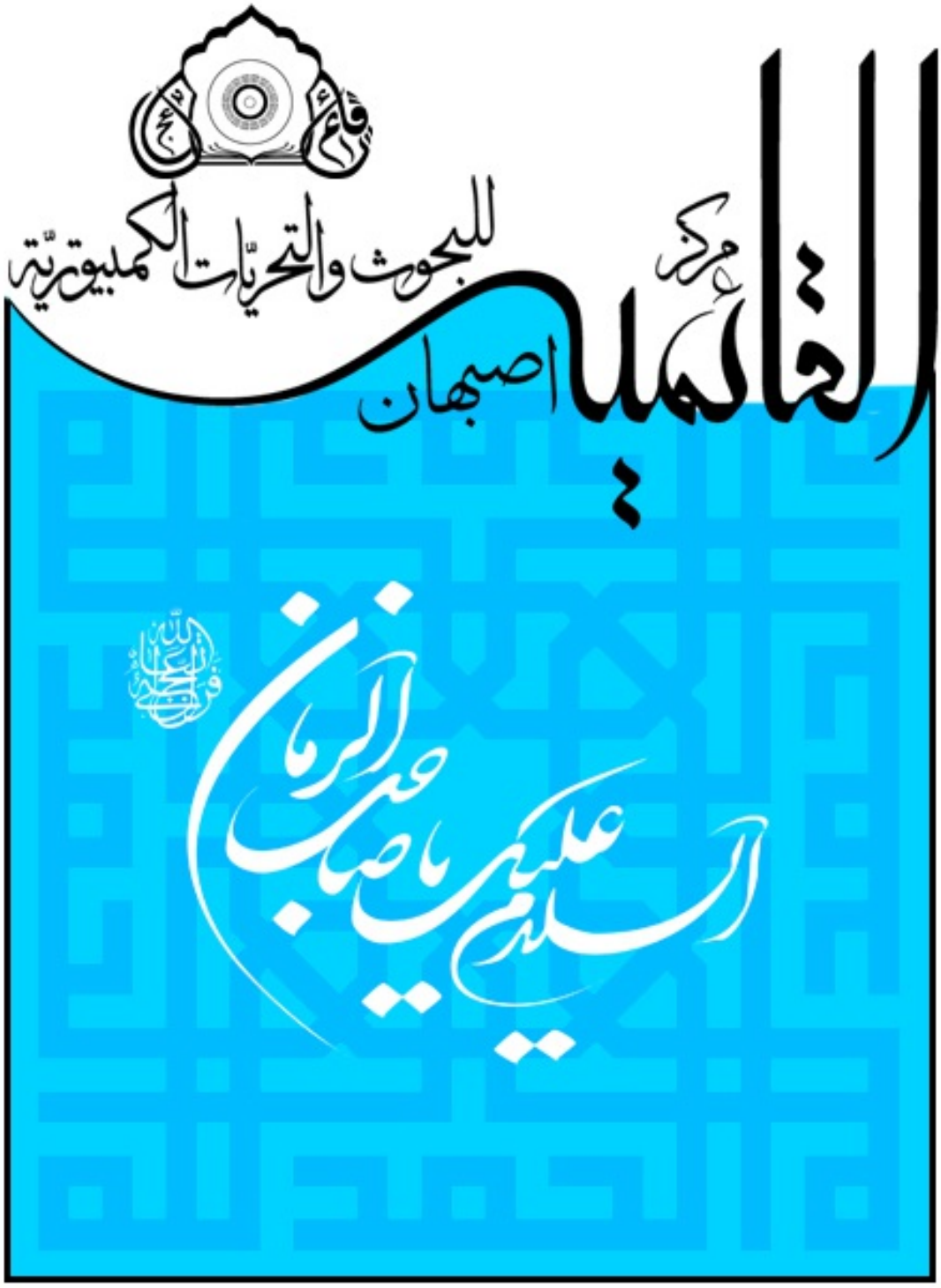

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

الحج ومغزى الحضارات في الأمم

دراسة مقارنة بين الحج في الإسلام
وطقوس الديانات الأخرى

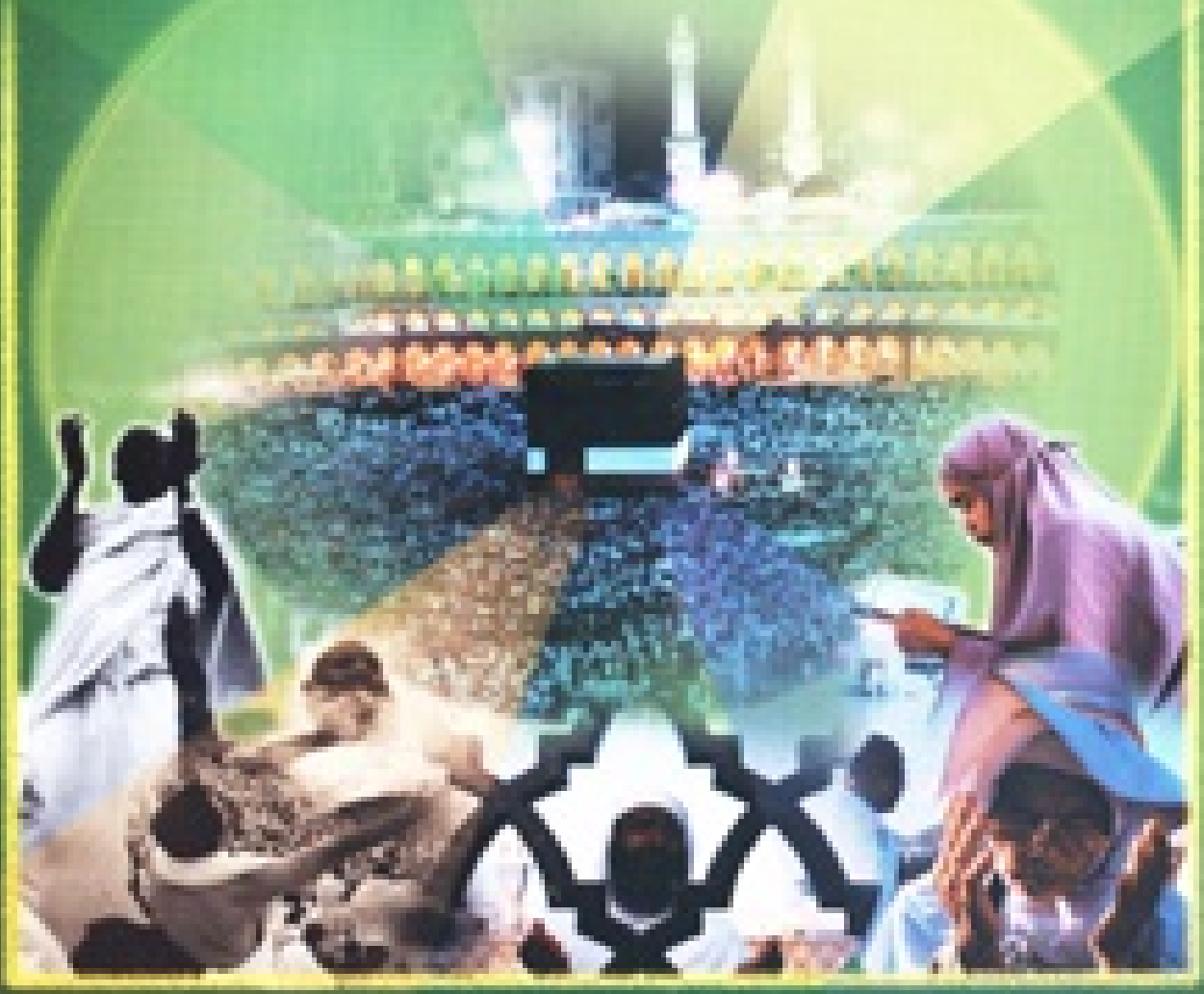

تأليف: ماجدة أبو رقيق الموصلي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحج عبر الحضارات والامم

كاتب:

ماجده آل مرتضى مومن

نشرت فى الطباعة:

مشعر

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
الحج عبر الحضارات و الامم ----- ۱۱
اشارة ----- ۱۱
اشارة ----- ۱۱
الإهداء ----- ۱۳
المقدمة ----- ۱۷
الفصل الأول: الحج: المعنى والمغزى ----- ۲۲
اشارة ----- ۲۲
الحجّ لغةً: ----- ۲۵
الحجّ اصطلاحاً وشرعاً: ----- ۲۷
اشارة ----- ۲۷
مغزى الحج ----- ۳۰
منافع دنيوية وهى التى تتقدم بها حياة الإنسان الاجتماعية ويصفو بها ----- ۳۱
ومنافع أُخروية وهى وجوه التقرب إلى اللّه تعالى بما يمثل عبودية الإنسان ----- ۳۱
المغزى الروحى والأخلاقى ----- ۳۲
المغزى الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ----- ۳۳
الفصل الثانى: من تاريخ الحج ----- ۳۴
اشارة ----- ۳۴
الحج فى حضارة وادى النيل ----- ۳۹
الحجّ فى حضارة وادى الرافدين ----- ۴۳
الحجّ فى الحضارة الفارسية القديمة ----- ۴۹
الحجّ فى الحضارة الرومانية ----- ۵۲
الحجّ فى الحضارة الهندية ----- ۵۴

الحج فی الصین ۵۸
الحجّ فی الیابان ۶۰
حجّ الأنبیاء والحضارات ۶۲
الحجّ فی الجاهلیة ۶۴
الفصل الثالث: الخلیل المعلم الأول ۶۸
منزلة النبی ابراهیم علیه السلام ۶۸
بناءُ البیت الحرام ۷۶
الدعوة إلی الحج ۷۹
استجابة دعاء إبراهیم علیه السلام ۸۲
کیفیة الحج الإبراهیمی ۸۵
ما جاء فی الروایات عن حج ابراهیم علیه السلام ۸۷
الخلیل علیه السلام یمتثل لذبح ابنه قربانا ۸۹
الانحراف عن ملة ابراهیم علیه السلام ۹۳
الفصل الرابع: الحج فی الدیانة الیهودیة ۱۰۱
الحج فی الدیانة الیهودیة ۱۰۱
اشارة ۱۰۱
وجهة النبیّ موسی علیه السلام فی الحج ۱۰۳
انحراف الیهود فی حجهم ۱۰۵
الحج إلی بیت المقدس ۱۰۶
جبل موسی علیه السلام فی صحراء سیناء ۱۱۰
بئر الحی الرائی بالقرب من الخلیل ۱۱۳
معبد (بیت إیل) بالقرب من نابلس ۱۱۴
أماکن مقدسة من الطبیعة ۱۱۶
تلخیص واستنتاج ۱۱۹

الفصل الخامس: الحج فی الدیانة المسیحیة ----- ۱۲۵
الحجّ فی الدیانة المسیحیة ----- ۱۲۵
اشارة ----- ۱۲۵
وجهة النبیّ عیسی علیه السلام فی الحج ----- ۱۲۷
انحراف النصاری فی الحج ----- ۱۲۸
الحج إلی بیت المقدس ----- ۱۳۰
رومة فی ایطالیا ----- ۱۳۲
کنیسة لورد فی فرنسا ----- ۱۳۴
کنیسة (فاطیما) فی البرتغال ----- ۱۳۶
حجهم إلی مقدسات أخری ----- ۱۴۱
تلخیص واستنتاج ----- ۱۴۲
الفصل السادس: القدس فی تاریخ الأنبیاء ----- ۱۴۷
القدس، هل کانت مرکزاً لحج الأنبیاء؟ ----- ۱۴۷
هجرة النبی ابراهیم علیه السلام إلی القدس ----- ۱۴۹
اشارة ----- ۱۴۹
القدس فی عهد یوسف علیه السلام ----- ۱۵۳
موسی الکلیم علیه السلام والقدس ----- ۱۵۶
سلیمان یبنی الهیکل المقدس ----- ۱۶۰
زکریا ویحیی وخدمة الهیکل ----- ۱۶۳
روح اللّه عیسی علیه السلام والقدس ----- ۱۶۶
إسراء محمد صلی الله علیه و آله إلی القدس ----- ۱۶۹
الکعبة لا القدس مرکزاً لحج الأنبیاء ----- ۱۷۴
الفصل السابع: الحج فی الإسلام ----- ۱۷۹
مقدمة ----- ۱۷۹

اشارة ----- ۱۷۹
حجُّ الحبیب محمد صلی الله علیه و آله ----- ۱۸۲
اقتداء المسلمین بسُنة نبیهم ----- ۱۸۴
الاستطاعة للحج ----- ۱۸۵
أنواع الحج فی الإسلام ----- ۱۸۷
أفضل الحج ----- ۱۹۰
أفعال الحج فی الإسلام ----- ۱۹۱
أفعال الحج الإسلامی ----- ۱۹۶
اشارة ----- ۱۹۶
۱- الإحرام وهو لبس اللباس الخاص بالحج، أی الزی الموحد للمسلمین فی ----- ۱۹۸
۲- التلبیة: وهی الرکن الثانی من الأرکان، حیث لا ینعقد الإحرام لمتمتع ----- ۱۹۹
۳- ۴- الوقفان: وهما رکنان واجبان بالاتفاق: ----- ۲۰۰
۵- الطواف: والطواف رکن من أرکان الحج المهمة لقوله تعالی ولیطوفوا ----- ۲۰۱
۶- السعی بین الصفا والمروة: ویأتی بعد الطواف ورکعتیه فی العمرة ----- ۲۰۲
۷- الترتیب بین الأفعال: اعتبره بعضهم رکناً واجباً من أرکان الحج ----- ۲۰۳
تروک الإحرام للحج ----- ۲۰۳
الفصل الثامن: أهمیة الحج فی الإسلام وأفضلیته ----- ۲۰۹
أ- أهمیة الحج فی الاسلام ----- ۲۰۹
اشارة ----- ۲۰۹
الحجّ یعمّق الارتباط باللّه ----- ۲۱۱
الحج عبادة وتربیة ----- ۲۱۳
الحج مؤتمر عالمی کبیر ----- ۲۱۵
الحج باب لطف للتوبة وغفران الذنوب ----- ۲۱۶
الحج مظهر لوحدة الأُمة وأخوّتها ----- ۲۱۸

الحج یحقق المساواة ----- ۲۱۹
ب- أفضلیة الحج فی الإسلام ----- ۲۲۱
اشارة ----- ۲۲۱
الحج أفضل من الصلاة والصوم ----- ۲۲۲
الحج یُخرج المکلف من الفقر ----- ۲۲۳
الحج یعتق الرقبة من النار ----- ۲۲۵
الحج أفضل تجارة ----- ۲۲۶
الفصل التاسع: الکعبة فی التاریخ ----- ۲۳۱
اشارة ----- ۲۳۱
هبوط آدم علیه السلام وبناء الکعبة ----- ۲۳۳
زوال معالم الکعبة فی الطوفان ----- ۲۳۵
ابراهیم علیه السلام یجدد بناء الکعبة ----- ۲۳۷
زواج إسماعیل علیه السلام وولایة أبنائه الکعبة ----- ۲۴۰
جُرهم وولایتها الکعبة ----- ۲۴۳
خُزاعة وولایة الکعبة ----- ۲۴۴
ولایة قصی بن کلاب الکعبة ----- ۲۴۶
ظهور قریش واستیلاؤها علی الکعبة ----- ۲۴۸
عبادة الأصنام فی الکعبة الشریفة ----- ۲۵۰
حادثتا (تبع) و (الفیل) ومنزلة الکعبة ----- ۲۵۱
بعثة محمد صلی الله علیه و آله وفریضة الحج ----- ۲۵۴
الکعبة أحبّ بقاع الأرض إلی اللّه ----- ۲۵۷
الحج بین ابراهیم علیه السلام ومحمد صلی الله علیه و آله ----- ۲۵۸
الفصل العاشر: الحج فی النظریة والتطبیق والمشترکات والاختلافات ----- ۲۶۳
اشارة ----- ۲۶۳

نقاط الإشتراک ----- ۲۶۵
۱- تلبیة حاجة انسانیة ضروریة ----- ۲۶۵
۲- القصد والزیارة ----- ۲۶۷
۳- الطقوس والشعائر ----- ۲۶۸
۴- الدعاء وطلب الحاجة والغفران ----- ۲۶۹
۵- التقرب للمعبود ----- ۲۷۰
۶- القرابین والأضاحی ----- ۲۷۲
۷- التعظیم للشعائر ----- ۲۷۳
نقاط الاختلاف ----- ۲۷۵
اشارة ----- ۲۷۵
۱- الانحراف عن خط الأنبیاء والرسل ----- ۲۷۵
۲- التقلید الأعمی ----- ۲۷۶
۳- البِدع والخرافات ----- ۲۷۷
۴- الشرک باللّه ومعصیته ----- ۲۷۹
۵- الازدواجیة فی ممارسة طقوس الحج ----- ۲۸۰
۶- تعدد المکان والزمان ----- ۲۸۱
۷- الانصهار فی الهوی ----- ۲۸۳
خاتمة ----- ۲۸۴
مصادر الکتاب ----- ۲۸۷
تعریف مرکز ----- ۲۹۲

الحج عبر الحضارات و الامم

اشارة

سرشناسه : آل‌مرتضی مومن ماجده

عنوان و نام پدیدآور : الحج عبر الحضارات و الامم دراسه مقارنه بین الحج فی الاسلام وطقوس الدیانات الاخری تالیف ماجده آل‌مرتضی المومن مراجعه محسن الاسدی

مشخصات نشر : تهران دارمشعر، ۱۴۲۲ق = ۱۳۸۰.

مشخصات ظاهری : ۲۸۸ ص مصور، عکس

شابک : ۹۶۴-۶۲۹۳-۹۷-۲۱۱۰۰۰ریال ؛ ۹۶۴-۶۲۹۳-۹۷-۲۱۱۰۰۰ریال

یادداشت : عربی

یادداشت : کتابنامه ص [۲۸۱ - ۲۷۷]؛ همچنین به‌صورت زیرنویس

عنوان دیگر : دراسه بین الحج فی الاسلام وطقوس الدیانات الاخری

موضوع : حج

شناسه افزوده : اسدی محسن مترجم

رده بندی کنگره : BP۱۸۸/۸/آ۷۶ح۳ ۱۳۸۰

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۳۵۷

شماره کتابشناسی ملی : م۸۰-۱۳۳۸۹

ص: ۱

اشارة

ص: ۲

ص: ۳

الإهداء

ص: ۴

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِی بِبَکَّةَ مُبارَکاً وَهُدًی لِلْعَالَمِینَ ا ۹۶ فِیهِ آیَاتٌ بَیِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِیمَ وَمَنْ دَخَلَهُ کَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَی النَّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَیْهِ سَبِیلًا وَمَنْ کَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِیٌّ عَنْ الْعَالَمِینَ (۹۷)

سورهٔ آل عمران

ذَلِکَ وَمَنْ یُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَی الْقُلُوبِ ا ۳۲ لَکُمْ فِیهَا مَنَافِعُ إِلَی أَجَلٍ مُسَمًّی ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَی الْبَیْتِ الْعَتِیقِ (۳۳)

سورهٔ الحجّ

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِیهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِی الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَیْرٍ یَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَیْرَ الزَّادِ التَّقْوَی وَاتَّقُونِ یَا أُولِی الْأَلْبَابِ (۱۹۷)

سورهٔ البقرهٔ

ص: ۵

إلى أبى الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام أول من وضع قواعد الحج ومناسكه...

إلى خاتم الأنبياء محمد بن عبد اللّه صلى الله عليه و آله الذى أحيا الحجّ ونزّه مناسكه من كلّ ما علق بها من شوائب الجاهليّة وعاداتها..

ص: ۶

ص: ۷

المقدمة

نحن أمام موضوع شرعی یخرج الفرد من فردیته إلی الدائرة الأوسع، دائرة المجتمع العالمی المتنوع، فالحج ممارسة شرعیة فی أصلها ضمن مجتمع کبیر، لا تتاح فی الفرائض الأخری .. لهذا السبب أخذ أهمیة خاصة، علی مستوی الفرد والدولة، وصار متمیزاً بین الفرائض الدینیة الأخری

والحج فریضة عامة لم تقتصر علی دین معین، وإنما هو رکن دینی مهم عرفته الأجیال البشریة ومارسته منذ زمن النبی ابراهیم الخلیل علیه السلام، بل وحتی قبل زمانه، إلی یومنا هذا، مارسته سائر الأدیان السماویة التوحیدیة، ومارسته الأدیان الوضعیة، والجاهلیة أیضاً وبأشکال مختلفة.. ووضعت له قوانین وأحکاماً وشعارات، فمنهم مَن اتجه إلی الکعبة الشریفة قبل الإسلام (فی الجاهلیة)، ومنهم من اتجه إلی مکان آخر، قدّسه وعدّه مکاناً یحلّ مشاکله ویقرّبه إلی آلهته زلفیً...

وإذا رجعنا إلی أصل الحج، إلی حقیقته وانتمائه، فسنعرف أنه ذو مصدر إلهی، شرعه اللّه تعالی علی وفق کیفیة معینة لیؤدیه العباد، وینالوا الثواب علیه والجزاء

ص: ۸

المناسب الذى قدره اللَّه سبحانه وتعالى ..

هـذا هو الحـج الحقيقى الـذى أداه الأنبياء ومن أخذ بتعاليمهم ولا سـيما نبينا الكريم محمد صـلى الله عليه و آله وأتباعه من المسـلمين أينما كانوا، وقـد جاء هـذا الحـج (الحـج عند المسـلمين) تتويجاً لكلّ الحج السابق فى الفكر والممارسة، جاء نظريةً وهدفاً رائعاً، وجاء ممارسـةً وتطبيقـاً عظيمـاً، ينسـجم وتطلعـات الإنسـان الأساسـية والفطريـة؛ ليبقى مع الإنسـان ملازماً له طالما هو حىّ على سـطح الكرة الأرضية.

لكن الإنسـان المتطلع إلى كلّ ما يشـبع الفطرة والحاجات الأوليـة، حاول- حين ابتعـد عن الـدين وعن الاقتراب من اللَّه تعالى أن يلبى نداء هذه الفطرة الملحّة...

فقلّـد ووضع حجّاً مماثلًا فى شـكله وبعض مضامينه لعلّه يملأ هـذا الفراغ الروحى، فـذهب إلى هـذه المنطقـة وعطف على تلك البقعة ممارساً طقوساً وحركات خاصة لعلّه يلبى النداء الداخلى، لكن لم يفلح؛ لأنه صدر من مخلوق أرضـى ناقص قاصـر لا يمكن أن يرقى إلى جزء صغير من ذلك الحج الإلهى الكبير...

وبقى حجُّ الأنبياء وأتباعهم حجّاً حقيقياً، وحجُّ أولئك المقلدين حجّاً شكلياً خاصاً بهم، يُرضى أنفسهم ولا يرضى اللَّه تعالى ..

لقد شـرع اللَّه تعالى الحج؛ ليدخل الفرد ضـمن الجماعة ويتفاعل معها ويتكامل بها، فينطلق الإسـلام بفضله إلى روح الأخوة والتعاون، ينطلق كتلةً واحدةً مجتمعةً على من سواها، ينطلق محلّقاً فوق الذاتيات والأفراد والتمايزات والألوان والتفاوتات بمختلف أنواعها...

وهـذا الكتاب- عزيزى القارئ- دارسـة مقارنة للحج، بين تلك الفريضة التى تجمع الناس فى مكان واحد وزمان واحد وموقف واحد ولهـدف واحـد، وذلـك الحـج الآـخر الـذى حرّفه الإنسـان وأدخـل عليه من ذاتيـاته وصـناعته، فصار بعيـداً عن الأصل الإلهى، كحج الحضارات والأمم المختلفة التى سادت ثم بادت... ولم

ص: ۹

يبق منها سوى آثارها أو أسمائها أو بعض مواقعها...

إنّ الفارق بين الحج الإلهى الصحيح كحج الإسلام، والحج الإلهى المحرّف أو الوضعى هو كالفرق بين الحق والباطل...

وقد قسّمت الكتاب إلى عشرة فصول، يحتوى كلّ فصل على عدد من النقاط.

وفيما يلى خلاصة موجزة لهذه الفصول العشرة...

الفصل الأول: «الحج: المعنى والمغزى ويحتوى على معنى الحج فى اللغة وفى الاصطلاح والشرع، وذكرت مغزى الحج وتحدثت عنه فى نقطتين: المغزى الروحى والأخلاقى، والمغزى الاجتماعى والاقتصادى والسياسى.

الفصل الثانى: وهو تحت عنوان «من تاريخ الحج» ويحتوى على الحج فى الحضارات والأمم المختلفة كحضارة وادى النيل وحضارة وادى الرافدين، والحضارة الفارسية القديمة والحضارة الرومانية وغيرها. ثم الحج فى الجاهلية وحج الأنبياء والرسل ودورهم فى الحضارات المختلفة.

الفصل الثالث: وهو تحت عنوان «الخليل عليه السلام المعلم الأول» ويحتوى على ذكر منزلة الخليل ابراهيم عليه السلام ونبوته وإمامته، ثم بنائه البيت الحرام، ودعوته إلى الحج، واستجابة اللَّه تعالى لدعائه، ثم تحدثت عن كيفية الحج الإبراهيمى وما ورد فى الروايات عنه، ثم محاولة ذبحه ابنه قرباناً للَّه‌تعالى وأنهيتُ الفصل بالحديث عن الانحراف عن ملة ابراهيم عليه السلام.

الفصل الرابع: وعنوانه «الحج فى الديانة اليهودية» ويحتوى على وجهة النبى موسى عليه السلام فى الحج، وكيفية انحراف اليهود فى الحج وعدم اتباعهم له، ثم بينت وجهاتهم المتعدّدة فى الحج كحجهم إلى جبل موسى عليه السلام فى صحراء سيناء، وحجهم الى بيت المقدس، وحجهم إلى بئر الحى الرائى والى معبد بيت إيل وإلى ظواهر من الطبيعة، ثم وضعت فقرة بعنوان «تلخيص واستنتاج» لبيان عدم قبول حجهم؛

ص: ۱۰

لأنهم لم يتخذوا الوجهة الصحيحة فى الحج.

الفصل الخامس: وعنوانه «الحج فى الديانة النصرانية» ويحتوى على ذكر وجهة النبى عيسى عليه السلام فى الحج، وكيفية انحراف النصارى فى الحج وعدم اتباع نبيهم عيسى عليه السلام، ثم ذكرتُ وجهاتهم المتعدّدة فى الحج كحجهم إلى بيت المقدس وعود الصليب الأصلى، وحجهم إلى فاطيما فى البرتغال، والى رومة فى ايطاليا والى لورد فى فرنسا والى أماكن ومقدسات أخرى وآخر الفقرات، فقرة «تلخيص واستنتاج» لبيان عدم قبول حجهم، وحالهم حال اليهود فى ذلك...

الفصل السادس: وهو تحت عنوان «القدس: فى تاريخ الأنبياء» ذكرت فيه أنّ القدس لم تكن يوماً مركز حج للأنبياء والرسل، ولكنها دار مقدسة ومشرَّفة بما احتضنت من أنبياء ورسل فى طول تاريخها الشريف، ثم ذكرت أشهر الأنبياء الذين قدّسوها وعمروها واهتموا بها واستقبلوها فى صلاتهم، ثم أتيت على ذكر خاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه و آله وإسرائه إليها، ثم بيّنتُ أنّ الكعبة هى مركز حج الأنبياء جميعاً وليس القدس.

الفصل السابع: وعنوانه «الحج فى الإسلام» ويحتوى على حج الحبيب محمد صلى الله عليه و آله قبل الإسلام وبعده واقتداء المسلمين بنبيهم صلى الله عليه و آله. ثم ذكرت فريضة الحج فى الإسلام والاستطاعة للحج وأنواع الحج فى الإسلام وأفضلها ثم أفعال الحج وأركانه وأهم التروك فى الاحرام للحج...

الفصل الثامن: وهو تحت عنوان «أهمية الحج فى الإسلام وأفضليته» ويقع فى قسمين: القسم الأول أهمية الحج فى الإسلام والثانى أفضلية الحج فى الإسلام، وكلّ قسم يحتوى على عدة نقاط تؤكد تلك الأهمية والأفضلية معزِّزةً ذلك بعدد من الشواهد: آيات وروايات.

الفصل التاسع: وهو تحت عنوان «الكعبة فى التاريخ» ويحتوى على تاريخ

ص: ۱۱

الكعبة المشرّفة من هبوط آدم عليه السلام الذى بناها إلى زوال معالمها فى الطوفان.

ثم تحدّثت عن تجديد إبراهيم عليه السلام لبنائها وولاية أبنائه عليها، ثم ذكرت منزلتها وحادثتى تُبّع والفيل، وأخيراً تحدثت عن بعثة النبى محمد صلى الله عليه و آله وفريضة الحج إلى الكعبة، وأنها أحبّ بقاع الأرض إلى اللّه تعالى

الفصل العاشر: تحت عنوان «الحج فى النظرية والتطبيق: المشتركات والاختلافات» ويحتوى هذا الفصل على عدد من المشتركات والاختلافات بين الحج السماوى (الحقيقى) وبين الحج الوضعى.

ففى المشتركات تحدثت عن أنه تلبية حاجة إنسانية ضرورية، وفيه القصد والزيارة وممارسة طقوس وشعائر وتقديم أضاحٍ وقرابين وغيرها.

وفى الاختلافات ذكرت أنّ الحج الوضعى، هو انحراف عن خط الأنبياء والرسل، وأنه تقليد أعمى للأسلاف وبِدع وخرافات وشرك باللّه تعالى وغيرها من النقاط.

وختمتُ الكتاب بكلمة أخيرة تحت عنوان «خاتمة».

ويسعدنى ويزيدنى فخراً واعتزازاً أن أكتب فى هذا الموضوع الكريم تلبيةً للدعوة الموجهة إلىَّ فى هذا الخصوص، راجية أن أكون قد وفقت فى تحقيق دراسة هادفة تسهم بحق فى رفد هذا المشروع المبارك.

وأخيراً أقدم جزيل شكرى إلى السادة العاملين فى مؤسسة الحج والزيارة خاصّة الأستاذ محسن الأسدى الذى تعهّد بمراجعة كتابى هذا، وبارك اللّه فى جهودهم الكريمة فى سبيل إرساء قواعد حج واع وشامل.

وفقهم اللّه تعالى وسدد خطاهم، وبارك فيهم، وأخذ بيدهم نحو الكمال، واللّه من وراء القصد.

المؤلفة

ص: ۱۲

الفصل الأول: الحج: المعنى والمغزى

اشارة

ص: ۱۳

الفصل الأول: الحج: المعنى والمغزى

ص: ۱۴

ص: ۱۵

من الضروری- ونحن فی صدد الدخول فی رحاب الحج وقراءته فی التاریخ، والدیانات السماویة و التشریعات الوضعیة- أن نلقی ضوءاً علی ما قالته اللغة العربیة فیه؛ لنفهم أصله اللغوی والتاریخی.. وإکمالًا لمعناه المعروف فی الدیانات المختلفة، علینا أیضاًأن نعرفما هوالحج فی الاصطلاح وفی لغة الفقهاء والشریعة الإسلامیة.

الحجّ لغةً:

فعلی مستوی اللغة جاء فی لسان العرب:

الحجُّ: «القصد، حجَّ إلینا فلان أی قَدِمَ، وحجّهُ یحُجهُ حجّاً: قصده.

وحججتُ فلاناً واعتمدتُهُ أی قصدته. ورجلٌ محجوج أی مقصود. وقد حَجَّ بنو فلان فلاناً إذ أطالوا الاختلاف إلیه قال الُمخبّلُ السعدی:

وأشهَدُ من عَوْفٍ حُلولًا کثیرةً یحجونَ سِبَّ الزِّبرِقانِ المزعفرا

أی یَقصدونه ویزورونه. قال ابن السکیت: یکثرون الاختلاف إلیه، هذا

ص: ۱۶

الأصل، ثم تُعوُرِفَ استعماله فی القصد إلی مکهٔ للنُسک، والحجّ إلی البیت خاصهٔ، تقول: حَجَّ یحجُّ حجّاً إذا قصدته، وأصله من ذلک.

وقال سیبویه: وقالوا: حَجُهٌ واحدهٌ، یریدون عَمَلَ سنهٔ واحدهٔ. قال الأزهری: الحَجُّ قضاءُ نُسُکِ سَنهٍ واحدهٍ، وبعضٌ یکسر الحاء، فیقول: الحِجُّ والحِجَّهُ، وقُرئ: وللَّه علی الناسِ حِجُّ البیت، والفتح أکثر. وقال الزجاج فی قوله تعالی وللَّه علی الناس حَجُّ البیت، یُقرأ بفتح الحاء وکسرها والفتح الأصل والحَجُّ: اسم العمل... واحتج البیت: کحَجّهُ. والحَجُّ والحِجُّ لیس عند الکسائی بینهما فرقٌ. وغیره یقول: الحَجُّ حَجُّ البیت، والحِجُّ عَمَلُ السنهٔ.

وتقول: «حججتُ فلاناً إذا أتیته مرّهً بعد مرّهٔ، فقیل: حج البیت؛ لأنّ الناس یأتونه کلّ سنهٔ» (۱).

وعرّفه الراغب الأصفهانی: «القصدُ للزیارهٔ» (۲).

وعرّفه الفیومی فی المصباح بقوله: «حجَّ: حجّاً من باب قَتَلَ قَصَدَ فهو (حاجّ) هذا أصله» (۳).

وقال الجرجانی: وتعریفه فی اللغه «الحج: القصدُ إلی الشیء المعظّم» (۴).

وجاء فی ترتیب القاموس: «فالحجُّ فی اللغهٔ العربیهٔ: هو القصد المتکرر» (۵).

وفی المعجم الوسیط: (حجَّ) الیه- حجّاً: قَدِم و- المکان: قصده... والبیت الحرامَ: قصده للنُسک. وفی التنزیل العزیز: وللَّه علی الناس حج البیت. ویقال:

۱- ۱ لسان العرب، ابن منظور ۲: ۲۲۶.

۲- ۲ المفرادت فی غریب القرآن، الراغب الأصفهانی ت ۵۰۲: ۱۰۷.

۳- ۳ المصباح المنیر، الفیومی، ت ۷۰۷: ۱۲۱.

۴- ۴ کتاب التعریفات، الجرجانی، ت ۸۱۶: ۳۶.

۵- ۵ ترتیب القاموس، مادهٔ حَجَّ ۱: ۵۹۱.

ص: ۱۷

حجَّ بنو فلان فلاناً. أكثروا التردد عليه» (۱).

ومن هذا المعنى اللغوى الذى يؤكد أنّ الحجَّ هو القصد أو الزيارة أو تكرار الزيارة إلى مكان معين، أخذ هذا اللفظ معناه العام، وصار يُطلق على كلّ زيارة بهيئة وكيفية مخصوصة إلى مكان مقدّس يؤمن به الزائر أو الحاج.

وبكلمة أخرى: أنّ المعنى اللغوى للحج هو الذى أعطى العمومية لكلّ زيارة الى مكان يؤمن به قاصدوه فى وقتٍ معين، زيارة جماعية.

الحجّ اصطلاحاً وشرعاً:

اشارة

أما الحجُّ فى الاصطلاح والشريعة الاسلامية، فسنذكر عدداً من الأقوال والآراء فيه.

فبعدما ذكر الفيومى تعريفه للحج فى اللغة قال: «وقُصِرَ استعماله فى الشرع على قصد الكعبة للحج أو العُمرة، ومنه يُقال (ما حجَّ ولكن دجَّ) (فالحج) القصد للنُسك (والدّجُّ) القصد للتجارة. والاسم (الحِج) بالكسرة و (الحجة) المرةُ بالكسرة على غير قياس والجمعُ (حِجَجُ) مثل سِدرَةٍ وسِدَرٍ، قال ثعلبُ: قياسُهُ الفتح، ولم يُسمع من العرب، وبها سُمِىَ الشهر (ذو الحجة) بالكسرة، وبعضهم بفتح فى الشهر وجمعه (ذوات الحِجّةِ) وجمعُ (الحاجّ) (حُجّاجٌ) و (حجيجٌ) و (احججتُ) الرجلَ بالألف بعثته ليحُجَّ» (۲).

وقال الراغب الأصفهانى: خُصَّ فى تعارُفِ الشرع بقصد بيت اللَّه تعالى إقامةً للنسك فقيل: الحَجُّ والحِجُّ، فالحجُّ مصدرٌ والحِجُّ اسمٌ، ويوم الحجِّ الأكبر،

۱- ۱ المعجم الوسيط ۱: ۱۵۶.

۲- ۲ المصباح المنير، مصدر سابق: ۱۲۱.

ص: ۱۸

يوم النحر، ويوم عرفة، وروىَ العُمرةُ الحجُّ الأصغرُ (۱).

وذكر الجرجانى فى تعريفاته قائلًا: «وفى الشرع قصدٌ لبيت اللّه تعالى بصفة مخصوصة فى وقت مخصوص بشرائط مخصوصة» (۲) وفى المعجم الوسيط جاء:

(الحِج): أحد أركان الإسلام الخمسة وهو القصد فى أشهر معلومات إلى البيت الحرام للنُسك والعبادة. و (الحج الأكبر): هو الذى يسبقه الوقوف بعرفة. وفى التنزيل: وأذان من اللّه ورسوله إلى الناس يوم الحجّ الأكبر و (الحجّ الأصغر) الذى ليس فيه وقوف بعرفة، ويُسمى العُمرة (۳).

وقال العلّامة الحلّى: «الحجّ اسم لمجموع المناسك المؤداة فى المشاعر المخصوصة، وهو فرضٌ على المستطيع، ويجب بأصل الشرع مرّة» (۴).

وقد عرفه العلّامة الطباطبائى قال: «هو العمل المعهود بين المسلمين» (۵).

والحجُّ «رحلة إلى مكان مقدس؛ لغرض دينى، عرف منذ القدم، ودعت إليه الديانات السماوية الثلاثة. وكان اليهود يحجون سنوياً إلى القدس فى عيد الفصح. ويحج المسيحيون إلى أماكن كثيرة مثل روما فى ايطاليا، ولورد فى فرنسا، وفاطيما فى البرتغال وأهم مكان لديهم جميعاً هو القدس، ومن أجله قامت الحروب الصليبية فى القرون الوسطى أما المسلمون فالحج عندهم القصد إلى الكعبة فى مكة، والطواف بها سبعاً. والوقوف بعرفة. وأركانه الاحرام من أماكنه و...

۱- ۱ المفردات فى غريب القرآن، مصدر سابق: ۱۰۷.

۲- ۲ التعريفات، مصدر سابق: ۳۶.

۳- ۳ المعجم الوسيط، مصدر سابق: ۱۵۶.

۴- ۴ المختصر النافع فى فقه الإمامية، المحقق الحلّى، ت ۶۷۶ ه: ۷۵.

۵- ۵ الميزان فى تفسير القرآن، الطباطبائى ۱: ۳۸۲.

ص: ۱۹

والحجّ فرض- فی العمر مرّةً- علی کلّ قادر...» (۱).

هـذا مـا جاء فی الموسوعـة العربیـة المیسّـرة. أما فی موسوعـة کشاف اصـطلاحات الفنون والعلوم فقـد ذکر التهاونی الحـج وعرفه فی الشریعة والاصطلاح بقوله:

«والحج شریعةً: القصد إلی بیت اللّه الحرام أی الکعبة بأعمال مخصوصة فی وقت مخصوص... الخ» (۲).

إذن اتفق علماء المسـلمین علی أن الحج فی الشـریعة الإسلامیة وفی الاصطلاح المتعارف علیه عند المسلمین، أنه- الحج- القصد إلی مکـة المکرمة ومشاعرها ومناسـکها المخصوصة بهیئتها المخصوصة فی الزمان المعروف لإقامة المناسک والمشاعر المفروضة من قبل السـماء، وجملـة من الأفعال والأقوال والممارسات تنتظم جمیعها؛ لتُجسّـد بمجموعها معنًی تعبـدیاً بقصد القربة إلی اللّه تعالی ووجوبه مرّةً واحدة فی العمر، واستحبابه کلّ عام، وکما یقول صاحب اللمعة رحمه اللّه تعالی:

«ومستحبٌ تکراره» (۳).

والحج فی الشرع الاسلامی یُعدُّ فریضةً من الفرائض الاسلامیة المهمة، وهو رکن قویم یعتمد علیه بناء الاسلام، وأداؤه یُحقق للمسلمین مکـاسب دینیـة ودنیویـة وثقافیـة واجتماعیـة وسیاسـیة وغیرهـا تنظم دنیـا المسـلم وآخرته. وهو أفضل الأعمال التی یشترک فیها العقل والمال والبـدن، ویتطلب مزیـداً من حسن النیـة والصـدق والإخلاص للّه، والبُعد عن الریاء والسـمعة حتی یظفر صاحبها بالقبول، هکذا نفهم الحج الاسلامی من خلال مصادره الاساسیة. أما غیره- أی الحج عند غیر المسلمین- فهو غیر ذلک، وبعید عنه.

۱- ۱ الموسوعة العربیة المیسرة، د. محمد شفیق غربال: ۶۸۹.

۲- ۲ کشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، التهاونی ۱: ۶۱۹.

۳- ۳ اللمعة الدمشقیة، العاملی، باب الحج ۱: ۱۵۹.

ص: ۲۰

مغزى الحج

للحج مغزًى لم يدركه إلّامن ذاق طعمه، وهذا ما يقوله كلّ من ذهب إلى بيتاللَّه الحرام فى موسم الحج.

له مغزًى وجدانى واضح، وهو ذلك الإحساس الرائع المستمد من مشاهد الايمان والقدسية والذكريات، ومغزًى آخر تعيشه النفس وحدها ولا تستطيع البوح به... وهو القرب المعنوى من الخالق الرحمن الرحيم الغفور الودود... من خلال بيته، ومن خلال مهبط الوحى ومهوى أفئدة الأنبياء، ومن خلال أجواء الرسالة وأجواء الدعوة الإسلامية التى قادها النبى محمد صلى الله عليه و آله أعظم قيادة.

والحج فى حقيقته غفران من اللَّه تعالى لذنوب المذنبين، ورحمة للعالمين، وباب لطفٍ من ألطافه الكثيرة على مخلوقاته، قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «أعظم الناس ذنباً مَن وقف بعرفة وظنَّ أن اللَّه لم يغفر له» (۱).

ويعدّ الحج إحدى العبادات الخاصة، التى تجتمع فيها جميع خواص العبادات وهذا مغزًى مهم جدّاً..

وهناك مغزًى آخر هو: أنّ الانسان فى فطرته يحتاج إلى أن يستمد العون ممّن هو قادر على ذلك، ويشكو همومه وذنوبه إلى من هو أقوى منه، الى من لا يشكو ولا يذنب، وفى الحج يتحقق هذا المطلب، والأماكن المقدسة وحدها تحقق هذا المغزى من بين سائر الأماكن الأخرى وقد حاول الانسان ارتياد أماكن اعتبرها مقدسةً تارةً، وتارةً أخرى قدّستها له السماء ك (الكعبة).. فذهب إليها وشكى همه

۱- ۱ من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق ۲: ۳۷.

ص: ۲۱

وبث كربه ودعا وتضرع لينال مأربه ومراده.

إذن، فللحج مغازٍ شتى مادية وأخرى معنوية، وقد أكد القرآن الكريم ذلك بقوله تعالى ليشهدوا منافع لهم (۱)

وقد فسَّر بعضهم هذه الآية الشريفة، قائلًا:

إنها منافع دنيويـة.. وفسّرها آخرون بأنها منافع أخرويـة، وفريق ثالث أكّد أنها منافع دنيوية واخروية معاً، ومن بينهم نأخذ رأى العلامة الطباطبائى فى تفسيره للآية، قال: «وقد اطلقت المنافع ولم تتقيد بالدنيوية أو الأُخروية، والمنافع نوعان:

منافع دنيوية وهى التى تتقدم بها حياة الإنسان الاجتماعية ويصفو بها

العيش، وترفع بهـا الحوائـج المتنوعـة، وتكمـل بهـا النواقص المختلفـة من أنواع التجـارة والسـياسة والولايـة والتـدبير، وأقسـام الرسوم والآداب والسنن والعادات، ومختلف التعاون والتعاضد الاجتماعى وغيرها.

ومنافع أُخروية وهى وجوه التقرب إلى اللّه تعالى بما يمثل عبودية الإنسان

من قول وفعـل، وعمـل الحـج بمـا له من المناسـك يتضـمن أنواع العبـادات من التوجه إلى اللّه وترك لذائـذ الحيـاة وشواغـل العيش والسعى إليه بتحمل المشاق، والطواف حول بيته والصلاة والتضحية والإنفاق والصيام وغير ذلك» (۲).

والحـج مع كلّ هـذا يُنبئُ عن كيان وحضارة وقيام الأمـة التى ترتبط فيما بينها بروابط الهـدف الواحـد والقصد والزمان المعلومين، فإذا كانت الأمة ملتزمة بشريعة السماء، اتجهت الوجهة الصحيحة وإلّا انحرفت إلى أماكن تَدَخّلَ الهوى والخيالُ فى ارتيادها.

والحـج الـذى فرضه اللّه تعـالى هو الـذى يحقق المنـافع المـذكورة فهو اجتمـاع عظيم، وسياسـى، ودينى، وعبـادى، واقتصادى، وإلهى عالمى عام لا يختصّ بشعب دون

۱- ۱ الحج: ۲۸.

۲- ۲ تفسير الميزان، الطباطبائى ۱۴: ۳۰۷- ۳۷۱.

ص: ۲۲

شعب أو هويـة دون هويـة، بـل هو لجميع الناس الـذين يرفعون شـعار (لا إله إلّااللَّه محمـد رسول اللَّه). وهو أوسع نطاقاً للمسـلمين من صلاة الجمعـة والعيـدين، يجتمع فيه المسـلمون من مشارق الأرض ومغاربها، فى مكان مقـدس بتوقيت معين تجمعهم كلمـة التوحيـد، وتظللهم أجواء قدسية فريدة لأداء عمل واحد موحد.

ونحن لا نشـك فى أنّ هـذا الحـج وبهـذه المواصـفات التى ذكرناها آنفاً، هو المغزى الحقيقى للحـج الـذى أراده اللَّه تعالى والقرآن الكريم والإسـلام الحنيف، ولا نعتقـد أن أى حـج آخر مهما كان صاحبه مخلصاً فيه يحقق هـذه الغاية والأرضـية الإلهية فى آنٍ واحد، وهذه حقيقة يجب أن نعرفها ونفرق بها بين حجنا- نحن المسلمين- وأنواع الحج الأخرى المعروفة فى التاريخ القديم والحديث.

المغزى الروحى والأخلاقى

والمغزى الروحى يتجسّـد فى الرحلـة الشـيقة إلى بيت اللَّه الحرام، ومـا يرافقهـا من سـمو أخلاقى عظيم يرفع الفرد المكلف إلى أعلى درجات الكمال النفسى والروحى مع خالقه العظيم من خلال الأدعية والخوف من الخالق عزوجل وتذكر يوم النشور والحشر، والخشية من اللَّه تعالى والبكاء والتضـرع، وانتظام الجسم فى الطواف، والإسـراع فى بعض مراحل السـعى والطواف، كلّها تساهم فى عملية سمو الروح والأخلاق، خصوصاً عندما يشعر الفرد أنّه مع ناس يخافون الخالق ويهابونه فى بيته، وكأنهم حُشروا إليه ونُشروا للحساب. وتسمو الأخلاق؛ لأنّ تعاليم الحج تفرض عليه عدم الرفث والفسوق والجدال، والامتناع عن أذى الحيوانات وتحريم صـيدها وتحريم قتل هوام الجسد، وغيرها من الأفعال العبادية والتروك والالتزامات الشرعية فى أداء فريضة الحج.

كلّ هذه التعابير الجسدية وسيلة من وسائل انتظام الروح والخُلق وسموها

ص: ۲۳

وانضباطها ككيان روحى فكرى أخلاقى عبادى متميز.

اذن فمناسك الحج لها أثر واضح ومغزى أوضح فى التفاعل الروحى والأخلاقى وسمو النفس وتحليقها نحو بارئها. وكلما كانت نية الحاج أصدق وأصفى فى الحج كان لهذا المغزى أكثر فاعلية وأشد وقعاً على بقية آثار الحج ومغازيه حيث إنه- هذا المغزى يتفاعل تفاعلًا طردياً مع قوة إيمان الفرد ونيته.

فالروح تسمو حال الطواف وحال السعى وعند الوقوف بعرفات والإفاضة الى المشعر الحرام وباللباس الأبيض المتواضع، تسمو وتحلق وكأنها ترى بأمّ عينيها يوم يخرج الناس كالفراش المبثوث والعهن المنفوش ينتظرون رحمة اللّه وغفرانه..

المغزى الاجتماعى والاقتصادى والسياسى

والحج يولد شعوراً لدى الفرد الحاج المندمج فى الجماعة التى تؤدى ما يؤدى هو نفسه من المناسك والأفعال، يولد فى نفسه أن إنساناً اجتماعياً خُلق ليتفاعل مع نظائره من المخلوقات لا منعزلًا عنهم ولا منزوياً بل هو مندمج معهم شاءَ أو أبى

فمناسك الحج تضيّق الفوارق الطبقية والعرقية وغيرها التى وضعها الإنسان بين بنى الإنسان، فالحج يسقطها جميعاً فى مواقف ومناسك كثيرة، فالكلّ مكلّفون بتطبيق المناسك المفروضة، وهذا دون شك يؤدى إلى تفاعل اجتماعى بين الفقراء والأغنياء، وبين الحكّام والمحكومين، وتجمعهم فى مكانٍ واحد بزى بسيط متواضع واحد بنداء واحد بزمان واحد بنية واحدة وهدف واحد، على الرغم من اختلاف درجات ثرواتهم وقواهم ومنازلهم الاجتماعية ومناصبهم السياسية وغيرها..

وهذا التنظيم الإلهى يستحق تأملًا دقيقاً فى أهدافه ومغزاه.. والمغزى الاجتماعى للحج يأتى بالدرجة الثانية بعد المغزى الروحى إذا ما قلنا: إنه المغزى

ص: ۲۴

الأول للحج؛ لأهميته القصوى فی تدريب العباد وجعل الغنی كالفقير والحاكم كالمحكوم والعزيز كالذليل والذليل كالعزيز، فی تكليفٍ موحّد يُشعرهم بالمساواة فی كلّ شیء... لا فرق بينهم سوی قبول العمل وعدمه.

وهناك مغزًی آخر يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمجتمع وهو المغزی الاقتصادی للحج كالأعمال التجارية التی تقام فی موسم الحج، والأسواق التی يشترك فيها المسلمون من شتی أنحاء العالم الإسلامی، والتی تجلب النفع للفرد المسلم وللمجتمع الإسلامی..

وللحج كذلك مغزًی سياسی يرتبط بالعلاقات الدولية، فبما أنّ المسلم مرتبط ارتباطاً دينياً وعقائدياً بالكعبة الشريفة وبمكة المكرمة، فالحكومات الإسلامية تلتقی سنوياً علی مسرح مكة المكرمة من خلال حجيجها..

وهكذا يتفاعل الوضع الاجتماعی بالاقتصادی بالسياسی بالروحی بالاخلاقی فی وحدة واحدة يكمّل بعضها بعضاً.

الفصل الثانی: من تاريخ الحج

اشارة

ص: ۲۵

الفصل الثانی: من تاریخ الحج

ص: ۲۶

ص: ۲۷

قد يعتقد بعض الناس أنّ الحجّ أمرٌ أو حالة تقتصر على الدين الإسلامى والمسلمين فقط، وبالكيفية التى فصّلتها كتب الفقه المستمدّة من الكتاب الكريم والسُنّة الشريفة.

ولكنّ المتتبّع للحضارات القديمة والديانات السماوية والوضعية يجد أنّ الحج ركن دينى أساسى، مارسته الحضارات المختلفة، وأَلِفَته الأديان السماوية والوضعية بشكل مشابه بعض الشىء للحج الإسلامى.

ولعلَّ الكشوفات الأثرية الحديثة والتطوّر فى المعارف والثقافة، والاطّلاع على الشعوب البدائية من خلال الدراسات «الإنثروبولوجية» الميدانية، لعلَّ كلّ ذلك كشف المزيد من المعلومات عن هذه الفريضة العالمية الكبيرة.

إنّ كثيراً من الهياكل والمعابد والمراكز الدينية المنتشرة فى العالم، فى بلاد وادى الرافدين وبلاد وادى النيل، وهياكل العبادة فى كثير من المدن والبلدان هى فى الحقيقة كانت مراكز أساسية للحج، يأتيها الزائرون قاصدين إليها لأداء أعمال وأفعال وممارسات وطقوس محدّدة يعرفها المنتسبون لتلك الديانات.. يأتون فى

ص: ۲۸

وقت محدّد وعلی جماعات، أَلیس ذلک هو الحج؟

إنّ الحج وإن اختلف بین حضارة وحضارة ودین ودین، یبقی مرجعه ومحوره النموذجی هو الحج الذی فرضه اللَّه تعالی علی عباده.

والمحور النموذجی والمرجع الحقیقی لکل حج فی تاریخ الإنسان هو حج الأنبیاء والرسل وحج إبراهیم علیه السلام الذی دعا الناس بأمرٍ من اللَّه تعالی لأوّل بیت مقدّس علی وجه الأرض، إلی أوّل بیت من بیوت اللَّه جُعل للهدایة ولغفران الذنوب، وهو بیت اللَّه العتیق فی مکّة المکرّمة، قال تعالی: إنّ أوّل بیت وضع للناس للذی ببکّة مبارکاً وهدًی للعالمین (۱)

.أی: جعل هذا البیت لجمیع الناس، ولجمیع الأدیان، منذ خلقه اللَّه تعالی حتّی یقوم الحساب، ولم یخصّصه لفئة معیّنة أو لدین معیّن؛ لأنّ الدعوة إلی الدین، مصدرها الواحد الأحد لا غیر، فالخالق واحد، والدعوة إلی الهدی فی جمیع الأدیان السماویة التوحیدیة واحدة أیضاً، ولا یمکن أن یفرق بین عباده، بأن یجعل لأحدهم بیتاً مبارکاً ذا رحمة وخیر وبرکة، ولا یجعل للآخرین مثله، وقوله تعالی:

وضع للناس و هدًی للعالمین یدل علی ذلک المعنی

لکنّ الناس عبر المسیرة البشریة حرّفت الأدیان والتعالیم السماویة، والکتب المنزلة، کصحف إبراهیم علیه السلام، وتوراة موسی علیه السلام، وإنجیل عیسی علیه السلام، وزبور داود علیه السلام، إلی ما تشتهی الأنفس ویمیل الهوی عندهم اتخذوا دینهم لعباً ولهواً وغرّتهم الحیاة الدنیا (۲)

، وابتعدوا تماماً عن الدین، إلّامن هدی اللَّه تعالی منهم، قال تعالی:

ولقد بعثنا فی کلّ امّةٍ رسولًا أن اعبدوا اللَّه واجتنبوا الطاغوت فمنهم من

۱- ۱ آل عمران: ۹۶.

۲- ۲ الأنعام: ۷۰.

ص: ۲۹

هدى اللَّه ومنهم من حقّت عليه الضلالة (۱)

.فلما ابتعد أكثر الناس عن الدين الحنيف- دين اللَّه- عبدوا الأصنام، وتعدّدت الآلهة، وصُنِفت إلى إله الشمس وإله القمر وإله الخير وإله الشر...، وقدّسوا ظواهر الطبيعة من أشجار وغابات وجبال وأنهار وكواكب ووديان وأفلاك.

وبعضهم الآخر قدّس قبور الموتى وحيوانات معيّنة... وجعلوا منها أماكن ومراكز يزورونها فى أوقات معيّنة وأكثرها زيارات الأعياد؛ لتكون زيارة جماعية موقتة بزمن ومكان، وإذا اجتمعت هذه الثنائية كوّنت حجّاً!.

الحج فى حضارة وادى النيل

اشتهرت أرض مصر الفرعونية بالهياكل، والمقابر الضخمة كالاهرامات، وبتعدّد الآلهة إلّافى زمن اخناتون الموحِّد للآلهة.

فالهياكل انتشرت فى أنحاء مصر القديمة وأشهرها «الكَرْنَكْ» و «الأُقصُر» و «إدْفُو» و «دَنْدارة». وهذه الهياكل بعضها محفور فى شاهق صخرى كمعبد «أبى سِمْبل» فى بلاد النوبة، الذى هو أشهر الهياكل وقيل أقدمها، وله أهمية كبيرة فى نفوس المصريين القدماء، وحين تولّى رمسيس الثانى عرش مصر نحته فى الصخر الحىّ وأتمّ بناءه (۲).

واعتقد المصريون بآلهة كثيرة، ولكنّهم آثروا عبادة اثنين كان لهم السبق على جميع الآلهة الاخرى، أحدهما (أوزيريس) الذى لم يقهره الموت، والآخر هو الشمس التى تبهر البصر بضيائها فى سماء مصر الصافية، هذا هو الإله «رع» الذى

۱- ۱ النحل: ۳۶.

۲- ۲ انظر قصّة الحضارة، ول ديورانت، مج ۱، ج ۲. وكتاب الحضارات: ۲۶- ۲۷، وكذلك موسوعة المورد ۱: ۳۰.

ص: ۳۰

كان أعظم الآلهة المصرية كإله للأحياء، والذى أقام المصريون لعبادته أفخم معابدهم. ولم يكن الهرم إلّارمزاً مقدّساً له (۱).

وكانت الهياكل على شكلٍ كبير من الضخامة؛ لتليق بالآلهة- كما يعتقدون- كمعبد «الكرنك» الذى يبلغ طوله حوالى (۱۰۰) متر تقريباً. والتصميم المعتمد هو نفسه تقريباً فى كلّ الهياكل. وأقسامه الأساسية هى: بُرجان ضخمان عند المدخل، وأمام كلّ من البرجين تنتصب مِسَلّة حجرية وسارية ترفرف عليها أعلام. وفى بعض المعابد يحيط بالمدخل صفّان من تماثيل «أبى الهول» (۲) وفى نهاية المدخل بوّابة تؤدى إلى باحة محاطة بالأعمدة، وفى نهاية الباحة «بهو الأعمدة» الذى لا يدخله إلّاالكهنة والمتنفّذون. ويلى «بهو الأعمدة» حجرة سرّية تحيط بها مقصورات تعجّ بالنفائس، وفى وسطها المركب المقدّس. بينما تمثال الإله يوضع فى فناء المعبد (۳).

ثم صار الآلهة فى آخر الأمر بشراً- أو بعبارة أصحّ أصبح البشر آلهة، ولم يكن آلهة مصر من الآدميين إلّارجالًا متفوّقين أو نساء متفوّقات خُلقوا فى صورة عظيمة باسلة (۴). فقد ألّهوا (أزوريس) الذى أصبح قبره فيما بعد محجّةً لهم وللأجيال بعدهم. ويذكر لنا التاريخ أنّ المصريين القدماء كانوا يعتقدون أنّ آلهتهم تجتمع فى معبد «أوزيرس» بمدينة «أبيدوس» فى عيد هذا المعبود، فكانوا يحجّون إليه بهذه المناسبة، ولمدينة أبيدوس تاريخ دينى وسياسى مرموق، ففيها دُفن أقدم

۱- ۱ انتصار الحضارة، چيمس هنرى برستر، ترجمة د. أحمد فخرى: ۹۴، الجامعة العربية.

۲- ۲ أبى الهول: تمثال رأسه على شكل إنسان، ووجهه كالفرعون خفرع يرقى تاريخه إلى حوالى ۲۲۵۰ ق. م.

۳- ۳ كتاب الحضارات، لبيب عبدالساتر: ۲۷.

۴- ۴ قصّة الحضارة، مصدر سابق: ۱۵۹.

ص: ۳۱

ملوك مصر، وإليها انتقلت عبادة «أوزوريس» وفى المكان المعروف اليوم «بأم العقاب» جعل المصريون قبره، وعُدت أبيدوس كعبة يطوفون بها حول قبر الشهيد «أزوريس» الذى صار لديهم (إمام الموتى والشهداء، لا يدخلون الجنّة إلّا من بابه، ويبنون لهم فيها مزارات...» (۱).

ولهذا الشهيد اسطورة تحكيها لنا الكتابات المسجلة على جدران المعبد باللغة «الهيروغليفية». ولأهمية هذه الاسطورة الخرافية فى معتقداتهم بحيث يصبح قبر بطلها كعبة يُحج إليها كلّ عام، ويُقدّم لها كل غالٍ ونفيس، تقول الاسطورة: «إنّه فى قديم الزمان كان يحكم هذه البلاد ملك اسمه "جب "وكان له ولدان من الذكور واثنتان من الإناث. وزوّج الملك ابنه أوزوريس من اخته ايزيس، كما زوج ابنه ست من أخته تفتيس.. ولأنّ أوزوريس كان طيب القلب عادلًا ملّكه أبوه الوديان الخضر والسهول والأنهار. أما ست الذى كان شرّيراً حاقداً فقد ملّكه أبوه أرض الصحارى القاحلة والرمال القفر. وكان أوزوريس موسيقياً بارعاً أحبّهُ الناس، فحقد عليه أخوه ست، وتآمر مع آخرين حتى صنع صندوقاً من الذهب الخالص بحجم أوزوريس، وزعم فى حفل أقامه أنّه يهديه لمن يتسع له.. فأقام مأدبة واستلقى فيه كثيرٌ حتى استلقى الأخ، فأمر ست بإغلاق الغطاء وإلقائه فى النيل. وراحت الأمواج تتقاذف الصندوق.. ووظّفت زوجته الوفية، ما لديها من علوم السحر، حتّى عرفت محلّه الذى استقر فيه الصندوق. فركبت سفينة انطلقت بها.. وتحايلت على ملك ببلوس الذى احتفظ بالصندوق، وكشفت له عن شخصيتها، وأماطت اللثام عن سيّدها، فسمح لها باسترداد الصندوق. وإذ حلَّ عليها المساء، نامت فوق الصندوق الذى فيه زوجها، فجاءتها الرؤيا وهى نائمة بأنّها حملت من روح زوجها، وعندما عادت إلى مصر اختفت ومعها الصندوق فى

۱- ۱ راجع الموسوعة العربية الميسّرة، مصدر سابق: ۱۵۹.

ص: ۳۲

جزيرة فيلـة خوفاً عليه من (ست). وظلّت مختفيـةً حتى ولـدت «حورس». وعثر (ست) على الصـندوق، وقطّع جثـة أوزوريس إلى (۱۶) قطعة بعثرها فى جميع معبد «أبى سنبل» وفيه قبر «إمام الموتى والشهداء!» أوزوريس

ص: ۳۳

مقاطعات مصر، وفتشت الزوجة الوفية فعثرت عليها إلّاالقدم اليمنى . وكانت هذه القدم تجلب الخير والخصب والطمى؛ لتنمو ربوع مصر بالخير والفيضان للنيل، ومنذ تلك اللحظة صار أوزوريس ملكاً للموتى يتولى حسابهم فى الآخرة، وأصبح ابنه «حورس» من بعد هو الإله.. ونُصب له تمثال برأس الصقر الذهبى..» (۱).

الحجّ فى حضارة وادى الرافدين

أمّا فى حضارة ما بين النهرين- السومرية والبابلية والأكدية والآشورية- التى استمرّت ثلاثة آلاف عام، كان (الإله آنو) على رأس (البانتيون)، وكانت الآلهة تخرج بملابس محمولة بشرف على أكتاف الكهنة، فى أعياد رأس السنة، وبمراسم خاصّة وطقوس خاصّة، وكانت لها أهمّية ذات حدّين، وقد يقوم الإله بزيارة طقسية إلى معبودات اخرى بمناسبة الأعياد الكبيرة، لذا فإنّ (نابو) فى بورسيا يزور بانتظام والده مردوخ فى عيد رأس السنة الجديدة فى بابل (۲).

وتعدّدت الآلهة فى وادى الرافدين بتعدّد المدن والدويلات، وحصر السومريون آلهتهم فى مجموعتين: الثالوث الأوّل ويتألّف من «آنو» إله السماء «وأنليل» إله الأرض، و «إيا» إله المياه الجوفية، فجمعوا بذلك بين عناصر المادّة الثلاثة: السائل والهواء والجماد. والثالوث الثانى يتألّف من «شَمَشْ» إله الشمس،

۱- ۱ انظر قصة الحضارة، مصدر سابق: ۱۵۹- ۱۶۷. وانتصار الحضارة، مصدر سابق: ۹۳- ۹۴. ومجلة العربى، استطلاع: سليمان مظهر: ۱۴۲- ۱۴۳ منهم من اختصر القصّة ومنهم من فصّلها.

۲- ۲ انظر عظمة بابل، د. هارى ساكز، ترجمة د. عامر إبراهيم: ۴۱۲.

ص: ۳۴

و «سین» إله القمر، و «أدَدْ» الذی یجمع کلّ عناصر الطبیعة. وأدَدْ هذا أدخله «الاکدیون» معهم من بلاد «أمورّو». وأضافت کلّ دولة إلهاً خاصّاً بها مثل «مردوخ» و «آشور» و «عشتار» و «نَبُو» (۱).

وأهم الأبنیة الدینیة عندهم هی المعابد والمقابر: وعُرفت المعابد باسم «الزقورة» أقدمها ما بناه السومریون، وأشهرها «برج بابل» حیث عُبد الإله «نَبُو» (۲).

وکان لکلّ مدینة مهمّة- فی بلاد ما بین النهرین- معبد مهم، وفی کلّ معبد برج شامخ یسمّونَهُ «زقورة» شکله مربّع فی المعابد المربعة، ومستدیر فی المعابد البیضویة، تراقب منه الکواکب والنجوم. نظراً لما لعلم الفلک من أهمّیة وتأثیر فی الحیاة الیومیة والدینیة، وکانوا یعلنون من خلاله بدایة رأس السنة الجدیدة، لیعلنوا بدایات الطقوس الدینیة السنویة لزوّار الزقورة فی المعبد. وقد کشفت التنقیبات الحدیثة عن زقورات عدیدة منها زقورة اورک ونیبور وآشور وخورس ونمرود وماری وغیرها، وکانت هذه أماکن مهمّة (للحج) فی أعیاد رأس السنة المعروفة عندهم آنذاک علی ما یبدو..

«ویشیر لنزن H. Lenzen، وهو حُجة فی موضوع الزقورة، ویؤکد أن المعبد العالی- أعلی الزقورة- لم یکن مجرّد مکان لاستراحة المعبود، بل أن طقساً حقیقیاً کان یتمّ إجراؤه هناک. ولذا فقد کانت الزقورة بهذا المعنی «مذبحاً عظیماً» وفی داخل المعبد، قریباً من قاعدة الزقورة، کانت غُرفة الإله الرئیس، وعدد من المصلیات الصغیرة بالنسبة للمعبودات المرتبطة به، علی حین یوجد خارج هذا

۱- ۱ الحضارات، لبیب عبد الساتر: ۴۲.

۲- ۲ المصدر السابق: ۴۶ وقصّة الحضارة ۱، ۲، الباب التاسع بابل.

ص: ۳۵

الهیکل الرئیسی ساحة کبیرة حیث تجتمع العامّة فی أوقات الأعیاد» (۱).

یبدو من کلّ ذلک ومن الطقوس والمراسیم والرحلات الجماعیة إلی الزقورة (۲) ومع ما یصطحبها من ذبح وقرابین وأعمال خاصة من النحور وبعض المراسم الطقسیة السنویة. أنّها- الزقورات- أماکن حج لتلک الأقوام.. وبالطبع هو حج وضعی غیر إلهی واضح من آلهتهم المتعدّدة وعبادتهم للآلهة البشر.

والجدیر بالذکر أنّ حضارة وادی الرافدین الطویلة فی الزمن وفی التاریخ، لابد من أن تکون هناک أماکن اخری محلیة قصدها الزوّار؛ لغرض أداء طقوس معیّنة وشکلیات منظمة یمکن أن تحسّها أنواعاً من حجّهم.. ولعل السبب فی عدم العثور علی تلک الحقائق هو طبیعة البناء عندهم، حیث کان ذا أساس طینی ممّا لم تبقِ الفیضانات له شیئاً عبر الزمن. وهذا خلاف طبیعة البناء المصری القدیم الذی غالباً ما یکون بناء صخریاً یحافظ علیه مناخ مصر الجاف آلافاً من السنین.

وهناک مذهب دینی فی حضارة وادی الرافدین یرجع تاریخه إلی عهدٍ قدیم، وهو مذهب الصابئة، یدّعی أصحابه: «أنّ معلمیهم الأوّلین هما النبیان الفیلسوفان عاذیمون (أی الروح الطیب) وهرمس، وقد قیل: إنّ عاذیمون هو شیث (۳) الابن الثالث لآدم علیه السلام، وإنّ هرمس هو النبی إدریس علیه السلام (۴). وکان

۱- ۱ عظمة بابل، مصدر سابق: ۴۱۰.

۲- ۲ الزقورة: برج هرمی متعدّد الطبقات، یعتبر بمثابة صرح دینی نموذجی علی ما یصفه د. هنری‌س. عبودی فی معجم الحضارات السامیة. والزقورة تبدو فی الصورة أعلاه کالکعبة وسط الحرم. فالزقورة وسط المعبد تحیطها ساحة کبیرة لاستیعاب الحجاج فی موسم رأس السنة.

۳- ۳ شیث: وتعنی هبة اللّه، وهو الجد الثالث لإدریس علیه السلام، وقد حکم فی الناس بعد أبیه آدم علیه السلام واستشرع صحفه وما أنزل علیه فی خاصته من الأسفار والأشراع.

۴- ۴ إدریس: تزعم الصابئة أنّه هرمس، ومعنی هرمس عطارد. وقد أنزل اللّه تعالی علیه ثلاثین صحیفة، وکان قد نزّل قبل ذلک علی آدم، إحدی وعشرین صحیفة، وأنزل علی شیث تسعاً وعشرین صحیفة فیها تهلیل وتسبیح.

ص: ۳۶

أورفيوس أيضاً من فلاسفتهم وأنبيائهم» (۱).

وكانت هذه الفئة تسكن مدينة حرّان الواقعة فی الجنوب الشرقی من تركيا الحالية «وهی بين طريق الموصل والشام» (۲).

وحرّان: مدينة قديمة جدّاً تقع قرب منابع نهر البليخ بين الرها ورأس عين،

۱- ۱ انظر: دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة من المستشرقين ۱۴: ۸۹. وكتاب الملل والنحل للشهرستانی: ۴۷.

۲- ۲ معجم البلدان، ياقوت الحموی، باب الحاء والراء.

ص: ۳۷

وقد اشتهرت بأنّها موطن إبراهیم علیه السلام ولابان، ولکن شهرتها ترجع بصفة خاصة إلی أنّها (قصبة الصابئة) وموئل دینهم (۱).

واشتهرت فی التاریخ أنّها مقر عبادة (سن) إله القمر الذی زیّن معبده أکثر من ملک من ملوک الآشوریین، ولم تتغیّر الأحوال فی‌المدینة علی‌أثر انهیار سلطان الکلدانیین وقیام دولة الفرس (۲). وکانت مرکزاً هامّاً فی طریق التجارة من نینوی إلی قرقمیش، وکانت مرکزاً لعبادة إله القمر الآشوری (۳).

وحرّان المدینة المقدّسة عند الصابئة، ومقصد حجّهم حیث معبدهم مقر «سن» إله القمر، «وفئة من الصابئة تحج إلی حاران- أو حرّان- التی هاجر إلیها إبراهیم علیه السلام، وینسب إلیها الصابئة الحرّانیون» (۴).

والصابئة فرق متعدّدة، رغم قلّتهم، فمنهم من ینتمی إلی کاظم بن تارح، وقد ذکرهم المقریزی بین الفرق المختلفة، وکأنّهم یقابلون دین إبراهیم علیه السلام بدین أخ له ینتمی إلی تارح، أبی إبراهیم فی روایة العهد القدیم (۵).

ویقال: إنّ الحرّانیین ینتمون إلی حاران أو هادان أخی إبراهیم علیه السلام وقد یکون هو نفسه المقصود (کاظم) ولا دلیل لنا علی ذلک.

وقد ذکر أبو ریحان البیرونی فی الآثار الباقیة: «أنّ أوّل المذکورین من الصابئة: یعنی المتنبئین یوذاسف، وقد ظهر عند مضی سنة من ملک طمهورث بأرض الهند، وأتی بالکتابة الفارسیة، ودعا إلی ملّة الصابئین فاتبعه خلق کثیر،

۱- ۱ انظر دائرة المعارف الإسلامیة ۷: ۳۵۴.

۲- ۲ انظر المصدر السابق: ۳۵۵.

۳- ۳ الموسوعة العربیة المیسّرة، مصدر سابق: ۶۹۵.

۴- ۴ إبراهیم أبو الأنبیاء، العقّاد: ۸۹.

۵- ۵ المصدر السابق: ۹۰.

ص: ۳۸

وکانت الملوک البیشدادیة وبعض الکیانیة ممّن کان یستوطن بلخ، یعظّمون النیرین والکواکب وکلیات العناصر، ویقدّسونها إلی وقت ظهور زرادشت عند مضی ثلاثین سنة من ملک بشتاسف، وبقایا أولئک الصابئین (بحرّان) یُنسبون إلی موضعهم، فیقال لهم: الحرانیة وقد قیل: إنّها نسبة إلی هاران بن ترخ أخی إبراهیم علیه السلام وأنّه کان من بین رؤوسائهم أوغلهم فی الدین وأشدّهم تمسّکاً به» (۱).

والصابئة الحرّانیون لهم أقوال وآراء فی إبراهیم الخلیل علیه السلام یندی لها الجبین، نذکر هنا ما ینسبونه إلیه علیه السلام فی خروجه عن دینهم: «إنّ إبراهیم علیه السلام إنّما خرج عن جملتهم؛ لأنّه خرج فی قلفته برص، وإنّ من کان به ذلک فهو نجس لا یخالطونه، فقطع قلفته بذلک السبب یعنی (اختتن) (۲)، ودخل إلی بیت من بیوت الأصنام، فسمع صوتاً من صنم یقول له: یا إبراهیم خرجت من عندنا بعیب واحد، وجئتنا بعیبین، اخرج ولا تعاود المجیء إلینا، فحمله الغیظ علی أن جعلها جُذاذاً، وخرج من جملتهم، ثم إنّه ندم بعدما فعله، وأراد ذبح ابنه لکوکب المشتری صدق توبته ففداه بکبش» (۳).

وهناک فرقة اخری من فرق الصابئة تسمّی (المندیا) (۴) أو الصبوة، وهی فرقة یهودیة نصرانیة تمارس شعیرة التعمید فی العراق» (۵).

وهناک فرق اخر، أفرد الشهرستانی لهم ولشرح أقوالهم فصلًا مسهباً غایة الإسهاب فی کتابه الملل والنحل.

۱- ۱ المیزان فی تفسیر القرآن، العلّامة الطباطبائی: ۱/ ۱۹۴.

۲- ۲ مذهب الصابئة یحرّم الاختتان ویعتبر المختتن خارجاً عن الدین.

۳- ۳ المیزان، مصدر سابق: ۱/ ۱۹۴.

۴- ۴ المندیا: فرقة من الصابئة وتسمّی نصاری یوحنا المعمدان.

۵- ۵ دائرة المعارف الإسلامیة ۱۴: ۸۹.

ص: ۳۹

ومن الصابئة من یعظِّم بیت اللّه الحرام والکعبة الشریفة ویحج إلیها کلّ عام، وجاء فی الأحادیث الشریفة، أن أنواعاً من الحج تعدّدت فی الجزیرة العربیة قبل الإسلام، وکان أهمّها الحج الجاهلی والحج الحنفی والحج الصابئی.

وتدّعی هذه الفرقة من الصابئة أنّ الکعبة وأصنامها کانت لهم، وعبدتها کانوا من جملتهم وأنّ اللّات کان باسم زحل، والعزی باسم الزهرة» (۱).

«والمشهور عن الصابئة أنّهم یوقّرون الکعبة فی مکّة، ویعتقدون أنّها من بناء هرمس أی إدریس علیه السلام وأنّها بیت زحل أعلی الکواکب السیّارة، ویُنقل عنهم عارفوهم أنّهم قرأوا صفة محمّد صلی الله علیه و آله فی کتبهم ویسمّونه عندهم ملک العرب» (۲).

وقد ذکرهم القرآن الکریم فی ثلاثة مواضع فقط، فی سورة البقرة، الآیة ۶۲.

وفی سورة المائدة، الآیة ۶۹، وفی سورة الحج الآیة ۱۷.

والصابئة دین خلیط یشبه الجمیع فی بعض شرائعه، ویختلف مع الجمیع فی بعض شرائعه الاخری (۳).

الحجّ فی الحضارة الفارسیة القدیمة

۱- ۱ المیزان، مصدر سابق.

۲- ۲ إبراهیم أبو الأنبیاء، العقّاد: ۹۱.

۳- ۳ إبراهیم أبو الأنبیاء، العقّاد: ۸۷- ۹۰.

ص: ۴۰

وفى الحضارة الفارسية القديمة طقوس ورسوم وعقائد وأفكار يطول تعدادها لو أردنا الدخول إليها، ولكن لنأخذ مقطعاً من تأريخها وليكن الديانة الزرادشتية؛ لأنّها أشهر ديانة وأعظم تعاليم تمسّك بها الفرس منذ «القرن العاشر أو السادس قبل الميلاد» (۱) حتى يومنا هذا توجد بقايا من أتباعه فى مدينة يزد الإيرانية وفى الهند.

والذين يدينون بالزرادشتية يعرفون أن تعاليمها تأتى من خمسة كتب مقدّسة ادّعى بها نبيّهم «زرادشت» (۲) أنّها من وحى الإله الواحد أهورا- مزدا إله النور والسماء.

ومن بين هذه الكتب المقدّسة كتاب «الياسنا» الذى يهتم بالشعائر والطقوس، ويمكننا أن نلتقط من هذه الشعائر والطقوس ما يمكن أن يمثّل شكلًا من أشكال الحج، حيث الزيارات السنوية المقدّسة إلى المعابد فى الأعياد الدينية، وتقديم

۱- ۱ قصّة الحضارة، مصدر سابق مج ۱، ۲: ۴۲۵.

۲- ۲ زرادشت: مصلح إيرانى ظهر فى إيران قبل المسيح بمئات السنين، وله قصّة مثيرة ومؤثّرة فى‌نفوس أتباعه، قيل: إنّ امّه قد حملت به حملًا إلهياً قدسياً؛ ذلك أنّ الملاك الذى كان يرعاه تسرّب إلى نبات الهَوْما، وانتقل مع عصارته إلى جسم كاهن حين كان يقرّب القرابين المقدّسة. وفى ذلك الوقت نفسه دخل شعاع من أشعة العظمة السماوية إلى صدر فتاة راسخة النسب سامقة فى الشرف، وتزوّج الكاهن بالفتاة، وامتزج الحبيسان الملاك والشعاع، فنشأ «زرادشت» من هذا المزيج، وقهقهه حين ولادته ففرّت من حوله الأرواح الخبيثة، وأحبّ هذا الوليد الحكمة والاصطلاح، ثم تجلّى له رب النور الإله الأعظم، ووضع فى يديه الأبستاق أى كتاب العلم والحكمة، وأمره أن يعظ الناس.

وهكذا ولد الدين الزردشتى. وعمَّر زرادشت طويلًا حتّى أحرقه وميض برق، وصعد إلى السماء، انظر قصّة الحضارة مج ۱، ۲: ۴۲۴.

ص: ۴۱

الأضاحى والنذورات ومراسم مقدّسة أخرى .

ومن تعاليم هذا الكتاب «التقوى يقول ول ديورانت: «ولمّا كانت التقوى أعظم الفضائل على الإطلاق- عندهم- فإنّ أوّل ما يجب على الإنسان فى هذه الحياة أن يعبد اللّه بالطهر والتضحية والصلاة. ولم تك فارس الزرادشتية تسمح بإقامة الهياكل أو الأصنام، بل كانوا ينشئون المذابح المقدّسة على قمم الجبال وفى القصور أو فى قلب المدن، وكانوا يوقدون النار فوقها تكريماً لآهورا- مزدا، أو لغيره من صغار الآلهة. وكانوا يتخذون النار نفسها إلهاً يعبدونه ويسمّونها «أنار» ويعتقدون أنّها ابن إله النور.. وكانوا يقرّبون إلى الشمس، وإلى النار- التى لا تنطفئ طيلة العام- وإلى أهورا مزدا، القرابين من الأزهار والخير، والفاكهة، والعطور، والثيران والضأن والجمال والخيل والحمير وذكور الوعل، وكانوا فى أقدم الأزمنة يقرّبون إليها الضحايا البشرية (۱) شأن غيرهم من الامم، ولم يكن للآلهة من هذه القرابين إلّارائحتها.. لأنّ الآلهة- على حدّ قول الكهنة- ليست فى حاجة إلى أكثر من روح الضحية (۲).

«وكان الأهلون- عامّة الشعب المتديّن- يجتمعون فى الأعياد وكلّهم يرتدون الملابس البيضاء. وكانت (الشريعة الأبستاقية) (۳) كالشريعتين الإبراهيمية والموسوية مليئة بمراسم التطهير والحذر من القذارة، وكان فى كتاب الزرادشتية المقدّس فقرات طويلة ممّا خصّت كلّها بشرح القواعد الواجب اتباعها لطهارة الجسد والروح» (۴).

۱- ۱ كان تقديم الضحايا البشرية قبل عهد زرادشت أى فى عهد المجوس الذى قضى عليهم زردشت.

۲- ۲ قصّة الحضارة، مصدر سابق: ۴۳۳.

۳- ۳ الشريعة الابستاقية هى نفسها شريعة زرادشت وتنسب إلى كتابه المقدّس.

۴- ۴ قصّة الحضارة، مصدر سابق: ۴۳۹.

ص: ۴۲

ونفهم ممّا سبق أنّ لهم زيارات سنوية لمعابدهم يؤدّون فيها طقوساً خاصّة، ويلبسون الملابس البيضاء، ويقدّمون الضحايا ممّا يدلّ على أنّ لهم حجّاً بالمعنى اللغوى الذى فهمناه.

الحجّ فى الحضارة الرومانية

والحضارة الرومانية كذلك عرفت الحج، ونظّمت طقوساً خاصّة به، ممّا يتعلّق بديانتهم، وبنت الهياكل الكبيرة (۱) المربعة منها والمستديرة، وقدّمت للهياكل

۱- ۱ أعظم هيكل رومانى هو هيكل يونو المنذرة أو الحارسة على القمّة الشمالية لتل الكپتولوعلى المنحدر الجنوبى من هذا التل يوجد معبد ساترن، ويرجع بناء ذلك المزار أو الهيكل- الذى هو أقدس مزارات رومة- يرجع تاريخه إلى عام ۴۹۷ ق. م. ولا زالت آثاره باقية حتى الآن. انظر قصّة الحضارة: مج ۵، ۱: ۲۹۳.

ص: ۴۳

هـدايا وأضاحى ونـذورات، وعددت الآلهة، وجعلت لكلِّ شـيءٍ إلهاً، وتقرّبت للآلهة؛ لكسب عونها ورضاها، أو لاتقاء غضـبها. وكان الكهنـة يوصون الحجّاج أو زائرى الهياكل والمعابـد أن يلتزموا بالدقّـة فى ممارسـة الطقوس والشـعائر الخاصّة فى الاحتفال فى الأعياد السـنوية وغير السـنوية، وإذا وقع خطـأ فى طقس من هـذه الطقوس أيّـاً كـان نوعه، وجبت إعـادته من جديـد، ولو تطلّب ذلك إعادته ثلاثين مرّة (۱).

وكان أهم ما فى هذه الطقوس، التضـحية «وفى أكبر المناسبات أهمية عيد السو أفى يلية (Su- ove- taur- illa) أى (عيد الخنزير والشاة والثور). وكانوا يعتقـدون أنّه إذا تليت صـيغ خاصة على التضـحية اسـتحالت إلى إله يراد منه أن يتقبلها، وعلى هذا الاعتبار كان الإله نفسه هو الذى يضحى به» (۲).

وهنـاك مراسم اخرى فى عيـد التطهير «وكـان احتفـال التطهير من أكثر هـذه الطقوس متعـة، وكان هـذا التطهير يحـدث للمحصولات الزراعيـة أو لقطعات الماشـية أو للجيش أو المدينة. وكانت الطريقة المتّبعة فى هذا الاحتفال أن يطوف موكب بالشـيء المراد تطهيره، ويقدّم له الصلوات والذبائح والانشودة والرقية، ورجاء الإجابة فانّ لم يجب فإن غلطة ما قد حدثت فى الطقوس المرعية» (۳).

وهنـاك مكـان آخر حـجّ إليه الرومان وهو إله القمر (ديانا) «وكانت- ديانا- فى زعمهم روح شـجرة جيء بها من أريشـة (Aricea) حينما خضع هذا الإقليم من

۱- ۱ المصدر السابق ۲: ۱۳۳.

۲- ۲ المصدر السابق: ۱۳۵- ۱۳۶.

۳- ۳ المصدر نفسه.

ص: ۴۴

أقـاليم لاـ ينوم لحكم رومـة، وكان بالقرب من أريشـيا بحيرة نيمى Nemi وأيكتهـا، وكان فى هـذه الأيكـة مزار ديانا ملجأ الحجاج، الـذين يعتقدون أن هذه الالهة قد ضاجعت فى هذا المكان فربيوس Virbius ملك الغابات الأوّل، ولكى يضـمن دوام إخصاب ديانا وإخصاب الأرض كان خلفاء فربيوس- وهم كهنـة الصائـدة وأزواجها- يسـتبدل بهم جميعاً واحداً بعد واحد أى عبد قوى يعوذ نفسـه بغصن (يسـمى عنـدهم بالغصن الـذهبى) يأخذه من شـجرة البلوط المقدّسة إحدى أشـجار الأيكة ويهاجم الملك ويذبحه. وقد بقيت هذه العادة إلى القرن الثانى بعد ميلاد المسيح» (۱).

أمّا رومة المسيحية فقد اتخذت أشكالًا أُخرى وأنواعاً من الحج سنتحدّث عنها فى (الحجّ فى الديانة المسيحية) وفى وقت آخر إن شاء اللّه تعالى.

الحجّ فى الحضارة الهندية

أمّا الهند فلا يمكن استيعابها بأسـرها؛ لكثرة السكان واختلاف اللغات والأديان، فهى ليست أمّة واحدة كمصر أو بابل أو رومة، بل هى قارة بأسرها.

لقـد تعـدّدت الأديان فى الهنـد، وأخـذت عقائـدها الدينيـة ما يمثِّل كل مراحل العقيـدة من الوثنية البربرية إلى أدقّ وحدة فى الوجود وأكثرها روحانية منذ عام ۲۹۰۰ ق. م إلى يومنا هذا..

لقد وضع الهنود لهم أعياداً سـنوية كغيرهم من الامم، وبعض هذه الأعياد يصاحبها حج إلى معبد أو ضـريح أو هيكل معيّن، وممارسـة بعض الطقوس والشعائر المتعلّقة به، كما وجدنا ذلك عند بقية الامم، فغالباً ما يكون الحج مصحوباً بعيد سنوى دينى.

۱- ۱ المصدر السابق: ۱۲۸.

ص: ۴۵

والهنود قلّدوا ما قبلهم من الأقوام، الذين نطقوا باللغة السنسكريتية، ووضعوا الأدعية والصلاة وغيرها بتلك اللغة «فكانوا يسيرون مواكب عظيمة أو أفواجاً من الحجّاج، قاصدين الأضرحة القديمة، ولم يكونوا ليفهموا ما يُقال من عبارات الصلاة فى تلك المعابد؛ لأنّها كانت تقال «بالسنسكريتية»، لكنّهم كانوا يفهمون الأوثان، فيزينونها بالحُلى ويطلونها بالطلاء، ويرصعونها بكريم الأحجار، وكانوا أحياناً يُعاملونها كأنّها كائنات بشرية..» (۱).

وأعظم الطقوس الجماعية عندهم هى تقديم القرابين، فالقربان عند الهندى ليس مجرّد صورة خاوية؛ لأنّه يعتقد أنّه إذا لم يقدمه للآلهة طعاماً تموت جوعاً. ولما كان الإنسان فى مرحلة أكل اللحوم البشرية، كانت القرابين فى الهند كما فى غيرها من بلاد العالم قرابين أو ضحايا بشرية.. فلمّا تقدّمت الأخلاق أخذت الآلهة تكتفى بالحيوان قرباناً (۲).

وهناك مركز رئيسى للحج عند الهنود منذ القرن ۱۶ ق. م وهو مدينة بنارس الجليلة القدر عندهم، كعبة يحجّون إليها سنوياً يقدّسها البوذيون والچين، ويقصدها سنوياً حوالى مليون حاج؛ لزيارة معابدها وأضرحتها التى تمتد ۶۵ كم بموازاة الجانج، وبها المعبد الذهبى (۳).

يقول وِل ديورانت فى شأن هذه المدينة:

«.. وبنارس هى المدينة المقدّسة للهند، إذ باتت كعبة الملايين من الحجّاج، يؤمّها الشيوخ من الرجال والعجائز من النساء جاءوا من كل أرجاء البلاد؛ ليستحموا فى النهر المقدّس (نهر الكنج) حتى يستقبلوا الموتى برآء من كل إثم

۱- ۱ قصة الحضارة مج ۲، ۳: ۲۲۴- ۲۲۵.

۲- ۲ المصدر نفسه.

۳- ۳ الموسوعة العربية الميسّرة: ۴۰۷.

ص: ۴۶

أطهاراً من كلّ رجس. إنّ الإنسان ليأخذه الخشوع، بل يأخذه الفزع، حين يتذكّر أنّ أمثال هؤلاء الناس قد حجّوا إلى بنارس مدى ألفى عام، وغمسوا أنفسهم فى مياهها، وهم يرتعشون من لذعة البرد فى فجر الشتاء، وشمّوا بنفس متقززة لحم الموتى وهو يحترق، فعلوا كلّ ذلك وهم يفوهون بنفس الدعوات التى كان يقينهم أن تجاب، فعلوا ذلك قرناً بعد قرن، وتوجّهوا بالدعاء إلى نفس الآلهة التى لبثت على صمتها، لكن عدم استجابة إله من الآلهة لا يحول دون تعلّق القلوب به، فلا تزال الهند تعتقد اليوم بنفس القوّة، التى كانت تعتقد بها فى أى عصر مضى فى الآلهة، الذين لبثوا كلّ هذا الزمن ينظرون إلى فقرها وبؤسها، فلا تأخذهم من أجلها رحمة (۱).

وما زال السيخ يحجّون إلى هذا المعبد (۲).

هذا نموذج لحج الهند القديمة، وإذا تقدّمنا فى الزمن بعيداً من ذلك التاريخ..

تقدّمنا إلى الهند فى القرن الثامن الهجرى، فسنجد نوعاً آخر من الحج المنحرف ينسبه أصحابه هذه المرّة إلى الإسلام، ذلك هو الحج على المذهب الذِكْرى، وقد أسّس هذا المذهب: محمد المهدى الأتكى وضمّن آراءه فى كتابه البرهان. وتبدأ قصّة هذا الحج كما كتبها (أحمد مولانا عبدالخالق رحمه الله) قال:

«كان الضال ملّا محمّد المهدى الأتكى يسكن فى البنجاب، وانتقل منه من موضع إلى موضع حتى وصل إلى موضع مشهور فى بلوشستان المسمّى ب (كيج) وبدأ يستفيد من جهّال هذه المدينة استفادة باطلة، ويدّعى بأنّه «المهدى الموعود» فصار مقبولًا عند الخاص والعام، ولم يمر وقت طويل حتّى كتب كتاباً ينبئ فيه امّته المضلة بأنّه قد نُسخت الشريعة المحمّدية بمجيئه فى الدنيا، واعتقادها كفر ولا يحاسب أحد يوم القيامة عن أركانها الأربعة من الصوم والصلاة والحج

۱- ۱ قصة الرحمة مج ۲، ۳: ۲۲۷.

۲- ۲ انظر موسوعة المورد ۵: ۱۱.

ص: ۴۷

والزکاة» (۱).

وبهذا الکلام استطاع محمد الاتکی أن یصرف المسلمین سکّان تلک المنطقة عن الصوم والصلاة والزکاة، والحج إلی الکعبة المشرّفة؛ وابتکر لهم حجّاً مشابهاً للحج الاسلامی المحمّدی لأماکن شبیهة بمقدّسات مکّة المکرّمة کجبل عرفات وجبل ثور وغار حراء، وبنی لهم کعبة لیحجّوا إلیها..

ویضیف أحمد مولانا قائلًا: «والحجّ:- لا یحج معتقدو هذا المذهب- المذهب الذِکْری- إلی بیت اللّه الحرام الذی أمر المسلمون بزیارته. والحج فی الأشهر الحرام به، وإنّما اتخذوا جبلًا معروفاً باسم (کوه مراد) حجّاً لهم حیث یقع فی جنوب مدینة (تربت) وهو منسوب إلی نائبه الضال (ملّا مراد) ساکن تلک المدینة، فیحجّون فی الأیام الأخیرة من شهر رمضان بدایةً من ۲۷ من رمضان ویستغرق ثلاثة أیّام» (۲).

ویضیف أحمد مولانا أیضاً: «إنّ محمد الأتکی ادّعی أن کتابه (البرهان) (۳) أو بلغتهم (برکهور) کان ینزل علیه فی جبل (کوه إمام) من خلال «مهبط الالهام» أو الوحی تحت الشجرة، وجعل لهم هذا الجبل (کغار حراء) ثم اتخذ لهم میداناً واسعاً کعرفة، حتی إذا أرادوا الحج ذهبوا لزیارته، وهو میدان یسمّی (بکوه دن) و «کارتیزهزئی» الذی کان نهراً أو منبعاً للماء أصبح لهم بئر زمزم کما فی مکة،

۱- ۱ الفاروق، مجلّة إسلامیة ثقافیة، فصلیة تصدر عن رئاسة الجامعة الفاروقیة، باکستان: ۳۶ العدد ۵۴/ ۱۹۸۸ م.

۲- ۲ المصدر السابق: ۳۷.

۳- ۳ البرهان: کتاب ألّفه محمّد الاتکی مؤسس المذهب الذکری، وادّعی أنّه قرآنهم الجدید النازل‌علیه من السماء والناسخ لقرآن محمّد بن عبداللّه صلی الله علیه و آله. وفیه کلّ تعالیم المذهب، وفیه أحادیث عن الرسول صلی الله علیه و آله تؤکّد ظهور محمد المهدی الاتکی فی القرن الثامن الهجری.

ص: ۴۸

ولکن من سوء حظّهم نضب ماؤها الآن بأفعالهم الخبیثة» (۱).

والطریف أنّ معتنقوا هذا المذهب یؤکّدون بأن للرسول محمّد صلی الله علیه و آله أحادیث تؤکّد وتبشِّر بمجیء إمامهم الموعود (محمّد المهدی) فنری الشیخ محمد قصر قندی فی نسخته القلمیة یقول:

«إنّ أبا بکر الصدیق سأل رسول اللّه صلی الله علیه و آله: متی یکون خروج المهدی؟ فقال صلی الله علیه و آله:

السلام: «فقد یجیءُ بعد مماتی فی بلاد الهند سنة سبع وسبعین وتسعمائة اسمه کاسمی واسم أبیه کاسم أبی» (۲).

الحج فی الصین

والصین کالهند، فهی لیست موطناً موحّداً لُامّة واحدة، بل هی خلیط من أجناس مختلفة الأصول متباینة اللغات غیر متجانسة.

وقد حدّثنا المؤرِّخون بأحادیث مفصّلة عن تاریخها منذ (۳۰۰۰ ق. م) حتی العصر الحدیث، عن عاداتهم، وتقالیدهم ودیاناتهم... ولو أردنا استیعاب ذلک بأسره لطال الحدیث بنا، ولکن لنأخذ نموذجاً یعطینا صورة من صور حجّهم وطریقتهم فی الحج، علماً أن أشهر هیکل حج إلیه الصینیون کان «هیکل السماء ومذبحه» اقتداءً بسنّة الإمبراطور العظیم «تای دز ونج»: الذی کان یأتی هذا الهیکل فی الساعة الثالثة من صباح رأس السنة الصینیة للصلاة والدعاء لأسرته بالتوفیق والفلاح ولشعبه بالرخاء، ویقرب القربان للسماء التی یرجو أن تکون بصفّهِ لا ـ فی صفِّ عدوّه. وموقع هذا الهیکل بالقرب من سور «پیچنچ» التتاری الجنوبی، ویتکوّن مذبح هذا الهیکل من سلسلة من الدرج والشرفات الرخامیة،

۱- ۱ الفاروق، مصدر سابق: ۳۷.

۲- ۲ المصدر نفسه: ۳۶.

ص: ۴۹

التی کان لعددها الکبیر ونظامها أثر سحری فی نفوس الزائرین، والهیکل نفسه

هیکل السماء فی پینج

(بچودة) معد من ثلاث طبقات قائمة فوق ربوة من الرخام ومشیّدة من الآجر والقرمید الخالیین من الرونق. وقد نزلت صاعقة من السماء علی هذا المعبد فی عام ۱۸۸۹ م فأصابتهُ بضرر بلیغ (۱). وهذا الهیکل کان لعامّة الشعب أی کان معبداً عامّاً للجمیع. وهناک معبد وهیکل مخصّص للدیانة الرسمیة، وهو الذی أمر ببنائه الامبراطور المذکور أعلاه «تای دزونج»، فلمّا تربّع هذا الامبراطور العظیم علی العرش أمر أن یشاد هیکل ل «کنفوشیوس»(۲)

فی کلّ مدینة وقریة فی جمیع أنحاء

۱- ۱ قصّة الحضارة: مج ۲، ۴: ۱۸۲- ۱۸۳.

۲- ۲ کنفوشیوس: ولد عام ۵۵۱ ق. م فی مدینة تشو- فو إحدی البلاد التی کانت تکوِّن وقتئذمملکة لو، والتی تکون الآن ولایة شان توبخ. وصار فیلسوفاً، ومعلّماً محبوباً تهوی إلیه القلوب، وألَّف خمسة مجلّدات أسماها کتب القانون الخمسة ولما مات عن عمر ۷۲ سنة واراه تلامیذه التراب باحتفالٍ مهیب جدیر بما تنطوی علیه قلوبهم من حبٍّ له وإجلال، وأحاطوا قبره بأکواخٍ لهم أقاموا فیها ثلاث سنین یبکون کما تبکی الأبناء علی آبائهم. ثم بنی الامبراطور العظیم فوق قبره هیکلًا ومعبداً وأصبح مکاناً یحجّ إلیه الصینیون آلاف الأعوام.

ص: ۵۰

الامبراطوریـة، وأن یقرب لهـا القرابین (۱). وبنی هیکلًا خاصّاً للدیانة الرسـمیة فی «پیکنج» والمسـمی بهیکل «کنفوشـیوس»، وحارسـه پای- لو، وکان فخماً محفوراً أجمل حفر..

وقـد أدخلـت عـدّة تعـدیلات علیـه، وأُعیـد بنـاء بعض أجزائه عـدّة مرّات، وقـد وضـعت لوحـة روح أقـدس القدیسـین المعلم والأـب کنفوشـیوس علی قاعدة خشبیة فی مشکاة مفتوحة فی الهیکل، ونقشت العبارة الآتیة فوق المذبح الرئیسی: «إلی المعلِّم الأعظم والمثال الذی تحتذیه عشرة آلاف جیل» (۲)..

ویمکن تسـجیل عـدد آخر من الأماکن العبادیـة المناسـبة للحـج، ولکن نکتفی بهـذین النموذجین اللذین یعتبران أکثر الأماکن أهمّیة وقصداً للزیارة فی تاریخ الصین.

الحجّ فی الیابان

وحین ننتقل إلی الیابان نجـدها قـد تأثّرت بالصـین بکثیر من الامور کالفلسـفة والعقائـد الدینیة وفن بناء المعابد وغیرها.. غیر أنّ معابد الیابـان کـانت أغنی من معابـد الصـین زخرفاً وأرقی نحتاً. فما یُری فی معابـد الیابان من بوّابات فخمـة علی طول المرتقی أو المـدخل الذی یؤدّی إلی الحرم المقدّس وغیرها لا یُری فی معابد الصین.

۱- ۱ قصة الحضارة: مج ۲، ۴: ۶۶.

۲- ۲ المصدر نفسه: ۱۸۲.

ص: ۵۱

واعتادت فئة فی الیابان علی تقدیس أرواح أسلافها فحیث تلتقی عبادة أرواح الأسلاف بالطقوس البوذیة (۱) فی تعایش سلمی منسجم، تقوم معابد (الشینتو)- أی معابد تقدیس أرواح الأسلاف- مستقلة عند المعبد البوذی ومجاورة له وتسمّی فی لغتهم: «فوجی یاما». ولفظة فوجی تعنی «النار» (۲).

کما یؤمون المعابد البوذیة فی مدینة «نارا» حیث أقسم أسلافهم القدماء هناک علی تحریر وطنهم من التبعیة لإمبراطور الصین، فأصبح معبدها محجّةً لهم، ولم تکن دیانة «شنتو» بحاجة إلی تفصیل مذهبی أو طقوس معقّدة أو تشریع خلقی، ولم تکن لها طبقة من الکهنة خاصة بها، کلا! ولا تذهب إلی ما یبعث العزاء فی نفوس الناس من خلود الروح ونعیم الفردوس، فکان کلّ ما تطالب به من معتنقیها أن یحجّوا آناً بعد آن لأسلافهم وأن یقدّموا لهم ضراعة الخاشعین، ویضحّوا بالقرابین ویقدّموا النذور وغیرها (۳).

ویمکن أن نعدّ فی الیابان نوعاً آخر من الحج یتعلّق بالزهور ویمکن أن نسمّیه (حج الزهور):

فالزهور عند الیابانیین بمثابة الدین، فهم یعبدونها عبادة تشیع فیها روح التضحیة بالقرابین، ویلتقی فیها أفراد الشعب جمیعاً، وهم یرقبون فی کلّ فصل من فصول العام ما یلائمه من زهور، فإذا ما أزهرت شجرة الکریز مدی اسبوع أو اسبوعین فی أوائل شهر ابریل، یخیل الیک أنّ أهل الیابان جمیعاً قد ترکوا أعمالهم

۱- ۱ البوذیة کانت تمارس فی الیابان ولکن دخلت تعالیمها عام ۵۲۲ م من الصین بتفاصیل، وکانعلی الرجل الیابانی أن یختار لنفسه مذهباً من عدّة مذاهب فی البوذیة، أو أن یختار لنفسه سبیلها فی حج صبور إلی حیث دیر «کوپاسان» وهناک یبلغ الجنّة بأن یدفن فی أرض تقدّست بفضل ما فیها من عظام «کوبودایشی» ذلک العظیم فی علمه وفی تدیّنه وفی فنّه.

۲- ۲ موسوعة المورد: ۴/ ۱۷۷.

۳- ۳ انظر قصّة الحضارة مج ۳، ۵: ۱۰- ۱۴.

ص: ۵۲

ليحدجوا فيها بأبصارهم، بل ليحجّوا إلى الأماكن المقدّسة التى تزخر بهذه المعجزة، ويكمل فيها إزهار هذا الضرب من الشجر (۱).

جيل فوجى باليابان

حجّ الأنبياء والحضارات

لقـد قرأنا الحـج فى الحضارات فى النقاط السابقة، ولنا أن نتساءَل... أين عاش الأنبياء، أليس هم بشـراً جاؤوا لإرشاد الناس، وأين كان الناس أليسوا هم أبناء الحضارات المختلفة المنتشرة فى العالم؟

الحقيقـة أنّ الأنبيـاء وهم كثيرون جـدّاً، لابـدّ من أنّهم عـاشوا فى ثنايا الحضارات المختلفـة يرشـدون الناس، ويـدلونهم على طريق اللّه الصائب، وعلى الرغم من أننا نعرف أنّ إبراهيم عليه السـلام عاش فى حضارة وادى الرافدين، ويوسف وموسى عاشا فى حضارة وادى النيـل، وأنبيـاء بنى إسـرائيل عاشوا فى الحضارة الفينيقيـة وغيرها وآخرين فى حضارات اخرى إلّاأننا لا نعرفهم جميعهم كما جاؤوا فى أحاديث نبيّنا صلى الله عليه و آله والأئمّة الأطهار عليهم السلام أنّهم (۱۲۴) ألف نبىّ أو أكثر

۱- ۱ قصّة الحضارة، المصدر السابق: ۵۹.

ص: ۵۳

و (۳۰۰) رسول أو أكثر.

ولكن على أيّ حال لابدّ من أن نذكّر أنّ ما تبقى من الشعائر الصحيحة فى تلك الحضارات هى لا شك جاءت بفضل كثرة الأنبياء، الذين عاشوا فى تلك الحضارات. فقد كان الأنبياء فى كلّ الحضارات القديمة، القدوة الحقيقية لشعوبهم، بل ولكلّ العالم، وتصرّفاتهم مستمدّة من السماء لا يفعلون شيئاً شائناً مضرّاً بالناس، وإلّا لا يمكن وصفهم بالأنبياء والقدوة، فالمقتدى به يجب أن يكون أفضل الناس.. وهكذا كان الأنبياء فى كلّ مكان وزمان. ولمّا كان الحج فريضة أمر اللَّه تعالى بها، فقد كانوا أولى المبادرين إليه، وكانوا أفضل من يقوم به ويؤدّى شعائره وممارسته..

فقد جاء فى الروايات عن النبىّ محمّد صلى الله عليه و آله وعن أهل بيته الكرام عليهم السلام، فى حج الأنبياء، أنّ الأنبياء والرسل مارسوا الحج جميعهم إلى بيت اللَّه الحرام، ولم يتخلّف نبىٌّ واحد عن هذا المسار الربّانى السماوى.. وإليك بعض الأحاديث:

عن الحلبى: سُئل أبو عبداللَّه الصادق عليه السلام عن البيت أكان يحجُّ إليه قبل أن يبعث النبىّ محمّد صلى الله عليه و آله؟ قال: «نعم وتصديقه فى القرآن الكريم قول شعيب حين قال لموسى حيث تزوّج: على أن تأجرنى ثمانى حجج ولم يقل ثمانى سنين، وأنّ آدم ونوحاً حجّا، وسليمان بن داود قد حجَّ البيت بالجن والإنس والطير والريح، وحجّ موسى على جمل أحمر يقول: لبيك لبيك، وأنّه كما قال اللَّه: إنّ أوّل بيتٍ وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدًى للعالمين، وقال: وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل، وقال: أن طهّرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود وأنّ اللَّه أنزل الحجر لآدم وكان البيت» (۱).

۱- ۱ بحار الأنوار: ۹۹/ ۹۴.

ص: ۵۴

وعن الإمام الرضا علیه السلام قال قائل: فَلِمَ جعل وقتها فی ذی الحجّة؟ قیل: لأنّ اللّه تعالی أحبَّ أن یُعبد بهذه العبادات فی أیّام التشریق، فکان أوّل ما حجّت إلیه الملائکة وطافت به فی هذا الوقت، فجعله سُنّة ووقتاً إلی یوم القیامة. فأمّا النبیّون آدم ونوح وإبراهیم وعیسی وموسی ومحمّد (صلوات اللّه علیهم) وغیرهم من الأنبیاء إنّما حجّوا فی هذا الوقت، فجُعلت سُنّة فی أولادهم إلی یوم القیامة» (۱).

وجاء فی أخبار مکة للأزرقی، قال: «ما بین الرکن إلی المقام إلی زمزم قبر تسعة وتسعین نبیّاً جاءوا حُجّاجاً فقبروا هنالک» (۲).

البیت الحرام، وجهة حج الأنبیاء

الحجّ فی الجاهلیة

۱- ۱ بحار الأنوار ۹۹: ۴۵.

۲- ۲ أخبار مکّة، الأزرقی ۱: ۶۸.

ص: ۵۵

والجاهليون فی الجزيرة العربية ونواحيها قدّسوا البيت الحرام والكعبة الشريفة ومنی وعرفات، وطافوا ولبّوا ونحروا ورموا الجمرات وأحرموا، وكان حجّهم يبدأ فی اليوم التاسع من شهر ذی الحجّة، وعندما يصل الحجاج إلی عرفة، يرتدون لباساً خاصّاً بالحجّ، قال الجاحظ فيهم:

«كانت سيماء أهل الحرم إذا خرجوا إلی الحلِّ فی غير الأشهر الحُرم، أن يتقلّدوا القلائد، ويُعلّقوا عليهم العلائق، فإذا أوذم أحدهم الحج، تزيّا بزیّ الحاج» (۱).

وكان الحج الإبراهيمی المحور الأساس فی الحج الجاهلی، ولم يحفظ العرب من شريعة إبراهيم عليه السلام شيئاً إلّاالحج فی مظاهره، غير أنّهم زادوا فيه وحذفوا منه، وأدخلوا الأصنام فی الكعبة الشريفة، حتّی بلغ عددها أكثر من (۳۰۰۰) صنم، علی رأسها هُبل واللات والعزی ومناة... «.. وهم بعدُ يعظّمون الكعبة ومكّة، ويحجّون ويعتمرون، علی إرث إبراهيم وإسماعيل عليهم السلام..» (۲).

«ومنهم علی ذلك من بقايا عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسّكون بها: من تعظيم البيت، والطواف به، والحج، والعُمرة، والوقوف علی عرفة ومزدلفة، وإهداء البُدن، والإهلال بالحج والعُمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه» (۳).

وذكر القرآن الكريم حجّهم وأعمالهم عند بيت اللّه الحرام، بأنّها مزيج من الشرك والتفاخر والتجارة والهرج والمرج، قال تعالی: وما كان صلاتُهم عنی البيت إلّامُكاءً وتصدية (۴)

ويتنسّكون عنده مناسك يسمّونها اليوم أعياداً

۱- ۱ البيان والتبيين، الجاحظ: ۳/ ۶۵.

۲- ۲ كتاب الأصنام، الكلبی: ۶.

۳- ۳ المصدر نفسه.

۴- ۴ الأنفال: ۳۵.

ص: ۵۶

ومواليد كشأن الجاهلية الاولى، وكلّ ذلك لا يصيب به تشريع اللّه.. إلّامن حمله الهوى أو الجهل أن يركب رأسه فيقول، بغير علم ولا بيّنة..» (۱). وقد عبّر عنهم القرآن الكريم بقوله تعالى:

إن يتّبعون إلّاالظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربّهم الهدى أم للإنسان ما تمنّى (۲)

.وكان لكلّ قبيلة من قبائل العرب فى الجاهلية، صنمها الخاص بها تهلل حوله حتى تصل مكّة، وكان عبّاد كلّ صنم إذا أرادوا الحج، انطلقوا إليه، وأهلّوا عنده ورفعوا أصواتهم، ووقفت كلّ قبيلة عند صنمها وصلّت عنده، وكانوا عند ترديد التلبية يصفقون ويصفرون (۳). وكانت التلبية هى: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك! إلّا شريكٌ هو لك! تملكُهُ وما مَلَكْ! (۴).

وكان من شعائرهم فى الطواف، أو لبعض منهم أن يطوفوا عرايا متجرّدين من كلّ ثيابهم، وهى شعيرة وثنية واضحة على الانحراف، وقد ذكر ذلك القرآن الكريم وكُتب الأحاديث والسير وكتب التاريخ.

والجدير بالذكر أنّ الحج إلى «بيت اللّه الحرام» فى زمن الجاهلية لم يكن مقتصراً على العرب فقط، فقد ذكر لنا التاريخ أن الفرس وغيرهم حجّوا إليه وعظّموه وقدّموا إليه الذهب والفضّة والقرابين والنذورات وغيرها.. فقد جاء فى مروج الذهب للمسعودى: «وقد كانت أسلاف الفرس تقصد البيت الحرام، وتطوف به، تعظيماً له».

۱- ۱ دائرة المعارف الإسلامية، مصدر سابق، المعلق فى الحاشية محمد حامد الفقى: ۳۰۵.

۲- ۲ النجم: ۲۳.

۳- ۳ كتاب الأصنام: ۷.

۴- ۴ انظر أخبار مكة: ۱/ ۷۵. وتاريخ اليعقوبى: ۱/ ۲۹۶.

ص: ۵۷

والمکاء: الصفیر، بصیغة المبالغة طائر بالحجاز شدید الصفیر، ومنه المثل السائر: (بنیک حمّری ومکئکینی) والتصدیة التصفیق بضرب الید علی الید، والمعنی أنّ المشرکین فی الجاهلیة کان حجّهم وأعمالهم عند البیت الحرام، ما هی إلّا ملعبة من المکاء والتصدیة (۱). وهرجاً ومرجاً لا خشوع فیها ولا خضوع، لأنّها کانت صفیراً بالأفواه، وتصفیقاً بالأیدی (۲).

وقد ورد عن الحج فی الجاهلیة: «أنّه کان یقام فی الجاهلیة کلّ عام سوقان فی شهر ذی القعدة أحدهما فی عکاظ والآخر فی مجنة، وکان یتلوهما فی الأیام الاولی من ذی الحجة سوق ذی الحجاز، ومنه یخرج الناس إلی عرفات مباشرة.. وکان الحج إلی عرفات یقع فی التاسع من ذی ا لحجة، وکانت شتّی قبائل العرب تشترک فیه» (۳).

وللحج فی الجاهلیة مظاهر خاصّة من أعمال وحرکات عابثة وأفعال لا معنی لها؛ لأنّها رموز وشعائر ومناسک مقتبسة وغیر مقتبسة وتلبیات، دون حضور قلب وهدی بل حضور هوی وعصبیة قبلیة، ومحبّة وإخلاص للأصنام التی لا تنفع ولا تضرّ ولا تعی ولا تسمع ولا تغنی عنهم شیئاً.

«والواضح الذی لا شکَّ فیه: أنّ الوثنیین قد اتخذوا بما أوحی إلیهم الشیطان، معابد وهیاکل یحجّون إلیها. لیس العرب وحدهم ولا فی القدیم فقط، بل الناس هذا شأنهم حین تغلب علیهم الجاهلیة، ویُشرعون من الدین ما لم یأذن به اللّه. فقد أقاموا من قبور أولیائهم ومن تماثیل معظمیهم الذین غلوا فیهم، فأعطوهم الآلهیة، ما یحجّون إلیه کلّ عام ولجدِّها إبراهیم علیه السلام، وتمسّکاً بهدیه، وحفظاً لأنسابها،

۱- ۱ المیزان: ۹/ ۷۴.

۲- ۲ الکاشف ۳: ۴۷۵.

۳- ۳ دائرة المعارف الإسلامیة: مج ۷/ مادة الحج: ۳۰۴- ۳۰۵.

ص: ۵۸

وکـان آخر من حـجّ منهم ساسـان بن بابـک وهو جـدّ أردشـیر بن بابک، وهو أوّل ملوک ساسان وأبوهم الـذی یرجعون إلیه... فکان ساسان إذا أتی البیت طاف به وزَمْزَمَ علی بئر إسماعیل» (۱).

وقد افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الإسلام بذلک، فقال:

وما زلنا نحجُّ البیتَ قِدْما ونلقی بالأباطح آمنینا

وساسان بن بابک سار حتی أتی البیت العتیق یطوف دینا

فطاف به، وزمزم عند بئر لإسماعیل تروی الشاربینا (۲)

البیت الحرام وجهة حج الجاهلیة أیضاً

وقـال المسـعودی أیضـاً: «وکانت الفرس تهـدی إلی الکعبـة أموالًا فی صـدر الزمان، وجواهر، وقـد کان ساسان بن بابک هـذا أهـدی غزالین من ذهب وجواهر وسیوفاً وذهباً کثیراً فقذفه فی بئر زمزم» (۳). ثم یضیف قائلًا: «وقد ذهب قوم من مصنّفی الکتب فی التواریخ وغیرهـا من السـیر أن ذلـک کان لجرهم حین کانت بمکّـة، وجرهم لم تکن ذات مال فیضاف ذلک إلیها، ویحتمل أن یکون لغیرها، واللّه أعلم» (۴).

الفصل الثالث: الخلیل المعلم الأول

منزلة النبی ابراهیم علیه السلام

۱- ۱ مروج الذهب، المسعودی ۱: ۲۵۴.

۲- ۲ المصدر السابق.

۳- ۳ المصدر نفسه: ۲۵۵.

۴- ۴ المصدر السابق.

ص: ۵۹

الفصل الثالث: الخليل المعلم الأول

لمناسك الحج

ص: ۶۰

ص: ۶۱

منزلة النبى ابراهيم عليه السلام

ذكر القرآن الكريم لإبراهيم عليه السلام منزلة خاصة إذ جعله إماماً يقتدى بشريعته جميع الأنبياء والرسل من بعده... وجعله أسوة حسنة لجميع البشر بعده...

قال تعالى قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه (۱)

وقال تعالى أيضاً: وإذ ابتلى ابراهيمَ رَبُّه بكلمات فأتمّهنّ قال إنى جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين* وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مُصَلّى وعَهِدْنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتىَ للطائفين والعاكفين والركع السجود (۲)

.فبعد أن امتحن واختبر إبراهيم عليه السلام بكلمات اللّه تعالى طيلة عمره الشريف وتخرج برتبة عالية، ونجاح باهر، ابتلى واختبر بالكواكب (۳) والأصنام (۴)

۱- ۱ الممتحنة: ۴.

۲- ۲ البقرة: ۱۲۴- ۱۲۵.

۳- ۳ الأنعام: ۷۵- ۸۰.

۴- ۴ الصافات: ۹۱- ۹۹، والأنبياء: ۵۷- ۶۰.

ص: ۶۲

ومحاربة أبيه (۱) له ولعقيدته (۲). والهجرة عن الوطن (۳)، وقبلها امتحن بإلقاء شخصه الكريم فى النار الذى أضرمها الوثنيون للقضاء عليه(۴)

، والالتزام بأمر الذبح لابنه البكر إسماعيل عليه السلام (۵)، وغيرها من الكلمات والامتحانات، وبعد أن أتمّها عليه السلام على أكمل وجه، برزت لياقته وكفاءته عند خالق الكون مع علم مسبق، أن يجعله للناس إماماً فى أواخر عمره الشريف، بعد أن كان نبياً معصوماً من أولى العزم، فتقلّد شرف الإمامة والقدوة الصالحة.

قال صاحب الميزان: وإذ ابتلى ابراهيمَ ربُّه... قال إنّى جاعلك للناس إماماً أى مقتدى يقتدى بك الناس، ويتبعونك فى أقوالك وأفعالك، فالإمام هو الذى يقتدى ويأتم به الناس (۶).

ويؤكد المعنى أيضاً سيد قطب فى تفسيره: «يقول للنبى صلى الله عليه و آله: اذكر ما كان من ابتلاء اللَّه تعالى لإبراهيم بكلمات من الأوامر والتكاليف، فأتمهن وفاءً وقضاءً. وقد شهد اللَّه تعالى لإبراهيم عليه السلام فى موضع آخر بالوفاء بالالتزامات على النحو الذى يرضى اللَّه عنه فيستحق شهادته الجليلة: وإبراهيم الذى وفى . وهو مقام عظيم ذلك المقام الذى بلغه ابراهيم، مقام الوفاء والتوفية بشهادة اللَّه عزوجل..

عندئذ استحق إبراهيم عليه السلام تلك البشرى أو تلك الثقة: قال إنى جاعلك للناس إماماً. أى قدوة، يقودهم إلى اللَّه تعالى .. ويكونون له تبعاً..» (۷).

۱- ۱ ولد ابراهيم عليه السلام يتيما و تربى فى بيت زوج أمه، و قيل فى بيت عمه، و قيل الذى رباه جده لأمه، والله أعلم.

۲- ۲ مريم: ۴۱ ۵۰.

۳- ۳ الأنبياء: ۷۲.

۴- ۴ الأنبياء: ۶۸ ۷۰.

۵- ۵ الصافات: ۱۰۲ ۱۰۸.

۶- ۶ الميزان ۱: ۲۶۶.

۷- ۷ فى ظِلال القرآن، سيد قطب ۱: ۱۱۲.

ص: ۶۳

يالَها من منزلة، وشرف عظيم أن يجعل اللَّه تعالى إبراهيم عليه السلام إماماً وقدوةً بعد أن تربى فى بيت (من رباه) (۱) ناحت الأصنام، مُضل الغافلين، ينحتُ ربّه أو إلهه وإله قومه بيده ليعبدوها ويتقرّبوا إليها ويضعوها فى معابد، ويضعوا لها أعياداً ليحجوا إليها فى أعيادها، ويقربوا لها الأضاحى وغيرها من الأمور!

كان ذلك فى بلاد الرافدين التى تحدثنا عنها سابقاً... كانت من مدنها «اور» التى كانت مسقط رأس ابراهيم عليه السلام ومركز عبادة الأصنام. وشاء اللَّه تعالى أن يخرج الولد الطيب الطاهر من البيت الخبيث، ويجعله أباً للأنبياء، وأسوةً صالحةً لكلّ الأجيال، ويجعل اسمه مقروناً بالإكرام والدعاء والإجلال عند معتنقى الأديان السماوية الثلاثة، وكلٌ يفتخر بنسبه إلى خليل اللَّه إبراهيم عليه السلام:

فاليهود ينسبون دينه اليهم والنصارى كذلك، والقرآن يحسم الموقف بقوله تعالى يا أهل الكتاب لِمَ تحاجّون فى إبراهيم وما أُنزلت التوراة والإنجيل إلّا من بعده أفلا تعقلون* وما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين (۲)

.هذا ابراهيم الخليل عليه السلام يحكى لنا القرآن الكريم شجاعته وشخصيته وعظمته وصدقه.. إنّه كان صدّيقاً نبياً (۳)

.ويحكى لنا القرآن الكريم كذلك محاججته لأبيه، وطريقته فى إلقاء الحجة قبل إعلان حربه وتحطيمه للأصنام، أصنام أبيه وقوم أبيه، قال إبراهيم عليه السلام فى بداية

۱- ۱ تربى ابراهيم عليه السلام اليتيم فى بيت ناحت الأصنام، ولكن نجد فى القرآن الكريم من حوارابراهيم عليه السلام لمربيه كأنه يحاور أبيه الحقيقى، وهذا من باب أدب الأنبياء. وابراهيم عليه السلام نشأ يتيماً ولم يتربى فى بيت أبيه.

۲- ۲ آل عمران: ۶۵- ۶۷.

۳- ۳ مريم: ۴۱.

ص: ۶۴

المحاججة متسائلًا:.. يا أبتِ لِمَ تعبُد ما لا يسمع ولا يُبصر ولا يغنى عنك شيئاً* يا أبتِ قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً* يا أبت لا تعبد الشيطان إنّ الشيطان كان للرحمن عصيّاً* يا أبتِ إنى أخاف أن يمسّك عذابٌ من الرحمن فتكون للشيطان ولياً (۱)

.فلم يستجب الأب لهذا الخطاب المهذّب وأصرّ على عناده، فأعلن إبراهيم عليه السلام حربه بتحطيم الأصنام بكلّ شجاعة وبسالة لا خائفاً ولا وجلًا، تحفّه رعاية اللَّه تعالى وعونه فقال: وتاللَّه لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تُولّوا مدبرين* فجعلهم جُذاذاً إلّاكبيراً لهم لعلّهم إليه يرجعون (۲)

.وإنها لجرأة وشجاعة حقاً أن يتحدى شخص واحد قوماً طغاة عصاة، لا يكون كذلك إلّامن ذاب فى مبدأ وعقيدة قوية مؤيدة من السماء. جاء القوم ولمّا نظروا آلهتهم العزيزة المحطّمة: قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنّه لمن الظالمين* قالوا سمعنا فتًى يذكُرُهم يُقالُ له إبراهيم* قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلّهم يشهدون* قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم (۳)

. فتحداهم مرةً أخرى و قال بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون (۴)

.وهنا يبرز ذكاء إبراهيم، أن يجعلهم فى موضع الاعتراف الذاتى، إنه الحقّ وهم الباطل، ونكسوا رؤوسهم، وأصدر نمرود حكم الإعدام بحرقه فى النار؛ لأنه احسَّ بضعف حيلته أمام قوة الحق، ولا سبيل للطغاة فى تاريخ البشرية سوى التخلص من أصحاب الحق بقوة النفوذ السلطانى الحاكم! وجعل اللَّه تعالى النار

۱- ۱ مريم: ۴۲- ۴۵.

۲- ۲ الأنبياء: ۵۸.

۳- ۳ الأنبياء: ۶۰- ۶۲.

۴- ۴ الأنبياء: ۶۳.

ص: ۶۵

برداً وسلاماً على ابراهيم ونجّاه إلى الأرض المقدّسة المباركة أرض «ملكى صادق» القدس الحالية. وسنتحدث عنها فى الفصل السادس إن شاء اللّه تعالى ..

ابراهيم عليه السلام يحطّم الاصنام ويضع الفأس فى عنق كبيرهم

ص: ۶۶

والآن فلنقرا الآيات الكريمة التالية فى بيان نجاة ابراهيم عليه السلام من نمرود وقومه:

فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ* ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ* قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ* أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ* قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ* قُلْنَا يَا نَارُ كُونِى بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ* وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ* وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (۱)

بناءُ البيت الحرام

وإذ يرفع إبراهيم القواعدَ من البيت وإسماعيل ربَّنا تقبل منّا إنك أنت السميع العليم (۲)

.قال الراغب الأصفهانى: قواعد البناء أساسهُ (۳).

وقال العلامة الطباطبائى: «القواعد جمع قاعدة وهى ما قعد من البناء على الأرض واستقر عليه الباقى، ورفع القواعد من المجاز بعد ما يوضع عليها منها، ونسبة الرفع المتعلق بالمجموع إلى القواعد وحدها. وفى قوله تعالى من البيت تلميح إلى هذه العناية المجازية» (۴).

۱- ۱ الأنبياء: ۶۴- ۷۱.

۲- ۲ البقرة: ۱۲۷.

۳- ۳ المفردات، الأصفهانى: ۴۸.

۴- ۴ الميزان فى تفسير القرآن: ۲۷۷.

ص: ۶۷

فقواعد البيت الحرام وضعها ابراهيم عليه السلام بمساعدة ولده الأكبر اسماعيل عليه السلام، سواءً أكانت القواعد الحقيقية أم المجازية، أى سواءً أكانت قواعد أساس البناء للبيت، أم قواعد العبادة فيه، فهو الذى رفع هذه القواعد، بعد أن كان لها وجود، ولكن صورته غير واضحة عندنا كيف كانت قبل ابراهيم عليه السلام، ولكن الواضح عندنا أنّ الملائكة حجت هذه البقعة المباركة المقدّسة وحج أبو البشر آدم ومن جاء بعده حتى رفع فى الطوفان. وسنفصل هذا فى الفصل العاشر بإذنه تعالى ..

إذن فللبيت وجود قبل ابراهيم، والذى كُلفَ به الخليل وابنه عليهما السلام هو إحياؤه بعد أن درست معالمه، بوّأه اللَّه تعالى لإبراهيم وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت (۱)

و «بوأتُ له مكاناً: سويته فتبوأ» (۲). و «بوأتُهُ داراً أسكنته إياها و (وبوأتُ) له كذلك و (تبّوأ) بيتاً اتخذه مسكناً» (۳).

وقد بيّن سيد قطب فى تفسيره القواعد بقوله: «... البيت الحرام... يرجع نشأته على يد ابراهيم عليه السلام بتوجيه من ربّه وإرشاده. ويرجع إلى القاعدة التى أقيم عليها وهى قاعدة التوحيد، إلى الغرض من إقامته، وهو عبادة اللَّه الواحد، وتخصيصه للطائفين به والقائمين للَّهفيه» (۴).

إذن فهندسة البيت التى نراها اليوم وستبقى إلى ما شاء اللَّه أن تبقى هى لإبراهيم عليه السلام بإذنٍ من ربّه وطاعة من إبراهيم عليه السلام.

أما ابن الأثير فيقول فى (رفع القواعد): «فلما ارتفع البنيان وضعف الشيخ- النبى ابراهيم عليه السلام- عن رفع الحجارة، قام على حجر وهو

۱- ۱ الحج: ۲۶.

۲- ۲ المفردات، الأصفهانى: ۶۹.

۳- ۳ المصباح المنير، الفيومى ۱: ۶۷.

۴- ۴ فى ظِلال القرآن، سيد قطب: ۲۴۱۸.

ص: ۶۸

مقام ابراهيم عليه السلام» (۱).

واتفق المؤرخون على أن ابراهيم هو الذى كان يبنى واسماعيل يناوله الحجارة، فلما ارتفع البناء استعان ابراهيم عليه السلام بالوقوف على صخرة لِعلو البناء، وكلما فرغ من جدار نقل الحجر إلى سواه وهكذا حتى تمّ بناء جدران الكعبة، فبقى أثر قدميه الشريفتين على الصخرة.

واختلف الرأى فى مقام إبراهيم، فمنهم من قال: هو مقام الصخرة، ومنهم من قال: الحرم كلّه الذى حول الكعبة.

ولنأخذ رأى السيد السبزوارى فى مهذّب الأحكام حيث يقول: إن لإبراهيم مقامين:

مقام قدمى وهى الآثار التى بقيت على الصخرة.

ومقام عبادى وهو الذى أمر اللَّه تعالى عباده باتخاذه مُصلّى حيث قال سبحانه: واتخذوا من مقام ابراهيم مُصلًّى (۲) (۳)

.وروى الصدوق فى «علل الشرائع» بإسناده عن سليمان بن خالد عن أبى عبد اللَّه الصادق عليه السلام قال: «لما أوحى اللَّه إلى إبراهيم عليه السلام: أن أذن فى الناس بالحج أخذ الحجر... فوضعه بحذاء البيت لاصقاً به بحيال الموضع الذى هو فيه اليوم، ثمَّ قام عليه فنادى بأعلى صوته بما أمره اللَّه تعالى به، فلما تكلّم بالكلام لم يحتمله الحجر فغرقت رجلاه فيه، فقلع ابراهيم عليه السلام رجليه من الحجر قلعاً» (۴).

فبقيت آثار قدميه الشريفتين.

۱- ۱ الكامل فى التاريخ: ابن الأثير ۱: ۳۶.

۲- ۲ البقرة: ۱۲۵.

۳- ۳ مهذّب الأحكام، السيد السبزوارى، الفائدة الثالثة ۱۴: ۶۵.

۴- ۴ علل الشرائع، الصدوق ۲: ۱۲۸.

ص: ۶۹

وعن ابن عباس أنّه قال: «... لبث ابراهيم ما شاء اللّه أن يلبث ثم جاء الثالثة فوجد اسماعيل عليه السلام قاعداً تحت الدوحة التى بناحية البير يبرى نبلًا أو نبالًا له فسلم عليه ونزل إليه فقعد معه فقال ابراهيم: يا اسماعيل إن اللّه تعالى قد أمرنى بأمر، فقال له اسماعيل: فأطع ربّك فيما أمرك، فقال ابراهيم: يا اسماعيل أمرنى ربى أن ابنى له بيتاً، قال له اسماعيل: واين؟ يقول ابن عباس: فأشار له إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، عليها رضراض من حصباء يأتيها السيل من نواحيها ولا يركبها، يقول ابن عباس: فقاما يحفران عن القواعد ويحفرانها ويقولان: ربنا تقبل منا إنك سميع الدعاء، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ويحمل له اسماعيل الحجارة على رقبته ويبنى الشيخ ابراهيم، فلما ارتفع البناء وشق على الشيخ ابراهيم تناوله قرّب له اسماعيل هذا الحجر- يعنى المقام- فكان يقوم عليه ويبنى، ويحوله فى نواحى البيت حتى انتهى إلى وجه البيت، يقول ابن عباس: فلذلك سمى مقام ابراهيم لقيامه عليه» (۱).

وهنا روايات أخرى يطول ذكرها، ومهما كان وكيفما كان المقام فإنه آية من آيات اللّه تعالى حيث قال: فيه آيات بينات مقام ابراهيم (۲)

.أما الركن فهو الحجر الأسود. وذكر ابن عباس: «أنّ الركن (الحجر الأسود) والمقام: إنهما ياقوتتان من ياقوتات الجنّة، أنزلا فوضعا على الصفا فأضاء نورهما لأهل الأرض ما بين المشرق والمغرب» (۳). ولما أُكمل بناء البيت وضع ابراهيم عليه السلام بمساعدة ابنه اسماعيل عليه السلام الحجر الأسود فى الركن والمقام بلصق البيت. وهكذا تكامل بناء الكعبة الشريفة وأذن للحج إليها حتى يومنا هذا...

الدعوة إلى الحج

۱- ۱ أخبار مكة، للأزرقى ۱: ۵۹، منشورات الشريف الرضى.

۲- ۲ آل عمران: ۹۷.

۳- ۳ علل الشرائع ۲: ۱۳۲.

ص: ۷۰

وأذن فی الناس بالحج یأتوک رجالًا وعلی کلّ ضامرٍ یأتین من کلّ فجٍّ عمیق (۱)

.بعـد أن أتمَّ ابراهیم علیه السـلام بناء البیت الحرام... جاءه الأمر الإلهی أن یـدعو الناس لزیارة هـذا البیت الطاهر الآمن المقـدس زیارة جماعیة سنویة؛ لیذکروا اللَّه تعالی ویحمدوه ویعبدوه ویثنوا علیه ویستغفروا لذنوبهم فی البیت الذی نسبه إلی ذاته المقدسة ...

فاستجاب الخلیل علیه السلام ودعا الناس إلی بیت اللَّه الحرام بأذان و «التأذین:

الإعلام برفع الصوت ولذا فُسّر بالنداء، والحج القصد سـمی به العمل الخاص الذی شـرعه أولًا إبراهیم علیه السلام وجرت علیه شریعة محمد صلی الله علیه و آله لما فیه قصد البیت الحرام:

ورجال جمع راجل خلاف الراکب، والضامر المهزول الذی أضمره السیر، والفج العمیق- علی ما قیل- المکان البعید» (۲).

وبعـد أمر الـدعوة إلی الحـج، أوعـد اللَّه تعالی ابراهیم علیه السـلام باسـتجابة هذه الدعوة من الناس، وأنهم سـیأتون مشاة وررکباناً علی ضوامر من الخیل والإبل من کلّ طریق بعید... والقریب أولی بالاستجابة.

أذّن علیه السـلام فی النـاس بالحـج، ولبّی له النـاس فی أصـلاب الرجـال وأرحـام النساء، هـذا ما تبینه الروایات عن المعصومین علیهم السلام:

۱- ۱ الحج: ۲۷.

۲- ۲ المیزان فی تفسیر القرآن ۱۴: ۳۷۰.

ص: ۷۱

«لما أمر اللَّه تعالى ابراهيم عليه السلام، نادى يا أيها الناس إن للَّه‌بيتاً فحجوه، فأسمع اللَّه نداءه كلّ من يريد اللَّه أن يحج من ذريته إلى يوم القيامة» (۱).

ومنذ ذلك الحين إلى يومنا هذا والى ما يشاء اللَّه، يتقاطر الناس على هذا البيت المقدس العظيم من كلّ مكان، من أقطار الأرض جميعاً، وعبر القرون، منذ زمن ابراهيم عليه السلام إلى ما شاء اللَّه لهذه الأرض من البقاء، وما تزال أفئدة من الناس تهوى وترف إلى رؤية هذا البيت العظيم والى الطواف فيه، وعشرات الألوف من الحجاج يتقاطرون كلّ عام من فجاج الأرض، تلبى هذه الدعوة العظيمة دعوة خليل الرحمن بإذن من خالق الخلق، رحمان الدنيا والآخرة ورحيمها.

عن ابن اسحاق قال: «لما فرغ ابراهيم خليل الرحمن عليه السلام من بناء البيت الحرام جاءه جبريل فقال له:... ثم أمر ابراهيم أن يؤذن فى الناس بالحج، قال: فقال ابراهيم: يا رب ما يبلغ صوتى؟ قال اللَّه سبحانه: أذّن وعلىَّ البلاغ، قال: فعلا على المقام فأشرف به حتى صار أرفع الجبال وأطولها، فجمعت له الأرض يومئذ سهلها وجبلها وبرها وبحرها وإنسها وجنها حتى أسمعهم جميعاً قال: فأدخل إصبعيه فى أذنيه وأقبل بوجهه يمناً وشاماً وشرقاً وغرباً وبدأ بشق اليمن فقال: أيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فأجيبوا ربّكم، فأجابوه من تحت التخوم السبعة ومن بين المشرق والمغرب إلى منقطع التراب من أقطار الأرض كلّها، لبيك اللهم لبيك...» (۲).

وقال القمى فى تفسيره: «إنّ الصعود على المقام كان للنداء لا للبناء، وأنه ارتفع حتى كان أطول من الجبال كذلك للنداء لا للبناء» (۳).

۱- ۱ المحجة البيضاء، الفيض الكاشانى ۲: ۱۴۶.

۲- ۲ أخبار مكة، الأزرقى ۱: ۶۶- ۶۷.

۳- ۳ تفسير القمى ۲: ۸۳.

ص: ۷۲

واشتهر عند مؤرخى مكّة المتأخرين: أن المقام تطاول وعلا فى السماء للبناء، وأقدم من ذكره أبو حيان التوحيدى المتوفى عام (۷۴۵ ه) فى تفسيره البحر المحيط فى الجزء الثالث الصفحة السابعة.

استجابة دعاء إبراهيم عليه السلام

عندما جاء إبراهيم عليه السلام بابنه اسماعيل وأمّه هاجر من الشام إلى الوادى ذى الأحجار والرمال اليابسة الخالية من الماء والزرع يلفحهم حرّ الجزيرة القاحلة، رفع يديه الشريفتين إلى السماء قائلًا: ربّنا إنى أسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع (۱)

.ودعا اللَّه تعالى قائلًا: فاجعل أفئدةً من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلّهم يشكرون(۲)

.كان هذا دعاءه الأول لهم ثم دعا: ربِّ اجعل هذا البلدَ آمناً واجنبنى وبنىّ أن نعبد الأصنام (۳)

. وقال:... ربِّ اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمنَ منهم باللَّه واليوم الآخر* قال ومن كفر فامتعه قليلًا ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير (۴)

.استجاب اللَّه تعالى دعاء خليله ابراهيم عليه السلام وفجَّر له ماء زمزم وجعل فيه كلّ الخير والبركة، وجعل ماءه شفاءً وعافيةً، وجعل القوافل والتجار تمرُّ من مكة،

۱- ۱ ابراهيم: ۳۷.

۲- ۲ ابراهيم: ۳۷.

۳- ۳ ابراهيم: ۳۵.

۴- ۴ البقرة: ۱۲۶.

ص: ۷۳

وأفاض الرزق عليها، وجعلها بلدةً آمنة من الأخطار والأعداء، ومن يعتدى عليها يهلكه اللَّه تعالى بإذنه، وسنبين ذلك فى الفصل التاسع إن شاء اللَّه تعالى ..

وللخليل ابراهيم عليه السلام أدعية أخرى لبلدةِ ذريته من اسماعيل عليه السلام أهمها أنه قال وابنه اسماعيل عليه السلام بعد إكمالهم بناء الكعبة الشريفة وتثبيت قواعدها، قالا:... ربَّنا تقبّل منّا إنك أنت السميع العليم* ربَّنا واجعلنا مسلِمَين لك ومن ذريتنا أمةً مسلمةً لك وأرنا مناسكنا وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم* رَبَّنا وابعث فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم (۱)

.دعا ابراهيم واسماعيل عليهما السلام اللَّه تعالى أن يتقبل منهم عملهم فى رفع القواعد وغيره من الأعمال، وأن يجعلهم مسلمين. وكذلك من ذريتهم أمة مسلمة أيضاً، وأن يريهم الأفعال العبادية الصادرة منهما، والأعمال التى يعملانها دون الأفعال، والأعمال التى يراد صدورها منهما، فليس قوله: أرنا بمعنى علمنا أو وفقنا، بل التسديد بإراءة حقيقة الفعل الصادر منهما» (۲).

ثم دعوا أن يتوبَ عليهم ويبعث فيهم رسولًا منهم: أى من نسل ابراهيم واسماعيل عليهما السلام، وكانت دعوة مستجابة، فتقبل اللَّه تعالى منهم عملهما وجعلهما مسلِمَين وجعل الأمة المسلمة من نسلهما، وبعث محمد بن عبد اللَّه- صلوات اللَّه تعالى عليه- الذى هو من نسل اسماعيل نبيّاً، فى الجزيرة العربية التى أقيمت قواعد الكعبة الشريفة بها، وأنزل عليه الكتاب (القرآن) يتلوه على أُمته ويعلمهم آيات اللَّه المحكمات، ويطهرهم من الأوثان والشرك والأرجاس.

۱- ۱ البقرة: ۱۲۷- ۱۲۹.

۲- ۲ الميزان فى تفسير القرآن ۱: ۲۷۹- ۲۸۰.

ص: ۷۴

والجدير بالذكر أنّ اللّه تعالى ذكر استجابته لدعوة ابراهيم عليه السلام فى كتبه التى أنزلها على موسى وداود وعيسى عليهم السلام إضافةً إلى القرآن الكريم، فقد جاء فى التوراة:

«أما اسماعيل فقد سمعتُ لك فيه (فى نسخة الترجوم) سمعت دعاءك له، ها أنا أُباركه وأكثره جدّاً جدّاً اثنى عشر رئيساً يلد وأجعله أمةً كبيرةً، ولكن عهدى أقيمه مع إسحاق الذى تلده لك سارة فى هذا الوقت فى السنة الآتية» (۱).

لقد بارك اللّه تعالى فعلًا لإسحاق وجعل منه يعقوب، الذى كان من ذريته أنبياء بنى اسرائيل... أما اسماعيل فقد اجيبت دعوة ابراهيم عليه السلام له بعد حوالى (۴۰۰۰) سنة، وجعل منه الأمة المسلمة التى هى خير أمةٍ أُخرجت للناس وجعل محمداً صلى الله عليه و آله نبياً فيهم وسيد البشر والرسل وخاتم الأنبياء ومن ذريته جعل اثنى عشر إماماً هداة.

قال ابن كثير فى هذا الصدد: جاء فى سفر التكوين قول (الرب) لإبراهيم عليه السلام ما نصه بالعبرية:

«فى لبشماعيل بيَرخْتى أو تواو فى هِفْريتى أو تو

فى هِرْ بيتى بمئوْد مِئوداو شنيم عَسار نسيئيم يوليد

فى نِتتيف لِكَوى كَدول» (۲).

وتعنى حرفياً: «واسماعيل أباركه، وأُثمره (۳)، واكثّره جدّاً جدّاً، اثنى عشر إماماً يلد، وأجعله أمةً كبيرة».

۱- ۱ التوراة، الاصحاح ۱۱۷، الفقرتان ۲۰- ۲۱.

۲- ۲ العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح ۱۷: الفقرة ۲۰.

۳- ۳ أى اثمرهُ ب محمد صلى الله عليه و آله، انظر ميقات الحج، العدد الأول، دعوة ابراهيم عليه السلام فى رفع القواعد: ۲۴۴.

ص: ۷۵

فيتضح من هذه الفقرة أن التكثير والمباركة إنما هما فى صلب اسماعيل عليه السلام، مما يجعل القصد واضحاً فى الرسول محمد صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام باعتبارهم امتداداً لنسل اسماعيل عليه السلام (۱).

أما فى الانجيل، فقد ذكر القرآن الكريم أنّ اللّه تعالى بشّر بنبى يأتى بعد عيسى عليه السلام اسمه أحمد. قال تعالى وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى اسرائيل إنى رسولُ اللّه اليكم مصدقاً لما بين يدىَّ من التوراة ومبشراً برسولٍ يأتى من بعدى اسمُهُ أحمد (۲) (۳)

.وقد جاء فى الحديث الشريف عن الرسول صلى الله عليه و آله أنه قال: «أنا دعوة ابراهيم» (۴).

كيفية الحج الإبراهيمى

بنى ابراهيم عليه السلام أول بيت لعبادة اللّه تعالى والتقرب إليه وحده لا شريك له، فى حين كانت الشعوب والقبائل فى أنحاء الأرض فى عهد إبراهيم وبعده، يبنون بيوتاً لعبادة أصنامهم وتماثيلهم أو لموتاهم العظماء أو الأعزاء.

وبعد إكمال ابراهيم عليه السلام البيت طلب من اللّه تعالى أن يعلمه المناسك الخاصة بهذا البيت العبادى، وشرع اللّه تعالى له شعائر الحج والعبادة فى هذا البيت المقدّس:

۱- ۱ معالم المدرستين، العلامة السيد مرتضى العسكرى ۱: ۵۳۸- ۵۳۹.

۲- ۲ أحمد ومحمد: تعنى كثير الحمد والثناء. وجاء فى التوراة فى النصوص الأصلية باسم ماحمود أو ماحماد وكذلك تعنى المعنى نفسه.

۳- ۳ الصف: ۶.

۴- ۴ الميزان فى تفسير القرآن، الطباطبائى ۱: ۲۸۱.

ص: ۷۶

«والشائع فى الأخبار والروايات العربية القديمة أنّ الحج، على زمن ابراهيم عليه السلام، كان يعنى قصد كعبةمكة والطواف بالبيتوالتلبية وقضاء بقية المناسك، ثم جاءت الوثنية بأصنامها وبيوتها وعباداتها فصار الحجُّ يشملها أيضاً» (۱).

ومناسك الحج الإبراهيمى... هى المناسك التى فرضها الإسلام على المسلمين، والتى سنأتى عليها لاحقاً فى هذا الكتاب إن شاء اللّه، وأصوله هى تلك التى شرعها دين محمد صلى الله عليه و آله وبالتحديد ما يتعلّق بالإحرام والطواف والهدى و... من الناحية العبادية والتبرى والتولى وغير ذلك من الأمور.

«ثم: إن اللّه سبحانه أمر خليله ابراهيم عليه السلام أن يُشرع للناس أعمال الحج، كما قال: وأذن فى الناس بالحج... (۲)

وما شرعه عليه السلام لم يكن معلوماً لنا بجميع خصوصياته، لكنه كان شعاراً دينياً عند العرب فى الجاهلية إلى أن بعث اللّه تعالى النبى محمداً صلى الله عليه و آله وشرع فيه ما شرع ولم يخالف فيه ما شرعه ابراهيم إلّابالتكميل كما يدل عليه قوله تعالى قل إنّى هدانى ربّى إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة ابراهيم حنيفاً (۳)

وقوله تعالى شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى (۴)

وكيف كان فما شرعه النبى محمد صلى الله عليه و آله من نسك الحج المشتمل على الإحرام والوقوف بعرفات والمبيت بالمشعر والتضحية ورمى الجمرات والسعى بين الصفا والمروة والطواف والصلاة بالمقام، تحكى قصة إبراهيم عليه السلام وتمثل مواقفه ومواقف أهله ومشاهدهم ويا لها من

۱- ۱ الوثنية فى الأدب الجاهلى، د. عبد الغنى زيتونى: ۲۷۳.

۲- ۲ الحج: ۲۷.

۳- ۳ الأنعام: ۱۶۱.

۴- ۴ الشورى: ۱۳.

ص: ۷۷

مواقف طاهرة إلهیة...» (۱).

بعد مضی قرون من هذه المواقف الطاهرة الإلهیة الروحانیة، حرفها الوثنیون من سکان الجزیرة وتعددت أنواع من الحج، کان أشهرها فی الجزیرة العربیة:

الحج الجاهلی والحج الحنیفی، والحج الصابئی الذی سنتحدث عنه فی الفصل القادم إن شاء اللّه.

وظهرت فی الدیانة الیهودیة أنواع من الحج وأشکال، کما سیأتی فی الفصل الخامس...

وأیضاً فی الدیانة المسیحیة أُبتدعت أماکن وطقوس خاصة لحجهم وسیأتی فی الفصل السادس بإذنه تعالی

وبون شاسع بین حج هؤلاء والحج الإبراهیمی، عدا الحج الجاهلی فی الجزیرة العربیة، قریب بعض الشیء فی بعض مراسمه ومظهره کما مر بنا فی قول الکلبی، حیث قال: «ومنهم علی ذلک بقایا من عهد إبراهیم وإسماعیل علیهم السلام یتنسکون بها: من تعظیم البیت، والطواف به، والحج والعمرة، مع إدخالهم فیه ما لیس منه ...» (۲).

فأدخلوا فیه مثلًا: جواز الطواف بالتجرّد عن الثیاب، وجعلوا لکلّ قبیلة صنماً یتنسکون به ویطوفون حوله و... وغیرها، وحرّفوا فیه السعی بین الصفا والمروة إلّاقلیل منهم حتی ظنّ بعض المسلمین حین شُرع لهم الحج أنها عادة جاهلیة فقال تعالی إنّ الصفا والمروة من شعائر اللّه فمن حجّ البیت أو اعتمر فلا جُناح علیه أن یطوّف بهما... (۳)

ما جاء فی الروایات عن حج ابراهیم علیه السلام

۱- ۱ المیزان فی تفسیر القرآن ۱: ۲۶۳، الطبعة البیروتیة.

۲- ۲ کتاب الأصنام، أبو منذر هشام بن محمد الکلبی: ۶.

۳- ۳ البقرة: ۱۵۸.

ص: ۷۸

هناک حشد کبیر من الروایات تحکی لنا مناسک حجابراهیم علیه السلام وابنه اسماعیل وشعائرهم، فقد جاء عن محمد بن اسحاق أنه قال: «لما فرغ ابراهیم خلیل الرحمن من بناء البیت الحرام جاءه جبریل فقال: طف به سبعاً فطاف به سبعاً هو واسماعیل یستلمان الأرکان کلّها فی کلّ طواف، فلما أکملا سبعاً هو واسماعیل صلیا خلف المقام رکعتین، قال: فقام معه جبریل فأراه المناسک کلّها: الصفا والمروة ومنی ومزدلفة، وعرفة، قال: فلما دخل منی وهبط من العقبة تمثّل له ابلیس عند جمرة العقبة، فقال له جبریل: ارمه، فرماه إبراهیم بسبع حصیات فغاب عنه، ثم برز له عند الجمرة الوسطی، فقال له جبریل: ارمه، فرماه بسبع حصیات فغاب عنه، ثمّ برز له عند الجمرة السفلی فقال له جبریل: ارمه، فرماه بسبع حصیات مثل حصی الحذف فغاب عنه إبلیس، ثم مضی ابراهیم فی حجه وجبریل یوقفه علی المواقف ویعلمه المناسک حتی انتهی إلی عرفة، فلما انتهی إلیها قال له جبریل: أعرفت مناسککَ؟ قال إبراهیم: نعم! قال: فسمیت عرفات بذلک لقوله أعرفت مناسککَ؟ ...» (۱).

وعن عبید بن عمیر اللیثی قال: «... ثم حجَّ باسماعیل ومن معه من المسلمین، من جرهم وهم سکان الحرم یومئذ مع اسماعیل وهم أصهاره، وصلی بهم الظهر والعصر والمغرب والعشاء بمنی ثم بات بهم حتی أصبح وصلی بهم الغداة، ثم غدا بهم إلی نمرة، فقام بهم هنالک حتی إذا مالت الشمس جمع بین الظهر والعصر بعرفة فی مسجد إبراهیم، ثم راح بهم إلی الموقف من عرفة فوقف بهم، وهو الموقف من

۱- ۱ أخبار مکة، الأزرقی ۱: ۶۶- ۶۷.

ص: ۷۹

عرفة الذى يقف عليه الإمام يريه ويعلمه، فلما غربت الشمس دفع به وبمن معه حتى أتى المزدلفة، فجمع بين الصلاتين المغرب والعشاء الآخرة، ثم بات حتى إذا طلع الفجر صلى بهم صلاة الغداة، ثم وقف به على قزح من المزدلفة وبمن معه وهو الموقف الذى يقف به الإمام، حتى إذا أسفر غيرمشرق دفعبه وبمن معه يريه ويعلمه كيفترمى الجمار حتىفرغ لهمنالحج كلّه، وأذنبه فىالناس، ثم انصرف إبراهيم عليه السلام راجعاً إلى الشام، فتوفىبها صلى اللَّه عليه وسلم وعلى جميع أنبياء اللَّه والمرسلين» (۱).

يذكر القرآن الكريم أنّ ابراهيم واسماعيل عليهما السلام بعد إكمالهما بناء الكعبة، قالا:

... وأرنا مناسكنا وتُب علينا... (۲)

.يقول عطاء: «وأرنا مناسكنا: أبرزها لنا وأعلمناها» (۳).

فاستجاب اللَّه تعالى هذا الدعاء أيضاً كاستجابته لبقية أدعيتهما كما ذكرنا سابقاً، وعلمهم مناسك الحج عن طريق الوحى (جبريل عليه السلام).

الخليل عليه السلام يمتثل لذبح ابنه قربانا

وجاء موسم الحج ورأى ابراهيم عليه السلام رؤيا- ورؤيا الأنبياء وحى- رأى أنه يذبح ابنه ليقدمه قرباناً للَّهتعالى فى الموسم، وشاء اللَّه تعالى أن يكون امتثال ابراهيم سُنة، ففدى اللَّه تعالى اسماعيل عليه السلام بكبش عظيم لتكون سُنة الذبح فى موسم الحج، وليس التضحية بالإنسان التى كانت سائدة فى التاريخ الإنسانى نتيجة تخوف الناس من غضب الطبيعة والآلهة كما كانت الطقوس السنوية التى كانت تقيمها

۱- ۱ المصدر السابق ۱: ۷۰- ۷۱.

۲- ۲ البقرة: ۱۲۸.

۳- ۳ أخبار مكة ۱: ۷۰.

ص: ۸۰

الحضـارات القديمـة كحضـارة «ألازتيـک» بتقـديمها كلّ عام شاباً جميل الصورة، قوى البنيان، بعـد قراءة بعض الأدعيـة وعبق البخور ونغمات الترانيم ولبس الملابس الزاهية الألوان الفاخرة، يطعن الشاب بخنجر الكهنة لتغتسل الجنبات بالدم الشـريانى الأحمر الزاهى فى الوقت الذى ترتسم فيه وجوه الكهنة بابتسامات الارتياح بتنفيذ المهمة!! (۱)

أو فى حضارة وادى النيل حيث تُلقى سنوياً فتاة شابة، تُلقى حيّةً للنيل بدعوى خصوبته وقذفه بالطمى المناسب.

ويقول المؤرخ ول ديورانت «والظاهر أنّ التضـحية بالإنسان قد أخذ بها الإنسان فى كلّ الشعوب تقريباً، فقد وجدنا فى جزيرة كارولينا فى خليج المكسيک تمثالًا كبيراً معدنياً أجوف لإله مكسيكى قديم، فوجدنا فيه رفات كائنات بشرية، لا شک أنها ماتت بالحرق قرباناً للّه، وكلنا يسـمع عن (مُلُخ) الذى كان الفينيقيون والقرطاجنيون وغيرها من الشعوب السامية حيناً بعد حين، يقدمون له القرابين من بنى الإنسان» (۲).

وجـاء الإعلان السـماوى على يـد ابراهيم وابنه اسـماعيل عليهما السـلام بإيقاف (القربان البشـرى وليُضـحّى بالحيوان... وها هو القرآن الكريم يقصّ علينا قصـة فداء اسـماعيل عليه السـلام بالذبح العظيم، فلنقرأ الآيات التالية: وقال إنى ذاهبٌ إلى ربّى سـيهدين* ربّ هَبْ لى من الصـالحين* فبشـرناه بغلاـم حليم* فلمـا بلغ معه السـعى قـال يا بُنىّ إنى أرى فى المنام أنى أذبحک فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تُؤمر ستجدنى إن شاء اللّه من الصابرين* فلما أسلما وتلّه للجبين*

۱- ۱ قصة الحضارة: مج ۱، ۱۱۳- ۱۱۴.

۲- ۲ انظر مجلة الفيصل، العدد ۲۵۸، مقال د. الجلبى تحت عنوان: «يوم الحج الأكبر: يوم ميثاق السلام العالمى».

ص: ۸۱

وناديناه أن يا إبراهيم* قد صدّقتَ الرؤيا إنّا كذلك نجزى المحسنين* إنّ هذا لهو البلاءُ المبين* وفديناه بذِبْحٍ عظيم* وتركنا عليه فى الآخرين* سلامٌ على ابراهيم* كذلك نجزى المحسنين* إنّه من عبادنا المؤمنين* وبشّرناه بإسحاق نبياً من الصالحين (۱)

.وهذا ليس إعلاناً بقدسيهٔ الدم البشرى فحسب، بل درساً عملياً لبنى الإنسان فى حال التضحيهٔ وتقديم القربان.

والنصّ القرآنى أعلاه يبين الذبيح اسماعيل عليه السلام، الغلام الحليم الولد البكر لإبراهيم عليه السلام. بينما محرفو التوراهٔ كتبوا أنّ الذبيح إسحاق ونصّهم التوراتى هكذا:

«قال الرب لإبراهيم، خذ ابنك وحيدك الذى تحبه اسحاق واذهب إلى أرض موريهٔ و...» (۲).

بينما كان اسماعيل ابنه الوحيد، وبُشّر بإسحاق بعد عدهٔ سنين من ولادهٔ اسماعيل، وعند تحليلنا للنص التوراتى نجده ينطبق على اسماعيل والتحريف فى الاسم واسم المكان، ونجد فى النص القرآنى وضوحاً كاملًا أنّ ابراهيم عليه السلام ابتلى بذبح ابنه اسماعيل وبعدها بُشّر بإسحاق: وبشّرناه بإسحاق نبياً. سُئل الإمام الصادق عليه السلام: أيهما كان أكبر اسماعيل أم اسحاق؟ وأيهما كان الذبيح؟ فقال: كان اسماعيل أكبر من اسحاق بخمس سنين، وكان الذبيح اسماعيل، وكانت مكهٔ منزل اسماعيل، وإنما أراد ابراهيم أن يذبح اسماعيل أيام الموسم بمنى قال: وكان بين بشارهٔ اللّه لإبراهيم باسماعيل وبين بشارته باسحاق خمس سنين» (۳).

وعن الإمام الباقر عليه السلام حين سأله محمد بن مسلم عن المكان الذى كاد

۱- ۱ الصافات: ۹۹- ۱۱۲.

۲- ۲ العهد القديم، التوراهٔ، الاصحاح ۲۲، العدد ۲.

۳- ۳ بحار الأنورا، المجلسى ۱۲: ۱۳۰.

ص: ۸۲

اسماعيل عليه السلام أن يُذبح فيه، قال: «سألتُ أبا جعفر عليه السلام أين أرادَ ابراهيم عليه السلام أن يذبح ابنه؟ قال: على الجمرة الوسطى وسألته عن كبش ابراهيم عليه السلام ما كان لونه؟ قال كذا وكذا... الخ» (۱).

حدّث ابراهيم عليه السلام ابنه اسماعيل بأمر الذبح؛ لكى لا يذبحه على حين غفلة وليكون على بينةٍ من أمره، ثم قال له فانظر ماذا ترى بعد هذه الاستشارة جاء الجواب من اسماعيل عليه السلام الولد الحليم؛ ليبين أرفع صور الإيمان وأجلّها فى تاريخ الإنسانية بقوله: يا أبتى افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء اللّه من الصابرين (۲)

.وهذا هو الإيمان، بل هو الاندماج الكلى فى إرادة اللّه تعالى التى تتركز فى العمل بوصاياه وأوامره والتضحية بكلّ غال ونفيس فى سبيله.

قال محمد بن كعب القرظى: فذكرت ذلك (۳) لعمر بن عبدالعزيز وهو خليفة، إذ كنتُ معه بالشام. فقال لى عمر: إنّ هذا الشىء ما كنت أنظر فيه، وإنى لأراه كما قلت، ثم أرسل إلى رجل كان عنده من الشام وكان يهودياً فأسلم وأحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علماء يهود، فسأله عمر بن عبدالعزيز عن ذلك وأنا عنده، فقال له: أى ابنى إبراهيم الذى كان أمر بذبحه؟ فقال: اسماعيل، ثم قال: واللّه يا أمير المؤمنين إنّ اليهود لتعلم ذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أبوكم الذى أمر اللّه بذبحه لما فيه من الفضل الذى ذكر أنه كان منه بصبره على ما أمر به، فهم يزعمون أنه إسحاق لأنّ إسحاق أبوهم (۴).

۱- ۱ الكافى، الكلينى ۴: ۲۲۰۹، والوسائل ۱۴: ۱۱۰، والفقيه ۱: ۱۴۹.

۲- ۲ الصافات: ۱۱۰.

۳- ۳ ذكر له الاختلاف فى أيهما الذبيح من ولدى ابراهيم.

۴- ۴ ابراهيم أبو الأنبياء، عباس محمود العقاد، منشورات المكتبة العصرية، بيروت- صيدا: ۸۶.

ص: ۸۳

ابراهيم يذبح ابنه قرباناً للّه «وفديناه بذبحٍ عظيم»

الانحراف عن ملة ابراهيم عليه السلام

ص: ۸۴

ومَن يرغب عن ملة إبراهيم إلّامن سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين* إذ قال له ربّه أسلم قال أسلمتُ لربّ العالمين* ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنىَّ إنّ اللّه اصطفى لكم الدينَ فلا تموتنَّ إلّا وأنتم مسلمون(۱)

.إنّ ملة ابراهيم عليه السلام، بإجماع العلماء والفقهاء والمفسّرين هى الإسلام الخالص الصريح، إن كان بمعناها اللغوى أو بمعناها الاصطلاحى، ومن انحرف أو ينحرف عنها فهو ظالم لنفسه، سفيه، غافل جاهل، ومن سار عليها فهو مسلم طاهر مهتد من تبعة ابراهيم عليه السلام فمن تبعنى فإنه منّى (۲)

.والدين عند اللّه الإسلام، واليهودية والنصرانية وغيرهما أسماء أطلقها أصحابها على أنفسهم، ولو رجعنا إلى تاريخ هذه الملل نجد أن اليهود قبائل يرجع تاريخها إلى يهوذا (۳)، والنصارى قبائل يرجع تاريخها إلى مدينة الناصرة (۴).

لكن هؤلاء صورت لهم عنصرياتهم وأهواؤهم أنّ ابراهيم يهوديٌّ، والنصارى أنه نصرانىٌّ، لكن القرآن الكريم يبطل تصوراتهم الجريئة على خليله عليه السلام فى سورة آل عمران بقوله تعالى ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً

۱- ۱ البقرة: ۱۳۰- ۱۳۲.

۲- ۲ ابراهيم: ۳۶.

۳- ۳ يهوذا: أحد أولاد يعقوب عليه السلام أخ ليوسف عليه السلام من أبيه.

۴- ۴ الناصرة: مدينة فى بلاد الشام نزلتها مريم وابنها عيسى عليهما السلام.

ص: ۸۵

ولكن كان حنيفاً مسلماً (۱)

.وفى سورة البقرة قال تعالى وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين* قالوا آمنا باللّه وما أُنزل الينا وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربّهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون (۲)

.هذا ما يؤكده القرآن الكريم دائماً، أنّ ابراهيم أبو الأنبياء عليهم السلام جميعاً، أنه الإمام والأسوة الحسنة للجميع، والأسوة: القدوة وهى: الحالة التى يكون عليها الإنسان فى اتباع غيره، إن حسناً وإن قبيحاً وإن ساراً وإن ضاراً، ولهذا قال تعالى لقد كان لكم فى رسول اللّه أُسوة حسنة فوصفها بالحسنة (۳). فهو- ابراهيم عليه السلام- أسوة حسنة وإمام فى الشريعة الإلهية التوحيدية.

ولكن- مع الأسف الشديد- أنّ هذه الأسوة تُركت، وحرّف ما جاء به ابراهيم عليه السلام وأبناؤه من الأنبياء عليهم السلام، وصارت العادات والسلوكيات بعيدة عن ذلك الدين، رغم إرسال السماء العدد الغفير من الأنبياء والرسل، ولم يأخذ بهذا الدين إلّا من هدى اللّه قلبه وأسلم للّه‌وحده. قال تعالى ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين (۴)

.واليهود والنصارى وغيرهم من أتباع الهوى والمصالح والشيطان ابتعدوا كثيراً

۱- ۱ آل عمران: ۶۷.

۲- ۲ البقرة: ۱۳۵- ۱۳۶.

۳- ۳ المفردات فى غريب القرآن، الأصفهانى: ۱۸.

۴- ۴ آل عمران: ۸۵.

ص: ۸۶

عن ملة ابراهيم عليه السلام وحرّفوا دين اللّه تعالى

تقول الكاتبة بربارة براون: «إن مسألة تحريف الإنسان لوحى اللّه هى السبب فى نزول القرآن على النبى محمد صلى الله عليه و آله. الوحى النهائى لخاتم رسل اللّه... إنّ القرآن الكريم يتكلّم حول هذا التحريف الذى أصاب كتب الوحى السابقة فى عدد من الآيات» (۱).

وهذه بعض آيات كتاب اللّه العزيز تبيّن تحريف أصحاب الكتب السماوية السابقة:

فبدّل الذين ظلموا قولًا غير الذى قيل لهم (۲)

.... وقد كان فريقٌ منهم يسمعون كلام اللّه ثم يُحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون (۳)

.وإنّ منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند اللّه (۴)

.وتضيف بربارة براون قائلة: «إنّ القرآن قد جاء من اللّه لتصحيح كلّ هذه التحويرات المتعمدة أو غير المقصودة لوحيه السابق. إنّ اللّه قد بيّن تماماً أنّ هذا، وهو وحيه الختامى، لن يعتريه ما أصاب الكتب السابقة قائلًا: إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون (۵) ...» (۶).

لقد حفظ اللّه تعالى القرآن الكريم من كلّ سوء، وجعله وتعاليمه خالدة إلى يوم

۱- ۱ نظرة عن قرب فى المسيحية، بربارة براون: ۷۸، نشر توحيد، ترجمة المهندس مناف حسين الياسرى، كندا.

۲- ۲ البقرة: ۵۹.

۳- ۳ البقرة: ۷۵.

۴- ۴ آل عمران: ۷۸.

۵- ۵ الحجر: ۹.

۶- ۶ نظرة عن قرب فى المسيحية: ۷۹.

ص: ۸۷

الحساب؛ لأنه البلاغ الأخير والبيان الختامى والإنذار النهائى لبنى آدم عليه السلام. وإذا قورنت نصوص القرآن فى وقتنا الحاضر مع النصوص التى نزلت على محمد صلى الله عليه و آله لا نجد فيها أى نقص أو تبديل أو تغير أو زيادة، رغم مرور أكثر من (۱۴۰۰) عام على نزولها. بينما نجد اليهودية والمسيحية والديانات الوضعية مستمرة فى الانحراف يوماً بعد آخر، وكلّ يوم يأتون بجديد، كتعاليم الحج وأماكن الحج ومناسك الحج مثلًا كما سنرى ذلك فى الفصول القادمة إن شاء اللّه...

وللقرآن الكريم مخطوطات أصلية لا تزال فى الوجود لتثبيت ذلك. ففى مكتبة الشيخ حمود فى المدينة المنورة فى العربية السعودية توجد نسخة من القرآن يرجع تاريخها إلى القرن السابع الميلادى أى القرن الأول الهجرى وهى أقدم نسخة معروفة فى الوجود، وقد كتبت باليد على جلد غزال بعد سنين قليلة فقط من رحيل النبى محمد صلى الله عليه و آله. ونسخة أخرى تعود إلى القرن السابع الميلادى أيضاً وهى من زمن الخليفة عثمان وتوجد فى متحف توبكابى فى استانبول فى تركيا (۱)...

قال تعالى فى القرآن الكريم نفسه أنه لا يمكن أن يناله التحريف: لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (۲)

۱- ۱ المصدر السابق: ۷۹.

۲- ۲ فُصلت: ۴۲.

ص: ۸۸

ص: ۸۹

ص: ۹۰

ص: ۹۱

الفصل الرابع: الحج فى الديانة اليهودية

الحج فى الديانة اليهودية

اشارة

مارس اليهود الحج بأشكال مختلفة، واتجهوا إلى أماكن متعددة، واتخذت كل فرقة من فرقهم وجهة معينة، تحجُّ اليها فى أعيادها الخاصة، وعلى وفق مذهبها وتعاليمه وعقيدتها، وما تفرض عليها من الأوامر والنواهى...

وفكرة الحج، ليست طارئة على اليهود، فقد كانت منتشرة آنذاك، فمن كان على دين ابراهيم عليه السلام، كان يعرف الحج ويمارسه فى بيت اللّه الحرام، ومن كان من الأقوام السامية، فانه يحج إلى المعابد والهياكل وقبور الموتى وغير ذلك مما وجدناه فى الحضارات والأمم.

فاليهود كغيرهم، حجوا ومارسوا طقوساً خاصة بالحج، وسفر الخروج فى التوراة حدّد لهم أعياداً دينية سنوية يزورون فيها مقدساتهم بملابس خاصة أو جديدة، وينحرون ويطوفون ويقرأون الأدعية والتعويذات الخاصة وغير ذلك، وحجهم خليط من حج وضعى وحج سماوى، فهو صورة جديدة بين حج وثنى باطار توحيدى.

والظاهر أن حج اليهود كان فرضاً واجباً أوجبته التوراة عليهم، هذاما يؤكده

ص: ۹۲

النص التالی:

«والحج إلی معبد من المعابد عادة سامية قديمة جعلت حتی فی الأجزاء القديمة من أسفار موسی الخمسة فرضاً يجب أداؤه، فقد ورد فی سفر الخروج، فی الاصحاح الثالث والعشرين، الآية الرابعة عشرة: «ثلاث مرات يعيّد لی فی السنة» وفی الآية الثالثة والثلاثين من الاصحاح الرابع والثلاثين «ثلاث مرات فی السنة يظهر جميع ذكورك أمام السيد الرب إله إسرائيل» وربما كان فی بلاد العرب أيضاً أماكن كثيرة للحج حيث كانت تقام شعائر شبيهة بالحج إلی عرفات» (۱).

وفی كل عيد من هذه الأعياد الثلاثة اتخذت الفرق اليهودية حجاً إلی أماكن معينة، ففی يوم الاستغفار (عيد المظال) كانوا يحجون إلی جبل سيناء، وفی عيد الفصح إلی بيت المقدس، وفی عيد استير وعيد المطر و... و... الخ يتجهون إلی أماكن أخری كما سنری من خلال البحث ان شاء اللّه...

مع هذا، وعند استقرائنا للتوراة، لم نجد ذكر مكان معينٍ خاصٍ للحج علی لسان نبيهم موسی عليه السلام كوعدٍ الهی لهم، ونتساءل هنا: هل اللّه تعالی لم يشرع لهم فريضة الحج إلی مكان معين، أم رواة وكتبة النصوص الدينية التوراتية تجاوزوا ذكرها، أم تعمدوا تحريفها لعنصريتهم المعروفة؟

ولهذا تعددت اماكن الحج، وكثرت اليها الرحلات اليهودية فی الأعياد السنوية، ويكاد كل موضع يبدأ اسمه بكلمة «بيت» يكون مكان حج وزيارة سابقاً أو لاحقاً، فمثلًا «بيت المقدس» و «بيت إيل» و «بيت آوِن» كان بالقرب من بيت إيل و «بيت إصِلْ» فی يهوذا و «بيت حور» بالقرب من القدس و «بيت هاجَنَّ» فی المكان الذی ولد فيه عيسی عليه السلام فی بيت لحم و «بيت هاشطة» وبيوت أخری

۱- ۱ دائرة المعارف الإسلامية ۷: ۳۰۵.

ص: ۹۳

وأخری کثیرة یطول الکلام فی عدّها وذکرها، یمکن الرجوع إلی الکتاب المقدس (العهد القدیم والعهد الجدید) حیث أحصاها وعدّها عدّاً... وفی تحدید أوقات الحج، یقول د. حسن ظاظا: أما الأوقات التی یحجون فیها فهی موازیة لأعیادهم وهی ثلاثة أوقات:

۱- عید الفصح: ویقع فی فصل الربیع، ومدته ۷ أیام تبدأ یوم ۱۵ نیسان فی التقویم الیهودی.

۲- عید الحصاد أو الأسابیع (شبو عوت)، ومدته یوم واحد، ۶ من شهر سیوان الیهودی، ویقع فی أوائل الصیف (یونیة).

۳- عید الظُلل: (سوکوت) ومدته ثمانیة أیام، ویأتی فی الخریف، ویبدأ یوم ۱۵ تشری الیهودی، ویسمون هذه المواسم «الثلاثة الاعتیادیة» یستحب فیها الحج؛ لاقترانها بالکثیر من الصدقات (۱).

وجهة النبیّ موسی علیه السلام فی الحج

ومن الضروری والمناسب أن نعرف وجهة کلیم اللّه النبی موسی علیه السلام فی الحج، قبل أن نقف علی ما حرّف الیهود من شریعة موسی علیه السلام نبیهم الذی ینسبون أنفسهم إلیه، ویدّعون أنهم من أتباعه ومحبیه والسائرین علی خطه وتعالیمه...

عند تتبعنا للأخبار والروایات والأحادیث الواردة من السُنّة الشریفة لا نجد الکلیم موسی علیه السلام توجه بوجهة معاکسة أو مخالفة لما توجه إلیها أنبیاء اللّه والمرسلون فهو علیه السلام حج وطاف ولبی فی بیت اللّه العتیق مقتدیاً بسنة آبائه وأجداده من الأنبیاء، ومجیباً لأوامر السماء، هذا ما تؤکده الروایات فی حجه علیه السلام، نختار منها:

۱- ۱ طقوس الحج عند الیهود، د. حسن ظاظا، الفیصل، العدد ۲۱۰: ۱۰.

ص: ۹۴

روی عن ابن عباس أنه قال: «کنّا مع رسول اللّه صلی الله علیه و آله بین مکة والمدینة، فمررنا بوادٍ، فقال: أی واد هذا؟ قالوا: وادی الأزرق، قال: کأنی أنظر موسی صلی اللّه علیه وسلم (فذکر من طول شعره شیئاً لا یحفظه داود- أحد رواة الحدیث-) واضعاً أصبعیه فی أذنیه، له جؤار إلی اللّه بالتلبیة ماراً بهذا الوادی، قال: ثم سرنا حتی کذا وکذا... الخ» (۱) أی ذکر حجه إلی مکة المکرمة والکعبة الشریفة.

وروی عن أبی جعفر الباقر علیه السلام: مرّ موسی بن عمران علیه السلام فی سبعین نبیاً علی فجاج الروحاء... یقول: لبیک عبدک ابن عبدیک» (۲).

وعن أبی جعفر الباقر علیه السلام أیضاً أنّه قال: «أحرم موسی من رملة مصر، قال:

ومرّ بصفائح الروحاء محرماً، یقود ناقة بخطام من لیف، علیه عباءتان قطونیتان، یُلبی وتجیبهُ الجبال» (۳).

وروی عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال: «مرّ موسی النبی (صلوات اللّه علیه) بصفائح الروحاء علی جمل أحمر، خطامه من لیف علیه عباءتان قطونیتان وهو یقول: لبّیک یا کریم لبیک» (۴)

.وجاء فی أخبار مکة: «حج موسی النبی علی جبل أحمر فمرَّ بالروحاء علیه عباءتان قطونیتان متزر بأحدهما مرتدی بالأخری فطاف بالبیت، ثم طاف بین الصفا والمروة فبینا هو بین الصفا والمروة إذ سمع صوتاً من السماء وهو یقول: لبیک عبدی أنا معک، فخر موسی ساجداً» (۵)

۱- ۱ سنن ابن ماجة ۲: ۹۶۵، محمد بن یزید القزوینی، الحلبی وشرکاه.

۲- ۲ وسائل الشیعة ۱۲: ۳۸۵ ح ۱۶۵۷۴.

۳- ۳ وسائل الشیعة ۹: ۵۴.

۴- ۴ بحار الأنوار ۹۹: ۱۸۵، الطبعة البیروتیة.

۵- ۵ أخبار مکة، الأزرقی: ۶۸- ۶۹.

ص: ۹۵

والنبى موسى عليه السلام من كبار الأنبياء والرسل، وفى مصطلحاتنا الإسلامية يُعدُّ من أُولى العزم، وعليه فلا يمكن أن ينحرف فى حجه إلى الوجهة غير الصحيحة وغير المرضية عند اللَّه تعالى وإذا وجدنا هناك انحرافاً فى اليهودية فهو فى قومه الذين خالفوه، ولم يلتزموا بتعاليمه وأوامره مما أخذهم اللَّه تعالى بانحرافهم وذنوبهم، فكانوا قوماً مهانين ومغضوباً عليهم إلى يوم يبعثون، قال تعالى فيهم: وضُربت عليهم الذلةُ والمسكنة وباءوا بغضبٍ من اللَّه ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات اللَّه ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عَصَوا وكانوا يعتدون (۱)

انحراف اليهود فى حجهم

لم يتبع اليهود سُنة كليم اللَّه موسى عليه السلام، نبيهم الذى توجه فى حجه إلى بيت اللَّه العتيق كما مرّ علينا سابقاً، بل حرّفوا أغلب تعاليم دينه ومن ضمنها الحج، ومن الملاحظ أن: «الحج عند اليهود فى الوقت الحاضر ليس بفريضة عندهم ولا بركن من أركان العبادة كما هو فى الإسلام، فهو على أكثر تقدير يشبه (العُمرة) عند المسلمين» (۲)

.وانقسم (۳)

اليهود بعد الكليم عليه السلام إلى عدة فرق، وكلُّ فرقة اتخذت لها وجهة

۱- ۱ البقرة: ۶۱.

۲- ۲ طقوس الحج عند اليهود، د. حسن ظاظا، الفيصل، العدد ۲۱۰: ۱۰.

۳- ۳ انقسم اليهود بعد موسى عليه السلام إلى عدة فرق ودويلات من الناحية السياسية ومن الناحية القبليةومن الناحية الدينية، والذى يهمنا هنا انقسامهم من الناحية الدينية، فقد انقسموا إلى خمس فرق دينية، وهى: فرقة الفريسيين وفرقة الصدوقيين، وفرقة السامريين، وفرقة الحدسيين، وفرقة القرائين.

ص: ۹۶

ومكاناً تحج إليه بوضع تعاليم وطقوس وشعائر خاصة بها.

ولنعرض قسماً منها على سبيل المثال لا الحصر:

۱- توجه قسم منهم إلى بيت المقدس وهيكل سليمان عليه السلام.

۲- والقسم الآخر إلى جبل النبى موسى عليه السلام فى طور سيناء.

۳- وآخرون إلى بئر الحى الرائى بالقرب من مدينة الخليل.

۴- ومنهم من توجه إلى (بقاع مباركة)- حسب تعبيرهم- أهمها الجبال الشامخة والتلال والآبار وعيون الماء وأماكن طبيعية أخرى وسنحاول ان شاء اللّه تعالى تفصيل هذه النقاط قدر استطاعتنا، وبيان الأساليب المتبعة فى حجهم وتاريخه والمواقع الجغرافية لكلّ منها.

الحج إلى بيت المقدس

يُعدُّ بيت المقدس أو القدس من أهم الأماكن المقدّسة لدى اليهود- إضافة إلى أهميته عند المسيحيين والمسلمين- لذلك تميّز حجهم لهذا البيت بقدسية ومعنى خاصين.

عظّم اليهود بيت المقدس وخاصة فرقة (يهوذا) المنحدرة من داود وسليمان عليهما السلام، خصوصاً بعد بناء النبى سليمان عليه السلام للهيكل المعروف فى القدس الشريفة ب (هيكل سليمان).

«وقدسية بيت المقدس عند اليهود تاريخها مقارناً لبناء سليمان الهيكل، والهيكل المعبد المركزى لليهود الذى صار حرماً للحج وقبلة للصلاة منذ عهد داود وسليمان عليهما السلام، وهذا المعبد الضخم تعرض عبر تاريخه ولحد الآن إلى أحداث جِسام لم يبق منه إلّاجزء من جدار، يعرف عند اليهود باسم (الجدار الغربى) وعند سائر الأُمم باسم «حائط المبكى وهو جدار من سور يرجع إلى عهد هيرودس المعاصر

ص: ۹۷

لمولد المسيح عليه السلام» (۱)

.والقدس: مدينة تقع وسط فلسطين فوق تل صخرى من تلال اليهودية على ارتفاع (۷۶۲ م) على بُعد حوالى ۵ كم من يافا، وهى المدينة الجديدة... أما المدينة القديمة فتقع بآثارها الدينية بالمملكة الأردنية الهاشمية.

قراءة تلمودية عند حائط المبكى

وبيت المقدس: هو البيت الذى فيه مقدسات الأديان الثلاثة (اليهودية- والمسيحية- والإسلام) وتضم المدينة القديمة معظم الأماكن المقدسة. كان اليهود يعتقدون أن جانباً من أحد جدران المسجد الأقصى بنى بأحجار أخذت من هيكل سليمان، وهو الجدار المعروف بحائط المبكى .. وقد تكون هى شليم، المذكورة فى سفر التكوين، وجعلها داود عاصمته بعد انتزاعها من اليبوسيين، وأقام سليمان هيكله العظيم بها، فزاد من بهائها وعظمتها، واتخذها ملوك يهوذا عاصمة

۱- ۱ طقوس الحج عند اليهود، د. حسن ظاظا، الفيصل، العدد ۲۱۰: ۹.

ص: ۹۸

مملكتهم. التى ظهر فيها كثير من عظماء الأنبياء من بنى اسرائيل الذين نادوا برسالتهم فى شوارعها.

ويُقال: «ما فيها موضع شبر إلّاوقد صلّى فيه نبى» (۱)

.«حارب اليهود العرب لانتزاعها من ايـديهم، واضـطر اليهود إلى أن ينزلوا للعرب عن المدينـة القديمـة، ولكن المدينة الجديدة لا تزال فى قبضتهم» (۲)

.القدس الحالية

المهم، أنّهم- فرقـة يهوذا- اتخـذت من بيت المقـدس وهيكل سـليمان محجـةً سـنويةً لها فى العيـد السـنوى الدينى المسـمى ب (عيد الفصح) (۳)

.وأهم المراسم المتبعة فيه هى «الضـحية» أى القربان أو «الهدى» فى المصطلح الإسلامى، يقدم إلى الرب أو الإله، وهذا القربان تؤكده وصايا تلمودهم (۴)

، التى تختلف اختلافاً كبيراً مع الوصايا المنصوص عليها فى التوراة فى مسألة

۱- ۱ معجم البلدان ۱: ۱۱۲.

۲- ۲ انظر الموسوعة العربية الميسرة: ۴۵۴.

۳- ۳ انظر الموسوعة العربية الميسرة: ۴۵۴.

۴- ۴ التلمود: تعاليم دينية وضعها علماء اليهود، وهى كالرسائل العملية عندنا، مع فارق لا قياس فيه.

ص: ۹۹

«الضحية»، فالتوراة أوصاهم بتقديم «ثور» (۱)

قرباناً للرب فى عيد الفصح. أما تعاليم التلمود فكانت توصيهم أن تكون الضحية من البشر:

و «تختار الضحايا أو الذبائح فى عيد الفصح من الأطفال، الذين لا تتجاوز سنهم العاشرة أو تزيد عنها قليلًا. ويمزج دم الضحية بعجين الفطائر قبل تجفيفه أو بعده... ويستنز اليهود دم الضحية بطرائق كثيرة: فأحياناً يتم ذلك عن طريق «البرميل الابرى» وهو برميل مثبت على جوانبه من الداخل إبر حادة توضع فيه الضحية حيّة فتنغرز هذه الإبر فى جسمها، وتسيل الدماء ببطء من مختلف الأعضاء، وتظل كذلك فى عذابٍ أليم حتى تفيض روحها، بينما يكون اليهود الملتفون حول هذا البرميل فى أكبر نشوة بما يبعثه هذا المنظر فى نفوسهم من لذة وسرور. وينحدر الدم إلى قاع البرميل ثم يصب فى إناء مُعد لجمعه»(۲)

.و «أحياناً تقطع شرايين الضحية فى عدة مواضع ليتدفق الدم من جروحها.

وأحياناً تذبح الضحية كما تذبح الشاة ويؤخذ دمها، وبعد أن يتجمع الدم بطريقة من الطرق السابقة أو غيرها تسلم إلى الحاخام أو الكاهن أو الساحر، الذى يقوم باستخدامها فى إعداد الفطائر المقدسة أو فى عمليات السحر» (۳)

.أما الزمان أو الوقت الذى يحجون فيه إلى بيت المقدس، ليقيموا شعائرهم فى عيدهم الدينى هذا، فهو اليوم الرابع عشر من الشهر الأول من سنتهم الدينية وهو شهر نيسان، ويحتفلون فيه بنجاة موسى عليه السلام وبنى إسرائيل من فرعون وقومه

۱- ۱ العهد القديم، سفر الخروج، الاصحاح ۲۹: «خذ ثوراً واحداً ابن البقر وكبشين صحيحين و... الخ» راجع.

۲- ۲ اليهود واليهودية، د. على عبدالواحد وافى: ۴۴- ۴۵، وكتاب حقائق وأباطيل، فوزى محمد حميد: ۱۴۱- ۲۰۰.

۳- ۳ المصدر نفسه، ومن المعلوم عندهم أن يكون دم الضحية من غير اليهود، وإذا كان دم مسيحى فيكون أفضل عندهم.

ص: ۱۰۰

وخروجهم من مصر (۱)

.والفصح فى اللغة (فصح أى الفسح أو الخروج أو المرور).

وقد ورد أن هذا العيد «عيد اليهود، ۱۵ نيسان (الشهر السابع فى التقويم العبرى) ويسمى أيضاً عيد الفطير، وفيه خروج بنى‌إسرائيل من مصر هرباً من فرعون» (۲)

.وعن قضية التضحية بالأطفال يقول ول ديوارنت:

«لقد كان اليهود الأقدمون يشتركون معَ الكنعانيين والمؤابيين والفينيقين والقرطاجنين وغيرهم من الشعوب فى عادة التضحية بطفل، بل بطفل محبوب، لاسترضاء السماء الغضبى، ثم أصبح فى الإمكان على توالى الأيام أن يستبدل بالطفل المجرم المحكوم عليه بالإعدام، وكان البابليون يلبسون هذا الضحية أثواباً ملكية، لكى يمثل بها ابن الملك، ثم تجلد وتشنق، وكان هذا نفسه يحدث فى رودس فى عيد كرونس. وأكبر الظن أن التضحية بحمل أو جدى فى عيد الفصح ليست إلّا تخفيفاً لهذه التضحية البشرية اقتضاه تقدم المدنيّة» (۳)

.والظاهر أن اليهود فى الحال الحاضر يضحون بحمل أو جدى فى حجهم إلى بيت المقدس، وقتلهم للبشر اتخذَ صوراً أخرى ..

جبل موسى عليه السلام فى صحراء سيناء

اعتقد اليهود أن الجبل الواقع فى طور سيناء، الذى يبعد (۳۲۰) كيلومتراً عن منطقة عيون موسى والذى يبلغ ارتفاعه (۷۶۰۰) قدم، هو الجبل الذى كلّم اللّه

۱- ۱ انظر العهد القديم، سفر اللاويين، الاصحاح ۲۳، الفقرات ۵- ۹.

۲- ۲ الموسوعة العربية الميسرة: ۱۲۴۷.

۳- ۳ قصة الحضارة، مج ۶، ۱: ۲۶۴.

ص: ۱۰۱

تعالى موسى عليه السلام فيه، وأنزل عليه الألواح المقدسة... فقدسوا هذا الجبل جيلًا بعد جيل وحجّوا إليه، وعدّوه من المقدسات اليهودية المهمة.

وقد صرّح الاستاذ (منشه حاريل) استاذ الجغرافيا الدينية وتاريخ الأديان بالجامعات العبرية قائلًا: «إن اليهود يحجون كلّ عام... ومن القرن السابع الميلادى حتى اليوم إلى جبل موسى ويتحملون مشقة الوصول إليه، وتسلق (۳۸۰۰) درجة للوصول إلى قمته، التى يعتقدون أن موسى كلّم ربّه فوقها، وتلقى منه الرسالة والوصايا، حتى أصبح ذلك الجبل بالنسبة لهم كالكعبة بالنسبة للمسلمين. ولا يقل عدد من تحملوا مشقة ذلك الحج عن العشرين مليون يهودى، حتى أصبح ذلك الجبل من المقدسات الدينية» (۱)

.ثم بيّن خطأ اعتقادهم وصرّح فى حديث له نُشر فى مجلة المختار الألمانية عام (۱۹۷۴ م) بأنّ كلّ ما ورد ببحوث البعثة الأمريكية صحيح، وأنّه يتفق مع النتائج، التى توصلت إليها بحوث معهده، وتمَّ تسجيلها وإعداد مخططاتها من بضع سنوات، فالجبل الذى يحجون اليه ليس هو نفسه الجبل الذى كلّم اللّه تعالى موسى عليه السلام فيه.

ولما سئل عن سبب عدم موافقته على نشرها واعلانها رسمياً قال: «فإعلان تلك البحوث أو الحقائق التاريخية ستخيب آمالهم وتفقدهم ثقتهم فى اسطورة تحولت إلى عقيدة» (۲)

.والحقيقة، أنّ التوراة تذكر مشخصات وعلامات لجبل موسى عليه السلام تختلف عما موجود فى الجبل الذى يحجون إليه سنوياً كبُعده من عيون موسى وارتفاعه وغيرها من العلامات... ووصف الأرض أنّها أرض مناجم الفيروز والنحاس،

۱- ۱ فرعون موسى، د. سيد كريم، مجلة الهلال، العدد ۵: ۷۳، عام ۱۹۷۵ م.

۲- ۲ المصدر السابق.

ص: ۱۰۲

الذى اشتهر اليهود بصناعتها والتجارة فيها فى ذلك الوقت (۱)

.فالجبل الـذى يحجون إليه سـنوياً بعيـد عن عيون موسـى وأكثر ارتفاعاً من الجبل المذكور فى التوراة، والذى كشـفته البعثة الأمريكية للآثار، وليس لمناجم الفيروز والنحاس وجود فيه...

إذن هـذه العقيـدة الإسـطورية لليهود، أصـبحت واضـحة للعيان كوضوح الشـمس فى ظهر النهار أنّها بِدعة ابتدعتها أنفسـهم بعد ميلاد عيسى المسيح عليه السلام بسبعة قرون، ومثلها تعاليم التلمود، ومثلها من تدوين التوراة من قبل، وهكذا.

أمـا مناسـك حجهم إلى هـذا الجبـل، يمكن بيانهـا من خلال الموازنـة التى أجراها (هوتسـما) (Houtsma) بين الوقـوف- وقوف المسـلمين فى عرفات- وبين إقامة بنى إسـرائيل على جبل سيناء، فهؤلاء يعدون أنفسهم لهذه الإقامة بالامتناع عن النساء (سفر الخروج، الاصحاح ۱۹، آيه ۱۵)، وبغسل ثيابهم (الخروج، ۱۹/ ۱۰ و ۱۴) وبذلك يقفون أمام الرب، وعلى هذا النحو لا يقرب المسلمون النساء ويرتدون ثياب الإحرام ويقفون أمام الخالق فى سفح جبل سيناء» (۲)

.ومن مناسك هـذا الجبل أيضاً، الاستسـقاء من ماء عين (شـيلوه المقدسـة) ولهـذا الاستسـقاء تعويـذة خاصـة، وإنارة المعبد، وكذلك الضحية (الهدى) وأمور أخرى إضافة إلى ذلك فإن وقت هذا الحج لهذا الجبل، يكون عادةً فى عيد المظال أو (يوم الاستغفار) (۳)

، «فمن الطبيعى عند البحث فى معناه الأصـيل أن نوازن بينه وبين عيد الخريف عند سامى الشـمال، وهو عيد المظال (أو يوم الاستغفار) وهو أمر نجد له ما يؤيده أيضاً من أن عيد المظال فى التوراة غالباً ما يطلق عليه للايجاز اسم «حج»

۱- ۱ راجع سفر الخروج العهد القديم يبين ويوضح جغرافية ذلك المكان.

۲- ۲ دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة من المستشرقين ۷: ۳۰۶.

۳- ۳ راجع المصدر نفسه: ۳۱۰.

ص: ۱۰۳

(سفر القضاة، الاصحاح ۲۱، الفقرة ۱۹، وسفر الملوک الأولی الاصحاح الثامن، الفقرات ۲ و ۶۵)...» (۱)

بئر الحی الرائی بالقرب من الخلیل

وهناک فرقة أخری من الیهود قدست هذه المنطقة التی فیها (البئر المقدس) وحجت إلیها، وما زالت هذه الفرقة تعتقد أنّها بلد جدّهم الأعلی إسحاق بن الخلیل ابراهیم علیهم السلام، ومدینة إقامته ووفاته.

جاء فی التوراة: «وکان بعد موت إبراهیم أن اللّه بارک إسحاق ابنه، وأقام إسحاق عند بئر الحی الرائی و... الخ» (۲)

.وذکرت التوراة أیضاً أنّ إسحاق تزوج من (رفقة) فی ذلک المکان فی حیاة أبیه إبراهیم علیه السلام وامّه سارة:

«وکان إسحاق قد أتی من وُرودُ بئر لحی رُئی. إذ کان ساکناً فی أرض الجنوب، وخرج إسحاق لیتأمل فی الحقل عند إقبال المساء، فرفع عینیه ونظر وإذا جِمالٌ مقبلة، ورفعت رفقةُ عینیها فرأت اسحاق فنزلت عن الجمل، وقالت للعبد:

مَن هذا الرجل الماشی فی الحقل للقائنا؟ فقال العبد: هو سیدی. فأخذت البرقُعَ وتغطّت، ثم حدَّث العبدُ إسحاق بکلّ الأمور التی صنع، فأدخلها إسحاق إلی خِباء سارة أُمّه، وأخذ رفقة فصارت له زوجة وأحبها» (۳)

.ولهذه القصة فی هذا المکان المقدس، لها وقع خاص فی قلوب الیهود؛ لذلک قُدست المنطقة وقُدس ماءُ بئرها.

۱- ۱ دائرة المعارف الإسلامیة، مجموعة من المستشرقین ۷: ۳۰۶.

۲- ۲ العهد القدیم، سفر التکوین، الاصحاح ۲۵، الفقرة ۱۱.

۳- ۳ المصدر السابق، الاصحاح ۲۴، الفقرات ۶۲- ۶۷.

ص: ۱۰۴

ومنطقة (بئرالحی‌الرائی) تقع‌بالقرب من‌مدينة الخليل، والخليل على بُعد (۴۴) كم جنوب بيت المقدس، وهی مدينة حبرون القديمة، وفيها قبر الخليل إبراهيم وزوجه سارة وإسحاق ويعقوب وقبر رفقة، ويضمّ هذه القبور مسجدٌ كبير (۱)

.ولهؤلاء الخمسة مكانة خاصة عند بعض اليهود؛ لذلك قُدست قبورهم وأماكن ذكرياتهم، واعتبرت مكاناً يُحج اليه، ويتقرب بهم إلى اللّه فی تقديم الأضاحی والنذورات والهدايا، وقراءة الأدعية والتضرع والتخشع والبكاء؛ للحصول على النعيم الاخروی من خلالهم ولرضا الربّ الاله.

ويقول د. حسن ظاظا فی الحج إلى هذه المنطقة:

«وبئر الحی الرائی، بالقرب من الخليل، وقباله سنديانة قمْرا، كثير من أتقياء اليهود يحجون اليها حتى اليوم، لِما جاء فی التوراة: وكان بعد موت إبراهيم أنّ اللّه بارك إسحاق ابنه، وأقام إسحاق عند بئر الحی الرائی، وتزوج عندها فی رفقة قبل موت ابويه سارة وإبراهيم» (۲)

معبد (بيت إيل) بالقرب من نابلس

معبد (بيت إيل) بالقرب من نابلس (۳)

عظمت هذا المعبد فرقة أخرى من اليهود وهی فرقة (السامرية) وهی الفرقة اليهودية التی لا تؤمن إلّابالأسفار الخمسة، التی تمثل القسم الأول من (العهد القديم)، وكذلك لا تؤمن بالبعث واليوم الآخر... وقد ذكرها ابن حزم فی كتابه

۱- ۱ انظر الموسوعة العربية الميسرة: ۷۶۴.

۲- ۲ طقوس الحج عند اليهود، د. حسن ظاظا، الفيصل، العدد ۲۱۰: ۷.

۳- ۳ نابلس: مدينة بالمملكة الأردنية الهاشمية، على الضفة الغربية لنهر الأردن، وعلى بُعد ۶ كم شمال بيت المقدس، يعيش بها عدد قليل من السامريين القدامى، الذين مازالوا يحافظون على طقوس عبادتهم وعلى تقاليدهم القديمة. ذكرتها التوراة باسم شكيم بمعنى منكب، انظر الموسوعة العربية الميسرة: ۱۸۱۱.

ص: ۱۰۵

(الفصل فى الملل والأهواء والنحل) قائلًا:

«إنّهم يبطلون كلّ نبوة كانت فى بنى إسرائيل بعد موسى ويوسع عليهما السلام، فيكذبون شمعون وداود وسليمان وأشعيا واليسع وإلياس وعاموص وحبقوق وزكريا وأرميا وغيرهم، وأنّهم يقولون: إنّ مدينة القدس هى نابلس، وهى من بيت المقدس على ثمانية عشر ميلًا، ولا يعرفون حرمة بيت المقدس ولا يعظمونه.

وهم بالشام لا يستحلون الخروج عنها» (۱)

.وكان معبد «بيت إيل» الذى أقامه يعقوب فى أرض كنعان بالقرب من نابلس، المكان الأول الذى يحج اليه بنو اسرائيل حتى أن شيّد سليمان الهيكل فى القدس، ولم يفقد منزلته هذه إلّابعد انشطار مملكة سليمان نصفين بعد وفاته:

۱- السامرة شمالًا وكانت مملكة معادية لأسرة داود وسليمان فى الجنوب، وتسمى نفسها إسرائيل! واستمرت فى الحج إلى بيت إيل.

۲- يهوذا المنحدرة من داود وسليمان، فكانت تحج إلى «الهيكل» فى أورشليم، وهو الاسم الذى اشتهرت به منذ سليمان (۲)

.وفى هذا المعبر قبر يوسف عليه السلام، وعين يعقوب عليه السلام بالقرب منها (۳)

.أما القبلة التى تتوجه إليها فرقة السامرة فهى نحو جبل يقال له «غريز يم» بين بيت المقدس ونابلس. قالوا: إنّ اللّه تعالى أمر داود أن يبنى بيت المقدس بجبل نابلس، وهو الطور الذى كلّم عليه موسى عليه السلام، فتحول داود إلى (إيلياء) وبنى البيت ثمة، وخالف الأمر، فظلم، والسامرة توجهوا إلى تلك القبلة دون سائر

۱- ۱ الفصل فى الملل والأهواء والنحل، ابن حزم ۱: ۸۲.

۲- ۲ انظر طقوس الحج عند اليهود، د. حسن ظاظا، الفيصل، العدد ۲۱۰: ۷.

۳- ۳ الموسوعة العربية الميسرة: ۱۸۱۱.

ص: ۱۰۶

اليهود (۱). الذين قبلتهم بيت المقدس.

وكلمة «إيل» تعنى «اللّه» فيكون معنى المعبد «بيت اللّه» ويجاور هذا المعبد، جبل ونخلة، الجبل اتخذوه كعرفات فى مكة، والمعبد كالكعبة، والنخلة ك (العُزى :

وهى فى وادى بطن نخلة، قطعها خالد بن الوليد بأمر النبى محمد صلى الله عليه و آله التى كان يُحجُ إليها فى الجاهلية ويُعلق عليها النذور والهدايا... فمقام تلك النخلة كهذه.

ولفرقة السامرة طقوس خاصة كالطواف والأضاحى وغيرها من صعود الجبل والوقوف عليهِ، وتقديم النذورات والهدايا والقرابين للشجرة المقدسة؛ لتقضى لهم حوائجهم... وقد جاء فى سفر القضاء: «وكانت دبورة النبيّة، زوجة لفيدوت متولية قضاء بنى إسرائيل فى ذلك الزمان- أى بعد موسى بقرنين- وكانت دبورة تجلس تحت (نخلة دبورة) بين الرامة وبيت إيل (فى إقليم نابلس) فى جبل أفرايم، وكان بنو إسرائيل يصعدون إليها لتقضى لهم» (۲)

.ومن الجدير ذكره أنّ دعاء السمات للشيعة الإمامية، ذكر قدسية هذا المكان، ويبدو أنّ السبب هو تجلى مجد اللّه تعالى للنبى يعقوب عليه السلام جاء فى الدعاء: «اللهم وباسمك العظيم الأعظم الأعز الأجل الأكرم، وبمجدك الذى تجليت به لموسى كليمك عليه السلام ول... ول... وليعقوب نبيك عليه السلام فى بيت إيل» (۳).

أماكن مقدسة من الطبيعة

وحجَّ قسمٌ آخر من اليهود إلى أماكن طبيعية كالجبال الشاهقة، وبعض التلال والأشجار والآبار وعيون الماء، اعتماداً على النصوص التوراتية، واقتداءً بسُنة

۱- ۱ الملل والنحل، الشهرستانى، ت ۵۴۸ ه: ۲۰۰، الطبعة الإيرانية.

۲- ۲ سفر القضاء، الإصحاح ۴، الفقرات ۴- ۵.

۳- ۳ مفاتيح الجنان، الحاج الشيخ عباس القمى، دعاء السمات.

ص: ۱۰۷

الأجداد، الذين قدسوها واعتبروها آيات عظيمة تقربهم إلى الرب.

وهذا النص التوراتى يبين قدسية الأماكن الطبيعية من الأرض: «هذه هى الفرائض والأحكام التى تحفظون لتعلموها فى الأرض التى أعطاك الربُّ إله آبائِك؛ لتمتلكها كلّ الأيام التى تحيون على الأرض. تخربون جميع الأماكن حيث عبدت الأُمم، التى ترثونها آلهتها على الجبال الشامخة، وعلى التلال، وتحت كلّ شجرة خضراء. وتهدمون مذابحهم، وتكسرون أنصابهم، وتحرقون سواريهم بالنار، وتقطعون تماثيل آلهتهم، وتمحون اسمهم من ذلك المكان... لا تفعلوا هكذا للرب إلهكم. بل المكان الذى يختاره الرب إلهكم من جميع أسباطكم ليضع اسمه فيه سُكناه تطلبون والى هناك تأتون. وتقدمون إلى هناك محرقاتكم وذبائحكم وعشوركم ورفائع أيديكم ونذوركم ونوافلكم وأبكار بقركم وغنمكم» (۱).

وهذا النص التوراتى له وقع كبير فى نفوس بعض اليهود، حيث يذهبون سنوياً إلى تلك الأماكن المخصصة من الطبيعة، التى احتلها الأجداد وقضوا على سكانها، وأحرقوهم، وقتلوهم، يذهبون إليها حجاجاً معيدين مع ذبائحهم وضحاياهم ونذورهم وهداياهم، وهذا ما يوجبه عليهم المقطع الأخير من النص، اضافة إلى أمرهم بالصلاة الخاصة هناك، وتقديم البكر من البقر والغنم إما ضحية أو هدية، وقبل هذا كلّه يوصيهم النص أن يقدموا محرقاتهم اى (ينيروا المكان) ليستضيئوا ولا تمسهم الظلمة.

وهذا الحج فى الحقيقة عادة وثنية اقتبسها اليهود، الذين عاشوا فى قرون سبقت عهد موسى عليه السلام، فانتقلت إلى ابنائهم فادخلوا عليها عبر القرون والأيام ما يسدّ حاجتهم العنصرية والنفسية، فجعلوها ضمن معتقدهم الدينى.

۱- ۱ سفر التثنية، الاصحاح ۱۲، الفقرات ۱- ۷.

ص: ۱۰۸

ويقول د. حسن ظاظا: «كان اليهود- أو بنو إسرائيل- يجعلون من الأشجار والجبال والتلال وعيون الماء والآبار مزارات يحجون إليها ويتبركون بها، ويبنون عندها معابدهم» (۱).

جاء فى الحديث عن إبراهيم عليه السلام فى التوراة: «وتجلّى له الرب فى سندبانة (قَمْرا) وهو جالس بباب الخيمة، عند ارتفاع النهار. فرفع بصره وألقاه فرأى ثلاثة رجال واقفين أمامه، فلما رآهم هَمَّ لاستقبالهم أمام باب الخيمة، وسجد على الأرض قائلًا: مولاى! إن كانت لى حظوة فى عينيك، فلا تضرب صفحاً عن عبدك، سأقدّم لكم بعض الماء فتغسلون أرجلكم، وتتكئون تحت الشجرة، وأقدّم كسرة خبز، لتسندوا بها قلوبكم، ثم تنصرفوا، بعد ذلك، فإنكم لذلك مررتم بعبدكم.

قالوا: اصنع كما قلت! فاسرع إبراهيم إلى الخيمة، إلى سارة، وقال: هاتى ثلاثة أصواع من دقيق سمين، فاعجنيها واصنعيها خبز مَلَّة. وبادر إبراهيم إلى البقر فأخذ عجلًا حنيذاً طيباً، ودفعه إلى الغلام، فأسرع فى إعداده. ثم أخذ زبداً ولبناً، والعجل الذى كان قد هيّأه، ووضع ذلك بين أيديهم، وهو واقف أمامهم تحت الشجرة، فأكلوا. ثم قالوا: أين سارة، امرأتك؟ قال: هى فى الخباء، قال: سأرجع إليك مثل الآن فى العام القادم، ويكون لسارة امرأتك ابن. وكانت سارة تستمع عند باب الخباء، وهو وراءه. وكان إبراهيم وسارة شيخين طاعنين فى السن، يستحيل أن يكون لهما ما للنساء. فضحكت سارة فى نفسها قائلة: أبعد شيخوختى يكون لى تَنعُّم (۲)؟ وبعلى شيخ كبير! فقال الرب لإبراهيم: ما بال سارة قد ضحكت قائلة: أألدُ وأنا عجوز؟ أهذا على الرب أمر عسير؟ فى مثل هذا الوقت من قابل،

۱- ۱ طقوس الحج عند اليهود: ۷.

۲- ۲ التنعّم: يعنى البنين أو بمعنى الذريّة.

ص: ۱۰۹

أعود اليك ويكون لسارة ابن» (۱).

ولأن التجلى الإلهى والبشرى بإسحاق كانتا عند هذه الشجرة (السنديانة)، فقد قدسها بنو إسرائيل وكانوا يحجون إليها، ويتبركون بها، ويطلبون منها حوائجهم.

«أما العيون والآبار فمن أشهرها «قادش» الذى يدل اسمها المؤابى على تقديسها، واحتفظت فى اسمها بالعربية (عين قديس) ويتصدر الآبار (بئر سبع) جنوب شرقى غزّة. وكان الساميون القدماء من بنى إسرائيل وغيرهم يعتقدون أنّ هذه البئر (مسكونة) أى تقيم فيها كائنات غير منظورة من الملائكة والجن، وأنّ عددهم سبعة، تسهر على عقاب الحانث فى يمينه، المتعمد للكذب، فكان عليه أن يذهب مع خصمه إلى تلك البئر، ويدعو على نفسه باللعنات السبع، كأن يموت بلا عقب، وأن يفقد كلّ عزيز عليه، وأن يصاب فى ماله، وصحته، وشرفه، وأن يضرب فى الأرض شريداً، وأن يفقد السمع والبصر والعقل... الخ» (۲).

تلخيص واستنتاج

وصفوة القول أنّ الديانة اليهودية عرفت الحج كممارسة عبادية، مادية ومعنوية، كما عرفتها الديانة الإسلامية والديانات الأخرى التوحيدية وغير التوحيدية، لكن الفرق يكمن فى ماهية هذه العبادة والأعمال والشعائر والمكان والزمان، والأهم من هذا كله، اتباع ما اعتقدوا هم به، وليس بما جاءهم به نبيهم من شريعة السماء، بالتوجه الصحيح إلى المكان المطلوب، والزمان المعين، والمناسك المفروضة و... الخ.

۱- ۱ سفر التكوين، الاصحاح ۱۸، الفقرات ۱- ۱۴.

۲- ۲ طقوس الحج عند اليهود: ۷.

ص: ۱۱۰

والحج فُرض على الناس منذ زمن الخليل إبراهيم عليه السلام حين أذن فى الناس:

وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالًا وعلى كلّ ضامرٍ يأتين من كلِّ فجّ عميق (۱)

.وهـذا الفرض السـماوى عيّن المكـان وعيّن الزمان واشترط الاسـتطاعة لأدائه، فقال تعالى وللّه على الناس حـج البيت من اسـتطاع إليهِ سبيلًا (۲)

أى حقّ على الناس كافة أن يحجوا إليه- إلى البيت الحرام- حيث هى الدعوة عامة وليست خاصة لفئة معينة من الناس دون أخرى ولم يخصـص المسـلمين دون غيرهم أو المؤمنين دون غيرهم، اللّه تعالى لا يفرق بين عباده، فلم يقل وللّه على المسـلمين أو على المؤمنين أو على الفرقة الفلانية أو الفئة الفلانية، أو تلك القبيلة أو العنصر المعين أو اللون المفضل، بل جاء الخطاب عاماً للنّاس.

وقوله تعالى إنّ أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدًى للعالمين (۳)

. ومن غير الممكن أن يجعل اللّه تعالى لفئة من عباده بيتاً فيه البركة والهدى والرحمة وغفران الذنوب و... و... ويحرم آخرين منه.

وقـد روى عن الإمـام موسـى الكـاظم عليه السـلام حين سُـئل عن هـذه الآيـة وللّه على الناس حـج البيت... ومن كفر فإنّ اللّه غنى عن العالمين قال: «من قال ليس هذا هكذا فقد كفر» (۴).

إذن فالحج لغير بيت اللّه الحرام لا يُقبل من أى إنسان أياً كان، فهو بِدعة لا يقبلها اللّه تعالى ولا تأخذ معنى الحج الحقيقى.

۱- ۱ الحج: ۲۷.

۲- ۲ آل عمران: ۹۷.

۳- ۳ آل عمران: ۹۶.

۴- ۴ وسائل الشيعة ۱۱: ۱۶، ح ۴۱۲۸.

ص: ۱۱۱

هناک نصوص قرآنیة تدین الخلط بین الحق والباطل، وتدین التباس الأمر على الناس نتیجة الانحراف، وترجعها إلى انعدام الرؤیة الواضحة والصحیحة والاضطراب عند بعض من الناس، من أضلهم وأغواهم الشیطان للانحراف عن الطریق المستقیم وعن جادة الصواب، إلى طریق الهوى وطریق الغوایة... قال تعالى

لِمَ تلبسون الحق بالباطل وتکتمون الحق وأنتم تعلمون (۱)

.فالیهود یعلمون أن اللّه تعالى شرع حجّاً... ویعلمون قدسیة بیت اللّه الحرام، ویعرفون أن جدهم إبراهیم الخلیل علیه السلام بنى بیتاً لعبادة اللّه تعالى مع هذا أنکروا الحق وألبسوه بالباطل وتوجهوا إلى أماکن ارتاحت لها أنفسهم وثبتت فیها عنصریتهم. ونسج الانحراف خیوطه فتاهت الحقیقة علیهم جیلًا بعد جیل، وضاعت معه مقدساتهم الحقیقیة ومعتقداتهم الواقعیة، ولعب الهوى أیضاً دوره، والإنسان ابن الهوى إذا لم یقیده قید ویرشده مرشد(۲)

... وهذه المسألة فی غایة الدقة والأهمیة.

۱- ۱ آل عمران: ۷۱.

۲- ۲ نقصد بالقید والمرشد: العقل والإیمان الحقیقی، والارتباط باللّه تعالى.

ص: ۱۱۲

ص: ۱۱۳

ص: ۱۱۴

ص: ۱۱۵

الفصل الخامس: الحج فی الديانة المسيحية

الحجّ فی الديانة المسيحية

اشارة

مضی النصاری علی شاکلة نظائرهم اليهود فی اتخاذ وجهات متعددة، ومراسم وسلوکيات خاصة، خطّتها لهم خيالاتهم وأهواؤهم، وزيّن لهم الشيطان سوء أعمالهم وتصرفاتهم، حتی أحسّوا أنّهم علی حقّ وغيرهم علی باطل.

عرفوا الحج أنّه طواف ودوار حول مقدسات العقيدة، فطافوا بمقدساتهم، وقدموا الأضاحی والنذورات والهدايا... بکوا وتضرعوا وطلبوا الغفران، وبعضهم ترک ملذات الدنيا المحللة والشهوات المباحة، واتجهوا للرهبانية عن الحياة ليتخذوا من (العذراء مريم) أسوة، ومن إلههم الثانی عيسی المسيح ربّاً- کما يزعمون- يغفر ذنوبهم ويکفر عنهم سيئاتهم ويدخلهم نعيم الجنة!!

وانقسم المسيحيون إلی عدّة فرق، وکلّ فرقة اتخذت وجهة خاصة فی الحج ومراسم وطقوس حجّ خاصة.

وقد خصّص لهم کتابهم (الإنجيل المحرف) أعياداً دينية، ک (عيد الفصح) و (عيد القيامة)، و (عيد الميلاد) و (عيد الفطاس)، وغالباً ما يصاحب أعيادهم حج وطقوس خاصة به.

ص: ۱۱۶

يقول أحد الكتاب المسيحيين (فنسنك wensinck) فی‌معنی الحج عندهم:

«وقد فسّر لغويو العرب الحج بأنه «القصد» ويتفق هذا ومعنی الحج عندنا (أی عند النصاری علی أنه من الواضح أنّ هذا المعنی اصطلاحی، كالفعل العبری، ولعل المادة ومعناها فی اللغات السامية الشمالية والجنوبية «يطوف» أو «يدور»...» (۱).

ولم نقرأ فی إنجيلهم المحرف ذكراً للحج عندهم، بل هناك أعياد دينية، يفرحون بها ويذكرون اللّه (الأب) وابنه (يسوع المسيح) الذی جمع فی تكوينه بين الروح الإلهية والتكوين الإنسانی فهو- حسب تعبيرهم- مركب من إله وإنسان.

وعلی هذا فالمسيحية ذات إلهين وليس إلهاً واحداً، وإنَّ ديناً له أكثر من إله واحد ليس ديناً توحيدياً بل ثنائياً أو ثلاثياً يُسيِّره الإله الأب والإله الابن وروح القدس.

فالمكان الذی وُلد فيه الإله الابن محجة أولی لهم، ومكان الصلب والرفع محجة ثانية، وكل مكانٍ صلی فيه عيسی المسيح أو ظهر هو أو أمّه مريم العذراء، فهو مكان مقدس ومحجة لهم، وهذا الظهور والتجلی فی أی زمان أو مكان أو لأی شخص منهم فهو مقدس ومحل زيارة ومحجة سنوية فی أحد الأعياد الدينية التی رسمها لهم كتبة الإنجيل.

الإنسان المتدين بدين المسيحية كأی إنسان آخر فهو ابن عقيدته، ونظرة أی إنسان إلی الحياة والكون ومفاهيمه فی شتی المجالات، بل وحتی عواطفه وأحاسيسه كلّها تدور حول محور العقيدة التی يتبناها، والتی تسهم فی بنائه الفكری والأخلاقی والاجتماعی والعبادی.

فإذا حكّم الإنسان عقله تجلی له الطريق الصحيح، وإذا قلّد أو غفل أو تعصب انحرف. فكتبة الإنجيل من أمثال هؤلاء الذين قلّدوا وغفلوا وتعصبوا فامتزج

۱- ۱ دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة من المستشرقين ۷: ۳۰۴.

ص: ۱۱۷

عندهم الحق بالباطل. وأول من أدخل البِدع وحرّفَ فى الديانة المسيحية، شاب يهودى اسمه شاؤول يذكر قصته الكتاب المقدس فى الاصحاح السابع من العهد الجديد، ادّعى أنّه حصلت له رؤيا ظهر فيها عيسى المسيح ودعاه إلى التبشير.

وفجأةً غيّر هذا الشاب اسمه إلى (بولص) وأدخل فى المسيحية ما ليس فيها؛ ليكسب بدعوته الوثنيين والجهال من اليهود ومن غيرهم.

ففى كتاب: «المئة: تقييم الأشخاص الأكثر أهمية فى التاريخ» فإنّ مؤلفه مايكل هارت يقول: «ليس هناك شخص لعب دوراً فى الضخامة كالدور الذى لعبه بولص فى إشاعة المسيحية» (۱).

وجهة النبيّ عيسى عليه السلام فى الحج

وعيسى روح اللَّه عليه السلام لبّى نداء نبى اللَّه وخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، حين أمره اللَّه تعالى أن يؤذن فى الناس بالحج، وعَلِم (وهو من الأنبياء الكبار: أى من أولى العزم) من اللَّه تعالى أن هذا النداء عام ولم يختص بشريحة معينة من شرائح المجتمع، بل هو يشمل جميع الأديان السماوية وجميع الأنبياء والرسل، وهو تكليف عام، واجب على المكلفين ومستحب لغير المكلفين، وسنبين شروط التكليف فى الفصول اللاحقة إن شاء اللَّه تعالى

وقد أكدت الروايات الشريفة عن الرسول صلى الله عليه و آله وعن أئمة الهدى عليهم السلام، حج ابن مريم عيسى روح اللَّه عليه السلام، إلى الكعبة الشريفة، فقد جاء عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«والذى نفس محمد بيده ليُهلَّن ابن مريم بفجّ الروحاء حاجاً أو معتمراً أو ليثنّيهما» (۲).

۱- ۱ عن كتاب: نظرة عن قرب فى المسيحية، بربارة براون: ۲۲.

۲- ۲ مسند أحمد ۲: ۲۴۰ و ۲۷۲ بتفاوت يسير و ۲۹۰ فى حديث قال فيه: «وينزل الروحاء فيحج منها أو يعتمر أو يجمعهما».

ص: ۱۱۸

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، قال: «ومرّ عيسى بن مريم عليه السلام بصفائح الروحاء وهو يقول: لبيك عبدك وابن أمتك» (۱).

وفى تحديد الوقت الذى كان الأنبياء يحجون فيه إلى البيت العتيق، ومن ضمنهم عيسى عليه السلام، قال الإمام الرضا عليه السلام: «... وقتها عشرة ذى الحجة... النبيون آدم ونوح وإبراهيم وعيسى وموسى ومحمد (صلوات اللّه عليهم) وغيرهم من الأنبياء، إنما حجّوا فى هذا الوقت، فجعلت سُنة فى أولادهم إلى يوم القيامة» (۲).

والنبىّ عيسى عليه السلام أحد أولى العزم الخمسة، ومن غير الممكن أن تكون وجهته فى الحج مخالفة عن وجهة بقية الأنبياء والرسل، كأن يتخذ من بيت المقدس أو مكاناً آخر محجة خاصة له ولقومه واتباعه.

انحراف النصارى فى الحج

والنصارى أو المسيحيون حالهم حال اليهود فى التحريف والانحراف عن سُنة اللّه والأنبياء، وعدم التزامهم بتعاليم نبيهم المرسل إليهم الذى ينسبون أنفسهم إليه، وما أنزل عليه من شرائع السماء، وضربهم على تعاليم الشريعة بحُجب التحريف والكتمان، والترك الصريح لها، وقد ذكرهم القرآن الكريم، مستنكراً أعمالهم وعبادتهم فى آيات بينات كثيرة منها قوله تعالى

قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أُنزل إليكم من ربّكم وليزيدنَّ كثيراً منهم ما أُنزل إليك من ربّك طغياناً وكفراً

۱- ۱ بحار الأنوار، المجلسى ۹۹: ۱۸۵، الطبعة البيروتية.

۲- ۲ المصدر نفسه.

ص: ۱۱۹

فلا تأس على القوم الكافرين (۱)

.فالآيـة الكريمـة صـريحة البيان واضـحة المعنى أن أعمالهم ليست مقبولـة، وهى لا شـىء حتى يعملوا بما أمرهم اللّه من خلال الكتب السماوية المنزلة على أنبيائه.

عيسـى عليه السـلام كغيره من الأنبياء جاء بشيراً ونذيراً نبياً وهو بشر، لكن المسيحيين انقسموا فريقين من بعده: فريقاً كفروا وعادوا إلى وثنيتهم. والفريق الآـخر جعـل من شخصـية عيسـى عليه السـلام مرتكزاً للـدين وأخـذ الـدين اسـمه من عيسـى المسـيح، وأخـذت كل المعتقدات المسـيحية تتمحور حول عيسـى؛ المسـيح. الأعياد المسـيحية الرئيسـية تتعلق بأحداث فى حياة عيسـى المسـيح. ورمز العقيدة المسـيحية، وهو الصـليب، يشـير إلى عيسـى المسـيح. وصـلوات المسـيحيين موجهة إلى عيسى لأنهم يعتبرون أن اللّه نفسه لا يمكن أن يخـاطبه إنسان عادى. وحسب ما يقوله المؤلف المسـيحى فرتز رايـدنور: «إن مفتاح العقيـدة المسـيحية هو أن عيسـى المسـيح كان فى الواقع السبب فى وجودها كلّها، وأنه هو الذى يحافظ على تماسكها بأجمعه» (۲).

فهـذه الملّـة من البشـر جعلوا من أمـاكن ذكريـات نبيهم، وما تجلى لهم من شـخصه وشخصـية أمّه عبر تاريخه إلى يومنا هـذا، جعلوها أماكن حج دينية فى أعيادهم السنوية... نذكر من هذه الأماكن المقدسة ما يلى:

۱- اتجه بعض المسـيحيين إلى بيت المقدس فى فلسـطين حيث الصـليب الأصيل للسيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام اقتداءً بسنة الملكة هيلانة.

۲- واتجه قسمٌ آخر إلى كنيسة رومة فى ايطاليا (Rome (rom.

۱- ۱ المائدة: ۶۸.

۲- ۲ كيف تكون مسيحياً فى عالم غير مسيحى: ۱۷۶، نقلًا عن نظرة عن قرب فى المسيحية، بربارة براون: ۱۴.

ص: ۱۲۰

۳- ومنهم من حجَّ إلى لورد فى فرنسا للمكان الذى ظهرت فيه السيدة العذراء لهم.

۴- وتوجه جمع منهم إلى كنيسة (فاطيما) (Fatima) لتجلى السيدة النورانية صاحبة المسبحة فاطيما.

۵- وآخرون توجهوا إلى أماكن متفرقة كقبور الأسلاف من موتاهم، أو إلى الجبال وغيرها من الطبيعة.

وسنحاول قراءة كلّ واحدة من هذه النقاط قدر استطاعتنا، وإلقاء الضوء على الموقع الجغرافى ونبذة عن تاريخها إن شاء اللَّه تعالى

الحج إلى بيت المقدس

التوجه فى الحج إلى بيت المقدس، لم يرد فيه نص لا فى التوراة ولا فى الإنجيل، بل سُنة اتبعت نتيجة اسباب معينة، فعند النصارى كان السبب الرئيسى هو اتباع سُنة الملكة، (هيلانه (Helene) (ste) أمّ الامبراطور قسطنطين، التى اكتشفت العود الأصلى، الذى صُلبَ عليه عيسى المسيح، فجُعلَ ذلك اليوم مباركاً وعيداً يحج فيه إلى بيت المقدس الذى يحتضن العود المقدس...

«وهيلانة التى اهتدت إلى الدين المسيحى، وقامت عام (۳۲۶ م) بجولة تفقدية فى الشرق، زارت خلالها الأماكن المقدسة فى فلسطين، وقامت ببناء كنائس فى أورشليم وبيت لحم. يُروى أنّها عثرت على عود الصليب الحقيقى» (۱).

ويُروى أنّها «كرست اهتمامها لكشف مواضع الحوادث المهمة للمسيحيين، ولبناء كنائس تذكاراً لها» (۲).

۱- ۱ معجم الحضارات السامية، هنرى س. عبّودى: ۸۹۶، طرابلس- لبنان.

۲- ۲ العرب واليهود فى التاريخ، د. أحمد سوسة: ۳۹۰، العربى للإعلان والنشر.

ص: ۱۲۱

فالمسيحيون يكرّمون «كنيسة القبر المقدس، التى تقوم على المكان التقليدى لجبل (الجلجثة)، الذى يعتقد المسيحيون أن المسيح صلب عليه. يحيط بالمدينة القديمة سور شيده السلطان سليمان القانونى عام (۱۵۴۱)، وفى شرق المدينة القديمة يقع وادى قدرون وبه بستان جثمانى» (۱) و «حينما منع الأتراك السلاجقة، المسيحيين من زيارة بيت المقدس، وهدّموا كنيسة القبر المقدس (الآن كنيسة القيامة) قامت الحروب الصليبية، فسقطت فى أيدى الصليبيين عام (۱۰۹۹)...» (۲).

والزيارة أو الحج إلى كنيسة القيامة (كنيسة القبر المقدس)، عادةً تكون فى عيد الفصح السنوى وهو: «العيد الرئيسى عند المسيحيين، وهو ذكرى قيامة المسيح بين الأموات فى العقيدة المسيحية، ويقع بين (۲۲) مارس و (۲۵) أبريل، ويرتبط به عدد كبير من الأعياد الأخرى ويُسبق بالصيام الكبير الذى يدوم أربعين يوماً، ويجمعه «آلام المسيح»...» (۳).

وعيد الفصح: عيد دينى تُمارس فيه أوامر ونواهٍ خاصة كالصوم والصلاة والدعاء والنذور والأضاحى وغيرها، ويختلف بكثير عن عيد الميلاد المسيحى المشهور، الذى تحوّل إلى عيد قومى يُلزم به المتدين وغير المتدين من المسيحيين، وهو ذكرى مولد السيد المسيح، يلى صيام أربعين يوماً (هذا بالنسبة للملتزمين، أما غير الملتزمين فلا يعنيهم هذا الصيام)، وهو يوم ۲۵ ديسمبر بالتقويم الغربى، ويوم ۲۹ كهيك بالتقويم القبطى، احتُفِل به قبل (۲۰۰)، ثم انتشر وأصبح شائعاً وشعبياً فى القرون الوسطى، التصقت به عادات وتقاليد قومية، مثل غناء الترانيم،

۱- ۱ الموسوعة العربية الميسرة.

۲- ۲ المصدر نفسه.

۳- ۳ الموسوعة العربية الميسرة: ۱۲۴۷.

ص: ۱۲۲

وتبادل الهدايا وإرسال التهانى، وغير ذلك، أما إقامة (شجرة عيد الميلاد) فهى عادة ألمانية الأصل (۱).

وهنا لا يهمنا هذا العيد، ولكن الشىء بالشىء يذكر. لأنهم يستحب لهم فى عيد الميلاد زيارة (كنيسة القيامة المقدسة) إن استطاعوا، وإلّا فأى كنيسة أخرى

أما الحج إلى (كنيسة القيامة) فى بيت المقدس الشريف المُسن من قبل الملكة هيلانه، فهو ذكرى العثور على عود الصليب الأصلى كما ذكرنا سابقاً، يحيون ذكراه، حتى أصبحت عادة وسُنة جيلًا بعد جيل، وكأنهم يحجون إليه لفريضة أو أمر إلهى شرعه له عيسى المسيح عليه السلام فتركز فى نفوسهم، أما حقيقة هذا الحج فهو التراث الذى خلّفته (هيلانه)، فهو تراث وحج مزيف وليس حجاً إلهياً حقيقياً.

رومة فى ايطاليا

تعدُّ روما من المدن المهمة والمقدسة للمسيحيين، وهى مركز ثقافى وفنى ودينى منذ عهد طويل ويطلق عليها: (المدينة الخالدة) وكذلك (المدينة المقدسة) وهى وسط ايطاليا قرب الساحل الغربى على ضفتى نهر «التيبر»، عاصمة ايطاليا، وفيها الفاتيكان مقر البابوية، وكان للإصلاح الكاثوليكى بعد عام (۱۵۲۷) م أثر فى استفادة البلاط البابوى- بعد أن خرب جنود شارل روما عام ۱۵۲۷ م- وكذلك استعاد مكانته وسلطته الروحية. استمرت روما فى الازدهار والإفادة من وفود جموع الحجاج عليها (۲).

وروما من كُبرى مُدن ايطاليا، ويرقى تاريخها إلى القرن الثامن قبل الميلاد.

۱- ۱ انظر المصدر السابق.

۲- ۲ انظر الموسوعة العربية الميسرة: ۸۹۸- ۹۰۰.

ص: ۱۲۳

کانت فیما ما مضی عاصمة الجمهوریة الرومانیة، ثم عاصمة الامبراطوریة الرومانیة، ثم عاصمة المقاطعات البابویة... وهی الیوم عاصمة الجمهوریة الإیطالیة، والعاصمة الإداریة والروحیة للکنیسة الرومانیة الکاثولیکیة بوصفها مقرَّ الکرسی الرسولی (فی الفاتکان) (۱).

جاء فی تاریخ الحضارات العام: «فإننا نشاهد عناصر عدیدة من المسیحیین تقوم فی العاصمة روما، ملتقی جمیع الملل والطوائف، ومحجّة الشعوب علی اختلافها» (۲).

کنیسة رومة فی ایطالیا

۱- ۱ انظر موسوعة المورد، منیر البعلبکی ۸: ۱۶۳.

۲- ۲ تاریخ الحضارات العام، اشراف موریس کروزیه ۲: ۴۲۶.

ص: ۱۲۴

وروما المدينة الجميلة ذات الطبيعة الخلابة والآثار الجذابة ومقر الكنيسة الكاثوليكية ومقر الكرسى الرسولى، التى تستهوى القلوب المسيحية التى تعلقت بشخص عيسى المسيح عليه السلام، اعتُبرت كنيستها والآثار المحيطة بها، محجّة سنوية ومركزاً تجارياً وترفيهياً.

والحج لهذه المدينة الأثرية- فى اعتقادنا- ما هو إلّانزهة سنوية ترفيهية اكثر مما هى معنوية الهية أو روحية.

إنّ هذا النوع من النزهة السنوية ممكن فى كل مكان وزمان، ولم يتوفر على أىّ من شروط الحج، ونحن نعتقد وتبعاً لما نعرف من الأوضاع الاجتماعية المتردية فى الغرب، لابد وأن يصاحب هذه السفرة السياحية قضايا وامور انحرافية لا أخلاقية مما لا يرضى اللّه بها ولا السيد المسيح نفسه، فكيف يطلقون على هذه النزهة «حجاً»؟!

والظاهر أن زيارة المسيحيين لرومة تكون عادةً فى عيد القيامة، ويصاحبها استعمال البخور والماء المقدس فى التطهير، وإيقاد الشموع وتقديم النذور وبعض الأضاحى (۱).

كنيسة لورد فى فرنسا

ابتدع هذا الحج عام (۱۸۵۸ م) أى بعد ميلاد السيد المسيح عليه السلام بأكثر من ثمانية عشر قرناً، ويرجع سببه إلى ادّعاء إحدى راهبات الكنيسة فى فرنسا أنها شاهدت مريم العذراء، تجلت لها بجوار المغارة التى كانت بالقرب منها.

ولورد: بلدة فى الجزء الجنوبى الغربى من فرنسا. كانت فى القرون الوسطى ذات موقع استراتيجى هام. أصبحت منذ العام (۱۸۵۸ م) محجّاً يقصده المرضى

۱- ۱ انظر قصة الحضارة ۱۱: ۳۱۴- ۳۲۰.

ص: ۱۲۵

من الكاثوليك التماساً للشفاء بعد الذى أُذيع من أن العذراء تجلّت غير مرة، فى مغارة هناك لفتاة ريفية اسمها برنادت(۱) ((Bernadette.

كنيسة لورد فى فرنسا

وتدّعى الكتب المسيحية أن برنادت سوبيروس... المولودة عام (۱۸۴۴ م) فى لورد (فرنسا) ظهرت لها السيدة العذراء عام (۱۸۵۶ م) أو (۱۸۵۸ م)، أى كانت بالغة من العمر (۱۲- ۱۴) عاماً، ودعتها إلى تأسيس معبد (لورد) الحالى، وكانت وفاتها عن عمر يناهز (۳۵) عاماً أى عام (۱۸۷۹ م) (۲).

۱- ۱ موسوعة المورد ۶: ۱۴۸.

۲- ۲ المنجد، لويس معلوف: ۱۲۷، دار الشرق- بيروت.

ص: ۱۲۶

ومدينة لورد الواقعة بمقاطعة البرانس العليا جنوب غرب فرنسا يؤمها حوالى مليون زائر سنوياً، التماساً للعلاج عن طريق المعجزات (۱).

ولا ـ شك أن (مُودة) ظهور السيدة العذراء وتجليها للنصارى أصبحت معروفة: وهى إما خيالات لمغالين أو لأغراض سياسية أو اجتماعية أو تبشيرية أو لُامور أخرى عِلماً أنّ هذه المغارة أصبحت لهم (باب المراد) يطلبون حوائجهم منها وينذرون لها ما استطاعوا إليه سبيلًا أو أكثر، يحيون الليل بالبكاء والتضرع آملين من العذراء غفران الذنوب وستر العيوب والشفاء من الأمراض.

وعجباً لسذاجة بعض المسيحيين، أن يطلقوا على هذه الأماكن، أماكن حج يُعبد فيها الرب الإله والرب اليسوع عيسى وامّه، تذكرها كتبهم بكلِّ جرأة ووقاحة... تجرهم طفلة أحبت العذراء مريم عليها السلام وتعلقت بها وتخيلتها مرّات، هذا تعليقنا على هذه القضية إن صحت الأخبار فى نقلها...

كنيسة (فاطيما) فى البرتغال

وقصة فاطيما تتمحور فى قضية مقدسة حدثت فى أوربا، اهتم بها العالم المسيحى؛ لأنها من شؤونه الدينية الخاصة، وقد ارتبطت هذه القصة باسم يمت إلى العالم الإسلامى بصلة.

وفاطيما: قرية فى شبه جزيرة (فيبرى) غرب اسپانيا فى مدينة ليشبونة فى البرتغال، فتحها عبد الرحمن عام (۷۱۰ م) وبقيت تحت راية الإسلام حتى القرن الحادى عشر الميلادى، استولت عليها أوربا وانجلى الإسلام عنها، وأصبح أغلب سكانها من المسيحيين.

وفى عام (۱۹۱۷ م) أصبحت فجأةً محجة للمسيحيين ومقصداً للزوّار، والمتابع

۱- ۱ انظر الموسوعة العربية الميسرة: ۱۵۷۴.

ص: ۱۲۷

لأخبارها يعجب للدين المزيج من التعاليم المسيحية والتعاليم الإسلامية، خصوصاً عند أهل القرية التى تحتضن كنيسة فاطيما...

وبدأت القضية هكذا: ثلاثة اطفال قرويين يفتحون عيونهم على حقيقة تجلت لهم فى ضواحى القرية، لتصبح فيما بعد مَعيناً متدفقاً لاعتقاد عميق فى حياة أبناء هذا البلد. الأطفال هم: جاسنيتا- سبع سنوات- وفرانسيسكو- تسع سنوات- ولوسيا- عشر سنوات- الشاهد الأصلى لهذه الحادثة هى لوسيا. وتروى ألسنة الأطفال الثلاثة الحادث على النحو الآتى: فى عام ۱۹۱۶، قبل عام واحد من رؤيتنا السيدة التى تشع بالنور، تراءت لنا «ملاكاً» ورددت هذه العبارة:

لا تخافوا... أنا «ملاك السلام». وقالت أيضاً «إلهى! أنا أعتقد بك وأؤمن بك وأحبك، وإنى أطلب الغفران لهؤلاء الذين لا يؤمنون، ولا يعتقدون بك، ولا يحبونك».

بعد ذلك تراءت لهم ملاكاً مرتين فى الصيف والخريف، وفى كلّ مرّة كانت تقول لهم: «قدّموا الأضاحى، واستغفروا للمذنبين وادعوا لهدايتهم» وقد لعبت المواقف الثلاثة دوراً فى تهيئة الأطفال لرؤية السيدة صاحبة المسبحة، وفى الثالث عشر من آيار (مايس) ۱۹۱۷ م، رأى الأطفال هالة النور مرتين، ثم أطلّ نور عظيم من أعلى شجرة البلوط، سيدة أشد ضياءً من نور الشمس تسمى «فاطيما» راحت تكلمهم:

- لا تخافوا، لا أريد أن اخيفكم.

- من أنت؟

- فاطمة بنت الرسول.

- من أين جئت؟

- جئتُ من الجنة.

- ماذا تريدين منّا؟

ص: ۱۲۸

- جئت لأطلب منكم أن تواظبوا على المجيء إلى هنا، وسأقول لكم فيما بعد ماذا أريد منكم. وأخذت تظهر كلّ شهر وفى لقائها السادس والأخير أظهرت معجزة كبرى أمام أنظار سبعين ألف شخص كانوا قد احتشدوا لرؤيتها... إذ شاهدت الحشود المنتظرة، توقف هطول المطر فجأة، واهتزت الشمس واستقرت، ثم دارت مرّتين بنحو ظنَّ الناس بأنّها ستسقط فى أى لحظة على رؤوسهم. ثم عادت الشمس إلى موضعها. وأول صحيفة نشرت هذا الخبر (صحيفة ليسبون) فى الخامس عشر من تشرين الثانى من العام نفسه (۱).

وهناك مصدر آخر يقول: «ان فاطيما قرية وسط البُرتغال زُعم أنّ السيدة العذراء ظهرت لثلاثة من أطفالها (اطفال القرية) فى ۱۳ مايو عام ۱۹۱۷ م.

ومنذئذ أصبحت محجةً يقصد إليها المسيحيون من مختلف أرجاء الأرض...» (۲).

وتعتبر ليلة الثالث عشر من مايو- يوم الحادث- من كلّ عام ليلة الدعاء المهمة فى مزار فاطيما، إذ ينبغى وفقاً لوصية السيدة صاحبة المسبحة، قضاؤها بالدعاء والتسبيح والاستغفار، وهو درس تعلّمهُ الناس هنا من السيدة فاطيما؛ ليصبح فيما بعد واحداً من معتقداتهم وتصوراتهم الدينية. والطريف أن هذه الحشود البشرية، التى تقطع مئات الكيلومترات كلّ عام من شمال البلاد وجنوبها، قاصدة هذه المدينة المقدسة، لم يثنها عن مجيئها حرٌّ ولا برد، ولا ليل ولا نهار، بل وبعد انتهائها من الزيارة يتمتم كلّ واحد بهذه الكلمات:

«سيدتنا فاطيما! السيدة صاحبة المسبحة! السيدة هالة النور! أنا مضطر الآن للابتعاد عنكِ، ولكن أطلب من اللّه أن لا يجعل هذا اللقاء آخر لقائى بك، وأن

۱- ۱ «فاطيما» مهوى الأفئدة وملاذ المتضرعين، الطاهرة، العدد ۷۰: ۱۱- ۱۲.

والفلم التحقيقى الذى عرضه تلفزيون الجمهورية الإسلامية باللغة الفارسية.

۲- ۲ موسوعة المورد، البعلبكى ۴: ۱۰۸.

ص: ۱۲۹

يكون هذا الالتماس وهذا الشوق حيّاً فى وجودى دائماً يا فاطمة! فى أمان اللّه يا سيدتنا الطاهرة» (۱).

كنيسة فاطميا فى البرتغال

وتعليقنا على هذه الواقعة التى جاءتنا من بعيد، من البرتغال أو بالأحرى من قرية نائية من البرتغال، من بيئة مسيحية، واقعة شاهد آثارها عدد كبير، وزارها الباب نفسه (۲)... وفى نفس الوقت تتعلق القضية بشأن إسلامى مهم هو ظهور السيدة فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه و آله ذات المسبحة (۳).

۱- ۱ «فاطيما» مهوى الافئدة وملاذ المتضرعين: ۱۳.

۲- ۲ فى عام ۱۹۶۷ م. فى الذكرى الخمسين لإقامة المزار، زارها البابا بولس السادس تجليلًا للبقعةالمقدسة وتكريماً لها. كما زارها الباب بولس الثانى عام ۱۹۸۲ م.

۳- ۳ الطريف أن حجاج تلك الكنيسة يحملون بأيديهم مسبحة ويسبحون كتسبيح الشيعة الإمامية أى: يذكرون اللّه ۳۴ مرة اللّه اكبر، ويحمدون اللّه ۳۳ مرة الحمد للّه، ويسبحون اللّه ۳۳ مرة سبحان اللّه، كلٌ بلغته الخاصة.

ص: ۱۳۰

ص: ۱۳۱

ونحن نحترم السيدة مريم العذراء عليها السلام، وفى الوقت نفسه نقدس السيدة فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين، فهل يا ترى أنّ الذى ورد صحيح مئة بالمئة؟ ذلك ما لا أستطيع أن أنفيه على الأقل...

ولكن أتساءل... لَمْ نقرأ أن مجموعة من المسيحيين ومنهم صاحبة القضية الأصلية الراهبة (لوسيا) أنهم أسلموا مع أن القضية تستحق الإسلام، هذا اذا كان التجلى لشخص فاطمة الزهراء عليها السلام، وإذا كان التجلى لشخص مريم العذراء عليها السلام فلَم نقرأ أن لمريم عليها السلام اسماً يشابه اسم فاطمة؛ لكى تُسمى المنطقة باسمها.

ثم إنّ اهتزاز الشمس ودورانها مرتين ورجوعها إلى حالها منذ زمن قريب جدّاً (سنة ۱۹۱۷ م)... ليس أمراً عادياً، إنه أمر كونى تنقلب له الدنيا وتهتز له عقول العلماء الفلكيين، ولكن لم نسمع ولم نقرأ عن هذا الحدث الكونى شيئاً، فى حين أن تسجيلات خسوفات وكسوفات عادية جاءت من آلاف السنين.

إنّ القضية أو القصة يجب أن تُقرأ بشكل مفصل نظرياً وميدانياً، واللَّه أعلم ما وراء ذلك...

وقد سمعنا من أحد الناقلين القادمين من البرتغال أن التى تجلت لهم (۱) كانت (فاطمة) بنت أحد الخلفاء المسلمين وليست بنت الرسول صلى الله عليه و آله، فإن كانت هذه أو تلك فالقضية تحتاج إلى دارسة أكثر كما ذكرنا أعلاه...

حجهم إلى مقدسات أخرى

إضافة إلى ما ذكرنا من مقدسات النصارى هناك أماكن أخرى قدسها البعض منهم؛ كقبور الموتى وبعض الأشجار التى رُمز لها (بشجرة عيد الميلاد) وبعض الجبال وغيرها، ونذكر هنا تقديسهم وحجهم للقبور القديمة:

۱- ۱ أى تجلت للأطفال الثلاثة.

ص: ۱۳۲

كانت طريقة الدفن المسيحية آخر ما تُكرَّم به حياة المسيحى، ذلك أن من عقائد دينهم عودة الحياة إلى الجسم والروح، ولهذا كان يُعنى بالميت أشد عناية، فيقوم قسيس بالخدمة الدينية للميت وقت دفنه... فكان العمال يحفرون طرقات طويلة تحت الأرض مختلفة البُعد عن سطحها، توضع فيها أجسام الموتى فى دياميس بعضها فوق بعض ممتدة على جانبى هذه الطرقات، وسار الوثنيون واليهود على هذه السنة نفسها، ولعلهم فعلوا هذا ليسهلوا مشقة الدفن ونفقاته على الجمعيات التى كانت تقوم بهذه المهمة. ويبدو لنا أن بعض هذه الطرقات قد جعلت ملتوية عمداً، وقد يبعث على الظن بأنها كانت تستخدم كمخابئ فى أوقات الاضطهاد، فلما أن علا شأن المسيحية وانتصرت على أعدائها زالت عادة دفن الموتى فى السراديب، وأضحت الدياميس أماكن معظمة «يحجُّ» اليها الناس (۱).

والظاهر أنّ هذه الدياميس بقيت محجة لمئات السنين حتى حلَّ القرن التاسع الميلادى، سدّت السراديب ونسيها الناس، ولم تُكشف إلّابطريق المصادفة عام (۱۵۷۸) ميلادية (۲).

وكذلك عادة تقديس بعض الجبال وبعض الأشجار، فقد انقرضت بظهور عادة الحج إلى رومة وفاطيما ولورد والقدس وغيرها من المقدسات الحديثة...

تلخيص واستنتاج

والحج المسيحى هو الآخر ليس حجاً إلهياً صحيحاً، وذلك بسبب من أصل العقيدة التى اختاروها أو صنعوها ومزجوا بها بين اللّه والانسان، فديانتهم التى اختارتها عقولهم رأت أن المسيح عليه السلام هو الإله (الابن) المكمل للإله الحقيقى،

۱- ۱ انظر قصة الحضارة ۶، ۱۱: ۲۸۵- ۲۸۶.

۲- ۲ المصدر نفسه.

ص: ۱۳۳

فالمسيحية هى ديانة ذات إلهين وليس إلهاً واحداً، وأن ديناً له أكثر من إله واحد ليس ديناً توحيدياً...

وكما ذكرنا فى المقدمة ما قالته (بربارة براون) الكاتبة الأمريكية التى أسلمت عن قناعة راسخة بعد أن رأت أن المعتقدات المسيحية كلّها تدور حول الإله الابن (عيسى عليه السلام) وقالت: «إنّ المسيحية هى ديانة ذات إلهين وليس إلهاً واحداً» (۱)، والأعياد والصلاة و... و... كلّها موجهة إلى عيسى المسيح...

وكذلك الحج عندهم ليس عبادة خالصة موجهة إلى الواحد الأحد- كما عند المسلمين- بل هى مرتبطة إما بشخص عيسى عليه السلام أو مكان ذكرياته كمسقط رأسه أو العود الذى صُلِب عليه، أو المكان المرتبط بالسيدة العذراء مريم عليها السلام إذا تجلت لهم فى خيال أو تصور أو منام أحدهم أو للمغالين منهم...

ومن هنا تبين الانحراف والابتعاد عن الحج الحقيقى، الذى وضع اللّه الواحد الأحد هدفه الأسمى والأول والآخر، وغير ذلك لا يمكن أن نعتبره حجاً بأى حال من الأحوال مهما كان صاحبه مخلصاً، ومهما عمل من الأعمال والمناسك الدينية...

فالحج عند النصارى إذن ليس مرتبطاً بالإله الحقيقى بالمرة، وإنما مرتبط بالإنسان الذى خلقه اللّه تعالى للبشر؛ ليُبشر ويُنذر وليبين الحق من الباطل...

والنبى عيسى عليه السلام ما هو إلّابشرٌ مثلنا يُشاركنا ونشاركه بالإنسانية، اصطفاه اللّه تعالى ليكون رسولًا نبياً. وأمه أيضاً لا يمكن أن تُعبد أو أن تكون فى مقام أُم الإله اليسوع- كما يدّعون-، فهى امرأة انسانة، لكنها وصلت مرحلة الأولياء الصالحين نتيجة علاقتها باللّه وعبوديتها الحقّة له، ممّا جعلها سيدة نساء زمانها، وأمّ نبى اللّه.

و أمّا النصارى فقد أشركوا باللّه تعالى حين جعلوا لعيسى عليه السلام وامّه عليها السلام مقام الإلوهية ...

۱- ۱ نظرة عن قرب فى المسيحية: ۱۳.

ص: ۱۳۴

صفحه سفید

ص: ۱۳۵

ص: ۱۳۶

ص: ۱۳۷

الفصل السادس: القدس فی تاریخ الأنبیاء

القدس، هل کانت مرکزاً لحج الأنبیاء؟

بیت المقـدس أو القـدس، مدینـة تاریخیـة قدیمة عرفت فی التاریخ مدینة مقدسة، اهتمت بها الأدیان الرئیسـیة الثلاثة: الدیانة الیهودیة والدیانة المسیحیة والدین الإسلامی الحنیف...

ولفرط قداسـتها اعتبرهـا الیهود رمزاً لبیت اللّه تعـالی واعتبرهـا النصـاری رمزاً لروح القـدس، واعتبرهـا المسـلمون أولی القبلتین ومحل إسراء الرسول صلی الله علیه و آله...

وقد حفلت هذه المدینة بالأماکن المقدسة کقبة الصـخرة والمسـجد الأقصـی وهیکل سـلیمان وحائط المبُکی و... و... الخ مما تقدسـه الأدیان الثلاثة.

ومن هنا جاء اهتمام التاریخ والأدیان بها والصراع علیها، وکلٌ یستطیع أن یؤدی شعائره وطقوسه فیها...

وقـد عـاش فیهـا عـدد من الأنبیـاء والمرسـلین، فهی فی حقیقتهـا مدینـة الأنبیاء والأولیاء، ولیس هناک مدینـة فی تاریـخ العالم تمتعت بقدسیة مستدیمة منذ أن أسسها

ص: ۱۳۸

(الیبوسیون الکنعانیون) (۱) قبل نحو خمسة آلاف عام حتی یومنا هذا، مثل مدینة أورشلیم، (بیت المقدس الحالیة): فهی الأرض المبارکة «دار السلام» کما سمّاها الأقدمون، وقد حمل ملوکها القدماء لواء عقیدة التوحید للإله العلی لأول مرة فی التاریخ البشری، علی ما یری کثیر من المؤرخین (۲).

وقد خصّ ها اللَّه تعالی بالعدید من الأنبیاء حتی قیل: إنّ بناءها تم علی أیدیهم وسکنوها وعمروها «ومافیها موضع شبرإلّا وقد صلّی فیه نبی أو قام فیه ملک» (۳)، کما خصّ ها اللَّه تعالی بإسراء خاتم الأنبیاء، ثم إنها قبلة الیهود والنصاری وصلّی إلیها المسلمون مع رسول اللَّه محمد صلی الله علیه و آله فی بدایة الدعوة الإسلامیة فترة قصیرة حتی منَّ اللَّه تعالی علی رسوله المصطفی بقبلةٍ یرضاها:... فلنولینک قِبلةً ترضاها فولِّ وجهک شطر المسجد الحرام وحیثُ ما کنتم فولّوا وجوهکم شطره وإنّ الذین اوتوا الکتاب لیعلمون أنه الحقّ من ربّهم وما اللَّه بغافلٍ عما یعملون (۴)

.وبالرغم من هذه القدسیة لبیت المقدس لکننا لم نجد فی القرآن الکریم ما یشیر الی أن اللَّه تعالی ینسبه إلی نفسه فی الکیفیة، التی نتلمسها فی الکعبة والتی تختص بها دون غیرها، کما فی قوله تعالی بیتی وبیتک (۵). کما ورد فی قوله ابراهیم علیه السلام مناجیاً ربّه عند بیتک المحرم (۶)

. ولو رجعنا إلی التوراة التی دونها الیهود

۱- ۱ الیبوسیون: أقدم سکان أورشلیم یرجع الخبراء تاریخ وجودهم فی المدینة إلی ما قبل خمسةآلاف سنة حین نزحوا من جزیرة العرب. وکونوا فی موطنه الجدید حضارة ذات حکومة وصناعة وتجارة ودیانة، المصدر: العرب والیهود فی التاریخ: ۳۹۱.

۲- ۲ العرب والیهود فی التاریخ، د. أحمد سوسة: ۳۸۶.

۳- ۳ معجم البلدان، یاقوت الحموی ۱: ۱۱۲.

۴- ۴ البقرة: ۱۴۴.

۵- ۵ البقرة: ۱۲۵. الحج: ۲۶.

۶- ۶ ابراهیم: ۳۷.

ص: ۱۳۹

أنفسهم فى الأسر، بعد السبى البابلى وبعد مضى ثمانمئة عام من نزول الوصايا العشر على موسى عليه السلام وتعاليم الشريعة الموسوية، ثم حشر تاريخ بنى اسرائيل فيها والتشويه والتحوير الذى جاء لخدمة مقاصد خاصة وأهداف معينة، حيث اتخذت من شخصية النبى موسى عليه السلام قوة دينية تتشبث بها ضد أعدائها، كما اتخذت من إرجاع أصلها إلى إبراهيم الخليل عليه السلام وحفيده «يعقوب عليه السلام» النسب الأصيل الذى يجعلها أهلًا لتكون «شعب اللَّه المختار»، ومن بيت المقدس عقيدة (الوطن الموعود) الذى يفيض عليها قدسية وروحانية، وعزت كلّ ذلك إلى الإله «يهوه» والى ابراهيم الخليل ويعقوب وكلهم بريئون منها، ولو رجعنا إلى الانجيل فحاله حال التوراة، ومع كلّ ما شوهت وكتبت ودست لكننا لا نلمس أثراً ولا نصاً يقول: إنّ اللَّه تعالى نسبه إلى نفسه أو أمر الناس أن يحجوا إليه بينما وجدنا ابراهيم الخليل عليه السلام عندما أقام البيت الحرام (الكعبة) جاءه الخطاب الإلهى وأذّن فى الناس بالحج... الخ وجاء تأكيد القرآن الكريم أولوية الكعبة فقال إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة.

هجرة النبى ابراهيم عليه السلام إلى القدس

اشارة

لقد توصل علماء الآثار فى أحدث بحوثهم إلى أن ابراهيم الخليل عليه السلام ظهر فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد أى قبل حوالى أربعة آلاف عام فى بلاد الرافدين، وعاش فى زمن نمرود، الملك الذى دفعته أحلامه المزعجة إلى مراقبة الحوامل وقتل الذكور من المواليد.

وزار عُملاؤه والدة ابراهيم عليه السلام ليكشفوا ما فى بطنها قبل أن يأتيها المخاض، وجسّوا جانبها الأيمن، فاختفى الجنين فى الجانب الأيسر، وجسّوا الأيسر، فاختفى

ص: ۱۴۰

فى الجانب الأيمن، فانصرفوا دون أن يظفروا بما ستلد، الأمر الذى اضطر أمَّ ابراهيم أن تلجأ إلى كهفٍ بالقرب من «كوثا» (۱)، وهناك رأى ابراهيم الخليل نور الحياة للمرة الأولى (۲).

ولما بلغ ابراهيم رشده، كما ورد فى القرآن الكريم، من محاورته لأبيه وقومه من عبدة الأوثان، قال تعالى ولقد آتينا ابراهيم رُشدَه من قبلُ وكُنّا به عالمين* إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون* قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين* قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ظلالٍ مبين* قالوا أجئتنا بالحقِّ أم أنت من اللاعبين* قال بل ربّكم ربّ السماوات والأرض الذى فطرهُنَّ وأنا على ذلكم من الشاهدين (۳)

.ثم صمم ابراهيم عليه السلام على تحطيم أصنامهم وأقسم باللَّه على ذلك وتاللَّه لأكيدن أصنامكم بعد أن تُوَلّوا مدبرين* فجعلهم جُذاذاً إلّاكبيراً لهم لعلهم يرجعون* قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين* قالوا سمعنا فتًى يذكُرهم يُقال له ابراهيم (۴)

.وكانت هذه القضية سبباً لمحاكمته العلنية أمام الأشهاد، وانتصر ابراهيم عليهم من خلال محاججته المنطقية والموضوعية: قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون* قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم* قال بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون* فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون*

۱- ۱ كوثا: مدينة فى العراق بالقرب من مدينة بابل الحالية، وكانت مركزاً مهماً للساميين.

۲- ۲ نقله الطبرى، الثعلبى، الكسائى، ابن ميمون، الزمخشرى، البيضاوى، ابن الأثير مع اختلاف بسيط فى التعابير والألفاظ.

۳- ۳ الأنبياء: ۵۱- ۵۶.

۴- ۴ الأنبياء: ۵۷- ۶۰.

ص: ۱۴۱

ثم نُكّسوا على رؤوسهم لقد علمتَ ما هؤلاء ينطقون (۱)

.وبهـذا فشـل القوم مع ابراهيم عليه السـلام، وزادتهم العِزةُ بالإـثم عنـاداً وعـداءً لإبراهيم عليه السـلام، وأصـروا على التخلص منه: قالوا حرِّقوه وانصـروا آلهتكم إن كنتم فـاعلين* قُلنا يا نار كونى برداً وسـلاماً على ابراهيم* وأرادوا به كيـداً فجعلناهم الأخسـرين* ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين (۲)

.من هنـا اتخـذ ابراهيم عليه السـلام خليـل الرحمن، رأيـاً محـدداً فى تقرير مصـيره، فحين نجّاه اللَّه تعـالى من النار التى أضـرمها القوم للقضـاء عليه، صـمم الرحيـل والهجرة عن الوطن إلى الأـرض المباركـة (المقدسـة) التى باركهـا اللَّه تعـالى للعالمين كما ذكرتها الآية الكريمة.

أجل إنها كانت مُقدسة، وكان فيها العابد الكاهن الموحّد للَّه‌تعالى المؤسـس لبيت المقدس (ملكى صادق) الذى بارك لإبراهيم عليه السـلام كمـا ذكر المؤرخون والبـاحثون، وذكروا أيضاً أنّ (ملكى صادق) من سـلالة كنعان، وكان محافظاً على سُـنة اللَّه القديمـة بين شعب وثنى، وقـد عُرف بالتقوى والزهد، وقيل: إنه كان يسـكن هو وقومه فى الكهوف، وكان أول من اختط (أورشـليم) القدس وبناها وكان محباً للسـلام حتى أطلق عليه «ملك السـلام» ومن هنا جاء اسم المدينـة «سالم» اى مدينة السـلام، ثم «شالم» و «شـليم» فهى اليوم «أورشليم» (۳).

هاجر ابراهيم خليل اللَّه مع زوجه سارة ولوط وعدّة من أتباعه تحفهم رعاية

۱- ۱ الأنبياء: ۶۲- ۶۵.

۲- ۲ الأنبياء: ۶۸- ۷۱.

۳- ۳ انظر العرب واليهود فى التاريخ: ۳۸۵- ۳۸۷.

ص: ۱۴۲

اللَّه ورحمته إلى مدينة (حاران) (حرّان الحالية) ومنها إلى أرض كنعان «شليم» فلسطين الحالية، ليستقر هو وأتباعه بالقرب من الرجل الصالح «ملكى صادق».

أمّ إبراهيم تخفى ولدها فى كهف بالقرب من «كوثا»

ص: ۱۴۳

وبعد فترة، أصاب المدینة قحط وغلاء، فانحدر ابراهیم علیه السلام وزوجه إلی مصر، ثم غادرها عائداً إلی «شلیم» وأقام فی حبرون مدینة الخلیل الحالیة، ثم رزقه اللّه ذکراً من الجاریة المصریة هاجر أسماه اسماعیل الذی فداه اللّه تعالی بالذبح العظیم کما ذکرنا سابقاً بعد بناء الکعبة الشریفة.

من خلال ما وصل إلینا من أخبار المؤرخین ومن بحوث المنقبین فی الآثار ومن القرآن الکریم وغیرها، لم یذکر أحدهم أنّ ابراهیم علیه السلام هاجر إلی القدس لیحج فیها، أو رجع من مصر لیؤدی مراسم الحج فی القدس، أو أنه اتخذها مکاناً للحج أو دعا للحج فیها، بل هی دار هجرته وغربته کما تذکر التوراة: «تغرب ابراهیم فی أرض الفلسطینین» (۱). وکذلک «وسکن یعقوب فی أرض غربة أبیه فی أرض کنعان» (۲).

وهذا ما قد عرفنا أنّ وطن ابراهیم الأول هو بلد وادی الرافدین أی فی العراق الحالیة، بل إنه عراقی المولد کنعانی الأصل یرجع إلی الجزیرة العربیة التی انحدر منها آباؤه وأجداده إلی بابل. والجزیرة العربیة أصبحت بعد ذلک موطن ذریته من اسماعیل بعد أن أسکنه هو وأمه فیها...

القدس فی عهد یوسف علیه السلام

ورزق اللّه ابراهیم علیه السلام فی شیخوخته ولداً آخر سمّاه (إسحاق) أسکنه وأمّه العجوز سارة فی مدینة حبرون (الخلیل الحالیة)، وآلَ أمر إسحاق علیه السلام أن یکون نبیاً ویرزق بیعقوب نبیاً، وشاء اللّه تعالی أن یرزق یعقوب أحدَ عشرَ ولداً ذکراً من زوجاته الأربع من بینهم کان یوسف الأثیر عند أبیه یعقوب یخصّه بقسط عظیم من

۱- ۱ العهد القدیم، التوراة، سفر التکوین.

۲- ۲ المصدر نفسه.

ص: ۱۴۴

محبته ویمیزه علی اخوانه، وکان یوسف علیه السلام حسن السیرة، جمیل الصورة، کثیر الأحلام الصادقة، مما جعل یعقوب علیه السلام یهتم به ویؤثره علیهم فسبب ذلک حقد اخوته علیه، ثم کان سبباً فی محنته وغُربته عن الوالد حوالی ثلاثین عاماً لکنها- المحنة والغربة- کانت خیراً وبرکة علیه وعلی الأمم القریبة من مصر وعلی مصر نفسها وعلی اورشلیم موطن غربتهم...

وذُکرت قصة یوسف علیه السلام فی القرآن الکریم بشکل مفصل وجمیل کما ذکرتها التوراة مع فارقٍ بسیط، وفی هذا الحدیث لا یهمنا من قصة یوسف وأحداثها سوی أنه عندما خرج من بیت المقدس مباعاً إلی «فاطیفور» (۱) الجندی الفرعون، ثم دخل مصر، هل رجع إلی القدس حاجاً لها؟... هذا ما ستبینه المفاجأت فی حیاة یوسف علیه السلام!

تغرب یوسف علیه السلام عن الأهل والأحبة والاخوان عدداً من السنین، وبعد معاناة طویلة صار وزیراً علی مصر کلّها، فبعث وراء أبویه وعشیرته عن طریق اخوته الذین أرسلهم أبوهم (یعقوب علیه السلام) نتیجة القحط والفقر والجدب الذی أصاب مدینة «أورشلیم» وما حولها من البلدان الا مصر بشهامة یوسف علیه السلام وعقله الناضج، حیث ادّخر المواد الغذائیة فی المخازن المصریة الفرعونیة فی أیام الوفرة لأیام القحط (۲)...

واستقر آل یعقوب «بنو اسرائیل» (۳) فی مصر الفرعونیة، حتی وفاة یعقوب علیه السلام حیث جهزه یوسف علیه السلام مع وفد من أهل بیته ورجاله فی موکب عزٍّ

۱- ۱ نقلت المصادر التاریخیة وکذلک التوراة أن الذی اشتری یوسف علیه السلام من أخوته کان هذا الجندی، راجع التوراة، العهد القدیم، سفر التکوین.

۲- ۲ راجع القرآن الکریم؛ الآیات الشریفة من سورة یوسف، والتوراة، العهد القدیم، سفر التکوین.

۳- ۳ یعقوب: هو اسرائیل وتعنی بالعربیة عبداللّه وسمّیَ ابناؤه باسمه بنو اسرائیل.

ص: ۱۴۵

وجلال ودُفن فی منطقة «بئر الحی الرائی» (۱) بالقرب من قبر أبیه إسحاق وجده ابراهیم علیه السلام، فی مدینة الخلیل الحالیة.

وبقی بنو اسرائیل فی مصر وتوفی یوسف علیه السلام، ولم یذکر التاریخ لنا أو الآثار أو التوراة أو أی کتاب سماوی أن یوسف علیه السلام خلال مدة إقامته فی مصر أنه حجّ بیت المقدس أو دعا القوم للحج إلیه، بل کلّ ما وصلنا أنّ بیت المقدس وما حولها فی عهد یوسف علیه السلام أصابها جدب وقحط وقلة فی الأمطار حتی ترکها الأغلبیة من سکانها طلباً للماء والغذاء.

یوسف علیه السلام یباع للفراعنة

۱- ۱ راجع، التوراة، العهد القدیم، سفر التکوین.

ص: ۱۴۶

إذن دخول بنى اسرائيل- بنى يعقوب- مصر وكان عام (۱۶۵۶) ق. م عن طريق يوسف عليه السلام فى عهد الملك (أبو فيس) ملك الهكسوس فى الأسرة السادسة عشرة، وكان عددهم كما ورد فى التوراة سبعين شخصاً بقيادة يعقوب عليه السلام (۱)... واستقرت هذه الأسرة حوالى (۴۰۰) عام حتى ظهر موسى عليه السلام بينهم...

هذا ما كان للقدس منذ زمن اسحاق عليه السلام حتى موسى عليه السلام فلم يحج أحدهم إليها رغم قدسيتها ومقامها عند الجميع، والقدسية شيء والأمر الإلهى شيءٌ آخر.

موسى الكليم عليه السلام والقدس

وقصة موسى عليه السلام، قصة العظات والعبر والدروس، ذكرها القرآن الكريم بكامل تفاصيلها لأهميتها، ولبيان حماقة قومه الذين كانوا مستضعفين ومضطهدين، فأنجاهم موسى عليه السلام ليسير بهم إلى الأرض المقدسة، فيسكنهم فيها، لكنهم لجوا وكفروا فباءوا بغضبٍ من اللّه إلى يوم يُبعثون.

وذكرت التوراة قصته بما يشابه ما قصّه القرآن الكريم فى ذكر عنادهم ولجاجتهم، إلّاأن التوراة حوّرت فى نهاية مطاف بنى اسرائيل مع موسى عليه السلام وأخبار الأجداد والسلف منهم فى شرعية استحلال القدس ودخولها وقتل أهلها وسلبهم وحرق ما حلى لهم من ممتلكات سكان أهلها. فقد ذكروا أنّ ابراهيم الخليل حين دخل مدينة «ملكى صادق» باركه الرب وقطع معه ميثاقاً هذا نصّه:

«لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير إلى نهر الفرات» (۲). وفى موضع آخر من التوراة نجد النص التالى: «وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض

۱- ۱ فرعون موسى، د. سيد كريم، الهلال، العدد ۵: ۷۵.

۲- ۲ العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح، الفقرة.

ص: ۱۴۷

غربتك. كلّ أرض كنعان لك ملكاً أبدياً» (۱).

ولو رجعنا إلى كليم اللّه موسى عليه السلام واستقرأنا تاريخه منذ الولادة حتى الوفاة والرحيل إلى الملكوت الأعلى لنفهم ما هى علاقته عليه السلام بالأرض المقدسة وبيت المقدس، وهل كان يزورها ويحج إليها... هذا ما ستمليه علينا النصوص الواردة فيه.

وموسى عليه السلام: هو ابن عمران بن قاهان بن لاوى بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم عليه السلام، وُلد فى مصر، وتربى فى بيت «رمسيس الثانى» (۲) الملك الفرعونى وعدو بنى اسرائيل، الذى كان يتوقع أن تلد بنو اسرائيل ذكراً يقضى على عرشه وسلطانه (۳).

كبر موسى عليه السلام فى البيت الفرعونى، وبلغ أشده، فأنعم اللّه تعالى عليه بالعلم والحكمة بالاضافة إلى ما تعلمه من علوم فى بيت مربيه، ولما بَلَغَ أشده واستوى آتيناه حُكماً وعلماً وكذلك نجزى المحسنين (۴)

.لقد أعدَّ اللّه تعالى موسى عليه السلام لرسالته ودعوته بعد محنٍ كثيرة وغُربة وهجرة وابتلاءات، اصطفاه نبياً ورسولًا، وأمره بالدعوة إلى اللّه، فسأل موسى عليه السلام من اللّه أن يشرك أخاه هارون معه فى هذه المهمة، واجابَ اللّه سؤله، وأمره أن يذهب هو

۱- ۱ المصدر نفسه، الاصحاح، الفقرة.

۲- ۲ وهذا هو فرعون موسى! نجيب فرج، اكتوبر، مجلّة الهلال لعام ۱۹۷۶: ۲۶، وفرعون موسى، د. سيد كريم، العدد ۵: ۷۳ وغيرها.

۳- ۳ كان الفرعون قد أخبرته السحرة والكهنة أن ذكراً من بنى اسرائيل يقضى على عرشه فجعل يقتل الذكور من مواليدهم، لكن موسى عليه السلام نجى، بايحاء اللّه تعالى لأم موسى فقال: «وإذ أوحينا إلى أمك ما يوحى* أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدوٌ لى وعدوٌ له» سورة طه ۲۸- ۲۹.

۴- ۴ القصص: ۱۴.

ص: ۱۴۸

وأخوه إلى فرعون مؤيدين بالآيات والمعجزات، وأمرهما أن يقصداه بالذات لأنه طغى وفسد فى الأرض (۱)، وبعد جدال ومحاججات، أيقن فرعون أنه لم يقهر موسى وأخاه، بل هم قهروه وانتصروا عليه، فضاق فرعون ذرعاً بموسى فأتمر على قتله والخلاص من دعوته، ومن قوة بيانه التى قد تؤثر فى القوم.

فجاءَ الأمر الإلهى لموسى عليه السلام بالخروج من مصر مع بنى اسرائيل المعذبين فيها، فانطلق بهم سرّاً متوجهاً إلى الأرض المقدسة... خاطب موسى عليه السلام قومه فى صحراء سيناء، مذكراً إياهم نعم اللَّه تعالى عليهم، وخروجهم من رقّ العبودية، وهدايتهم فى بعثه نبياً فيهم و... و... الخ.

رغم استمرار موسى عليه السلام فى إصلاحهم وهدايتهم، لكنهم عارضوا وعاندوا وقسوا، وغضب اللَّه عليهم مراراً ثم تابوا ثم أنعم عليهم ثم عصوا ولجّوا ثم تابوا ثم عصوا وهكذا. وكان سلوكهم مع نبى اللَّه موسى الكليم هكذا، حتى اشرفوا على حدود الأرض المقدسة، طلب موسى عليه السلام منهم الدخول فيها، بعد أن أرسل رواداً للاستطلاع على الأوضاع هناك، (وهذا دليل على أنّ موسى عليه السلام لم يدخلها قبل هذا الوقت ولم يعرف عنها شيئاً، وأنه سيدخلها لأول مرة فى حياته)، فلما رجع الرواد أخبروه أن قومها أقوياء طوال الهامات، وأن مدنها حصينة، فارتاع بنو اسرائيل ولم يمتثلوا لأمر موسى عليه السلام بمباشرة الغزو بل قالوا له: إنّ فى هذه الأرض جبابرة لا طاقة لنا بهم فلن ندخلها ما داموا فيها، فإذا خرجوا منها نلبى طلبك وندخلها، قال تعالى

وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة اللَّه عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يُؤتِ أحداً من العالمين* يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب اللَّه لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين* قالوا

۱- ۱ القرآن الكريم، الآيات ۴۲- ۴۷ من سورة طه و ۱۸- ۲۲ من سورة الشعراء.

ص: ۱۴۹

يا موسى إنّ فيها قوماً جبّارين وإنّا لن نَدخُلها حتى يَخرجوا منها فإن يخرُجُوا منها فإنّا داخلون (۱)

.هكـذا كانت نهايۀ المطاف مع موسـى عليه السـلام، نهايۀ الجهد والتعب والسـفر الطويل والعناء فى سبيل دخول الأرض المقدسۀ، أن يقول بنو اسـرائيل لموسـى عليه السـلام: لن نـدخلها أبـداً مـا داموا فيهـا فاذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ها هنا قاعـدون* قال ربّ إنّى لا أملك إلّانفسى وأخى (۲)

ثم دعـا عليهم فقـال: فـافرق بيننـا وبين القوم الفاسـقين* قـال فإنهـا محرّمـۀ عليهم أربعين سـنۀ يتيهون فى الأـرض فلا تأس على القوم الفاسقين (۳)

. فاسـتجاب اللّه تعالى دعاءه وأخبره بأنّ الأرض المقدسۀ لن يدخلوها وسـيتيهوا فى صحراء سيناء أربعين سنۀ فلا يأخذه الحزن عليهم، إنهم خارجون عن طاعۀ اللّه تعالى ..

وبعدسنين‌التيه وقبل دخول الأرض‌المقدسۀ، أمر اللّه تعالى موسى عليه السلام أن يذهب إلى جبل «نبو» وأن ينظر إلى الأرض المقدسۀ ولا يدخلها، فصعد موسى عليه السلام، ونظر إليها من‌فوق‌الجبل، وتوفى فوق الجبل، ودُفن على الفسجۀ وهو الكثيب الأحمر (۴).

يقـول البيضـاوى نقلًا عن النجـار عن المدينـۀ المقدسـۀ الـتى نظر إليهـا موسـى من الجبـل، يقـول: «إنّ المدينـۀ هى بيت المقـدس أى «أورشـليم» أو «أريحـا». ولعـل القول بأنهـا «أورشـليم» الـذى دعا أهلها لأن يسـموا أحـد أبوابها «باب حطـۀ» والقرآن لم يبين المدينـۀ، والتوراۀ لم يذكر المسألۀ أصلًا» (۵).

۱- ۱ المائدۀ: ۲۰- ۲۲.

۲- ۲ المائدۀ: ۲۴- ۲۵.

۳- ۳ المائدۀ: ۲۵- ۲۶.

۴- ۴ انظر: قصص الأنبياء، عبدالوهاب النجار: ۲۹۸.

۵- ۵ المصدر نفسه.

ص: ۱۵۰

ومما سبق لم یتبین لنا- خلال عرض حیاة موسی علیه السلام- أنّ القدس «بیت المقدس» کانت «بیت حج» موسی علیه السلام أو أنه دعا قومه أن یدخلوها لیحجوا إلیها ویطوفوا حولها، کلُّ ما فی الأمر أنهم کانوا قد استضعفوا عند الفراعنة حیث قال اللَّه تعالی عن تلک الفترة التی عاشوها فی مصر: وإذ نجّیناکم من آل فرعون یسومونکم سوء العذاب یُذبّحون أبناءَکم ویستحیون نساءَکم وفی ذلکم بلاءٌ من ربّکم عظیم (۱)

.وحین استضعفوا وظُلموا أرسل اللَّه تعالی لهم موسی علیه السلام لیخرجهم من الظلمات إلی النور، لکنهم أبوا أن یطیعوا اللَّه ورسوله، فحرمهم من الأرض المقدسة وغضب علیهم.

سلیمان یبنی الهیکل المقدس

دخل بنو اسرائیل مدینة «أورشلیم» القدس بقیادة «یوشع بن نون» سبط یوسف علیه السلام، بعد وفاة موسی وهارون علیهما السلام، وکان أول بلد احتلوه مدینة «أریحا»، وقیل: «أورشلیم»، وقد أمرهم ربّهم أن یدخلوا باب المدینة خاشعین متذللین للَّه تعالی وأن یقولوا «حطّة» أی حطّ یا رب عنّا خطایانا، ولکن هؤلاء القوم خالفوا أمر اللَّه تعالی کعادتهم- فدخلوا متکبرین، وفسقوا بدل أن یستغفروا ربهم کما دعاهم لذلک (۲). وولی یوشع أمرهم حتی وافاه الأجل فولیَ أمرهم بعده قضاة حکموا فترة من الزمن دون أن یکون لهم ملک ذو سطوة وعزّة، وکانوا عرضة لغزوات الأُمم المجاورة لهم، وکانت العادة المتبعة عندهم أنهم إذا خاضوا حرباً ضد

۱- ۱ البقرة: ۴۹.

۲- ۲ انظر الآیات الکریمة ۵۸- ۵۹ من سورة البقرة.

ص: ۱۵۱

أعدائهم جعلوا «تابوت العهد» (۱) أمامهم يستنصرون به لتقوى عزائمهم.

وكان بنو اسرائيل فى عهد القضاة فى حالة بدوية، وكانت عصبتهم تتجه نحو القبلية واستمروا كذلك حتى عام (۱۰۴۰) ق. م حين ظهر فيهم زعيم وحد شمل قبائلهم وجمعها تحت راية واحدة، وقبض بيده على زمام الحكم وكان بذلك أول ملك فى بنى اسرائيل، وقد عُرف فى التاريخ اليهودى باسم «شاول» وسمّاه القرآن الكريم «طالوت».

ظهر لطالوت عدوٌ جبار عرف باسم «جالوت» وشاع شرّه وفساده، دعا طالوت قومه للجهاد فى سبيل اللّه وحثهم على قتال أعدائهم، وخرج جالوت ووقف وسط الوادى ونادى صفوف بنى اسرائيل أن يختاروا رجلًا منهم لمبارزته وقال: إن استطاع رجلكم أن يغلبنى صرنا لكم عبيداً، وإن ظفرت أنا به وقتلته تصيرون لنا عبيداً، فارتاع بنو اسرائيل وأحجموا عن محاربته، وظل يتحداهم أربعين صباحاً ومساءً، حتى برز شاب يرعى غنمه، جاء يتفقد اخوته الذين اشتركوا مع جنود طالوت، أرسله أبوه ليخبره بحال أولاده، وكان هذا صغيرهم المسمى «داود»، حين رأى بأمّ عينيه توعدات جالوت لبنى اسرائيل وتمرجله عليهم، لم يطق داود الموقف، فقذف جالوت بحجر أخرجه من مقلاعه، فضربه على جبهته فخرَّ الجبار على أثرها على الأرض يتلوى وفى سرعة البرق الخاطف وثبَ عليه داود واستل سيفه وقطع رأسه، فبهرت بنو اسرائيل من هذا الموقف

۱- ۱ تابوت العهد: صندوق من خشب حفظ فيه موسى ألواح الشريعة التى أُنزلت عليه فى جبل سيناء، استولى عليه الفلسطينيون إثر انتصارهم فى معركة افيق، ووضعوه فى قرية «يعاريم». وقام داود من ثَمّ بنقله فى موكب رسمى إلى أورشليم حيث بنى له سليمان هيكلًا. وحفظه فى قدس الأقدس. وزال تابوت العهد أثناء حريق الهيكل عام ۵۸۷ أو ۵۸۶ ق. م على يد نبوخذ نصر، انظر معجم الحضارات السامية، هنرى س. عبودى: ۲۶۴.

ص: ۱۵۲

الجبار، وأکبرت داود وجعلته مقدماً بین رجال الحرب فی بنی اسرائیل... ثم ما لبث فترة حتی صار ملکاً علیهم.

«وتولی داود الحکم فی بنی اسرائیل، فجمع کلّ اسرائیل وذهب معهم الی «أورشلیم»... وأقام فی الحصن «حصن صهیون» لذلک دعیت «مدینة داود».

وبنی بناءً مستدیراً من القلعة... واختار القسم الشمالی... وبنی فیه مذبحاً للرب» (۱).

ثم جعل داود ابنه سلیمان ولیَّ عهده قبل أن یموت، ولمّا ولیّ سلیمان عرش الملوکیة، أتَمَّ أعمال أبیه وواصل الفتوحات ونظّمَ المملکة تنظیماً حدیثاً وشیّد الهیکل، وأوتی الحکمة، وجمع بین النبوةِ والملک، والحُکم والعدل، ودعا ربّه قائلًا:

ربِّ اغفر لی وهبْ لی ملکاً لا ینبغی لأحدٍ من بعدی إنک أنت الوهاب (۲)

فاستجاب له ربه، فقال تعالی فسخّرنا له الریح تجری بأمره رُخاءً حیث أصاب* والشیاطین کلَّ بنّاءٍ وغوّاص* وآخرین مقرّنین فی الأصفاد* هذا عطاؤنا فامنن أو أمسک بغیر حساب* وإنَّ له عندنا لزُلفی وحُسن مآب (۳)

.مَلّکَ اللَّه تعالی سلیمانَ ما یشاء من الملک، فوسع سلیمان بیت المقدس وبنی الهیکل المسمی ب «هیکل سلیمان» (۴)، ویسمی الآن موضع الهیکل القدیم (الحرم

۱- ۱ العرب والیهود فی التاریخ، د. أحمد سوسة: ۳۹۸.

۲- ۲

۳- ۳ ۲ و ۳ سورة ص: ۳۵- ۴۰.

۴- ۴ هیکل سلیمان: بناء ضخم ومحل عبادة، بلغ ارتفاعه ۱۸۰ قدماً حین بناه سلیمان علیه السلام، مرصع بالذهب، وکان الذهب یغشی أجزاء کثیرة من الهیکل، وجیءَ بمعظم مواد بنائه من فینیقیة، وکان یقوم بمعظم الأعمال الفنیة صنّاع من صیدا وصور... واستمر بناؤه والعمل فی تشییده سبع سنین، کان فیه ۱۰۰ حوض من الذهب، وکانت الحجارة الکریمة ترصع أجزاء متفرقة منه، کما کان ملکان مغطیان بصفائح الذهب یحرسان تابوت العهد، وهذا الصرح الضخم لم یبقَ منه حجر واحد، بل إن موضعه نفسه لا یعرفه أحد علی وجه التحقیق، انظر قصة الحضارة مج ۱: ج ۲: ۳۳۶ فما بعد...

ص: ۱۵۳

الشريف) وفى وسطه- فى الوقت الحاضر- مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى الى الجنوب منه.

إذن فالهيكل المعروف فى القدس كان من إنشاء نبى اللّه سليمان عليه السلام، لكن هذا الهيكل العظيم الضخم، لم يرد فيه أنّ سليمان بعد اتمامه للبناء أنه أذن فى الناس للحج فيه، أو أنه حجَّ إليه يوماً من الأيام بأمرٍ من اللّه تعالى ..

وهنا لنا أن نتساءل من أين جاء تشريع الحج لليهود والنصارى إلى الهيكل أو الى بيت المقدس واقامة الطقوس التى يمارسونها الآن فى بيت المقدس؟

زكريا ويحيى وخدمة الهيكل

زكريا عليه السلام من أنبياء بنى اسرائيل، قضى عمره الشريف فى الدعوة إلى اللّه وخدمة الهيكل المقدس فى بيت المقدس «أورشليم» وعلى هذا فهو «لاوى» لأن خدّام الهيكل «لاويّوا» النسب، أى من نسل لاوى بن يعقوب النبى عليه السلام.

كان زكريا عليه السلام قد بلغ من الكبر عتياً، وامتلأ رأسه شيباً، وامرأته عجوز عاقر غير قادرة على الإنجاب، وبلغ زكريا درجة اليأس من أن يكون له ولد يخلفه فى خدمة الهيكل المقدس والدعوة إلى اللّه تعالى لأنّ أقاربه- بنى اسرائيل- أصبحوا شِرار القوم- حسب تعبيره عليه السلام- ويخاف أن لا يقيموا أمور الدين ولا يتولوا الناس بالعدل بعد موته، لعلمه بحالهم وعدم تمسكهم بالشريعة الإلهية وخاف تحريفها، فدعا اللّه تعالى بنداء خفى يطلبُ منه الولد، وحفزه ما يراه من إكرام اللّه تعالى مريم، إنه كلما دخل عليها المحراب فيسألها يا مريم أنى لكِ هذا (۱)

تجيبهُ قائلة: هو من عند اللّه إن اللّه يرزق من يشاء بغير حساب (۲)

وحفزه ما يراه من عبادة

۱- ۱ آل عمران: ۳۷.

۲- ۲ آل عمران: ۳۷.

ص: ۱۵۴

مريم عليها السلام وخدمتها للهيكل المقدس، فطرق باب الدعاء إلى اللَّه تعالى واستجاب له ربه: فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن اللَّه يبشّرك بيحيى مصدقاً بكلمة من اللَّه وسيداً وحصوراً (۱)

.أجل... استجاب اللَّه تعالى دعاء نبيه زكريا عليه السلام خادم الهيكل والمسؤول عنه والمبشر والنذير لبنى اسرائيل المعاندين، استجاب له بولد يخلفه فى النبوة والرسالة والهداية، وأرسل إليه ملائكة تبشّره بذلك، واختار له اللَّه تعالى اسماً لم يكن أحد من قبله قد سمى بذلك الاسم: يا زكريا إنّا نبشّرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً (۲)

تعجب زكريا عليه السلام بهذه البشرى وقال: ربِّ أنّى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً قال كذلك قال ربّك هو علىَّ هينٌ وقد خلقتك من قبلُ ولم تكُ شيئاً (۳)

.وتحققت إرادة اللَّه تعالى وحملت زوجة زكريا واسمها «اليصابات»، ويقول أهل الكتاب: كان حملها فى الزمن الذى كانت مريم حاملًا فى عيسى ولا دليل على صحة هذا الادعاء عندنا فى وقت الحمل وزمنه.

لقد كان يحيى عليه السلام على أكمل أوصاف الصلاح والتقوى منذ صباه، وقد أوتى الحكمة، قال تعالى يا يحيى خذ الكتاب بقوةٍ وآتيناه الحكم صبيا (۴). وكذلك خصّه اللَّه تعالى بحنانه ورحمته لتقواه منذ الصبا، وحناناً من لدنا وزكاةً وكان تقياً (۵). هذا ما كان من حياة زكريا وعلاقته فى الهيكل المقدس، وبعد وفاة

۱- ۱ آل عمران: ۳۹.

۲- ۲ مريم: ۷.

۳- ۳ مريم: ۹.

۴- ۴ مريم: ۱۲.

۵- ۵ مريم: ۱۳.

ص: ۱۵۵

زكريا عليه السلام، وقيل قُتِلَ، حسب ما جاء فى انجيل برنابا: «أنّ عيسى قال لليهود:

ستأتى عليكم دماء الأنبياء الذين قتلتموهم إلى دم زكريا الذى قتلتموه بين الهيكل والمذبح» (۱).

فتسلم يحيى زمام الأمور بعد زكريا عليه السلام فى امور الدين والقضاء وخدمة الهيكل المقدس والصلاة والعبادة فى معبد الهيكل، وكان بارعاً فى الشريعة الموسوية- شريعة موسى عليه السلام- ومرجعاً مهماً لكلّ من يستفتى فى أحكامها...

وتذكر كتب التاريخ والتفسير أنّ فى زمن نبوةِ يحيى عليه السلام كان أحد حكام فلسطين يقال له «هيرودس» وكانت له بنت أخ تدعى «هيروديا» بارعة الجمال، عشقها عمّها وأراد الزواج منها. وكانت البنت وأمّها ترغبان فى ذلك، غير أن يحيى عليه السلام كان معارضاً لهذا الزواج؛ لأنه محرّم فى الشرائع السماوية، وكان يحيى آنذاك سيداً نبياً يُحترم كلامه، ولما عرفت أمّ الفتاة أن يحيى معارضاً لهذا الزواج، هيّأت بنتها فى كامل زينتها وأخرجتها على عمّها، ورقصت البنت أمامه، فسَرَّت قلبه، فقال لها: اطلبى ما تتمنين لأَسُرَّ قلبك، وكانت أُمّها قد لقّنتها أن تطلب منه رأس يحيى بن زكريا فى طبق، ففعلت ووفى لها عمّها وأمر بقتل يحيى فى محرابه ومحراب أبيه بين الهيكل المقدس ومذبح الرب (۲).

وبذلك صار هذا المحراب له قدسية خاصة عند أتباع زكريا ويحيى يُطافُ حوله فى مراسم حجّهم السنوى فى ذكرى يوم الغدر بهما.

ومن خلال ما تقدم لم نجد أن زكريا أذن للناس بالحج فى بيت المقدس ومحراب صلاة زكريا أو ابنه يحيى مع أنهم كانوا فى خدمة بيت المقدس من الناحية الدينية.

۱- ۱ قصص الأنبياء/ عبدالوهاب النجار: ۳۶۸. بيروت- لبنان.

۲- ۲ المصدر السابق/: ۳۶۸- ۳۶۹. وكذلك فى كتاب مع الأنبياء فى قصّة يحيى.

ص: ۱۵۶

منطقة الهیکل فی أدوارها الثلاثة من عهد سلیمان حتی العهد الاسلامی «عن کتاب» دلیل فلسطین التاریخی

روح اللّه عیسی علیه السلام والقدس

الی جذع النخلة فی الموضع الذی فیه مدینة (بیت لحم)، علی بضعة کیلومترات من بیت المقدس، جاءت بنت عمران «مریم القدیسة» لتستتر أو لتعتمد علی النخلة الیابسة، وهی فی حالة المخاض قالت فی نفسها: یا لیتنی‌متُّ قبل هذا وکنتُ نسیاً منسیاً* فناداها من تحتها ألا تحزنی قد جعل ربک تحتک سریاً* وهزی الیک بجذع النخلة تُساقط علیک رطباً جنیا* فکلی واشربی وقری عیناً (۱)

.لقد أراد اللّه تعالی أن یسکن روع مریم القدیسة العذراء، ولتعلم أن من أوجد

۱- ۱ سورة مریم: ۲۳- ۲۶.

ص: ۱۵۷

لها الرطب من النخلة اليابسة فى الشتاء، وأوجد لها الماء الجارى فى تلك الهضبة التى كانت عليها من الجبل- جبل صهيون- قادر أن يرد عنها كلّ سوء وحتى عيب العائبين، وقذف القاذفين، وسيأتى المولود الذى خلقه اللّه بكلمة «كن» على غير الطريقة العادية فى التوالد، وهذا الولد اسمه المسيح عيسى وسيجعله اللّه تعالى ذا مكانة فى الدنيا وذا جاه وشرف وعلو قدر، كما أنه فى الآخرة من الصفوة المقربين الى اللّه تعالى .. وإنه خاتم أنبياء بنى اسرائيل، ومَثَلُ خلقهِ كمثل آدم عليه السلام: إن مثل عيسى عند اللّه كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون (۱)

.وضعت مريم العذراء مولودها! وهى وجلة من القوم وبما سيرمونها من الفاحشة والفجور، لكنَّ الملك جبرئيل «الوحى» علّمها بأمرٍ من اللّه تعالى أنها إذا أتت قومها أن تقول لهم: إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً (۲)

.وجاءت قومها تحمله، سألوها يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوءٍ وما كانت أُمّك بغياً (۳)

فأشارت إلى وليدها، وتكلم بإذن اللّه تعالى قائلًا: إنّى عبد اللّه آتانى الكتاب وجعلنى نبياً* وجعلنى مباركاً أينَ ما كنتُ وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمتُ حيّاً... (۴)

.وبذلك ظهرت براءة مريم العذراء العابدة القديسة المنذورة لبيت المقدس والعاكفة على صلاتها فيه.

ومضت ثلاثون عاماً (۵) على هذه المعجزة لمريم عليها السلام أتتها المعجزة الأخرى أن

۱- ۱ آل عمران: ۵۹.

۲- ۲ مريم: ۲۶.

۳- ۳ مريم: ۲۸.

۴- ۴ مريم: ۳۰- ۳۱.

۵- ۵ بموجب روايات الإنجيل أنه بُعث نبياً وهو فى عمر الثلاثين من عمره.

ص: ۱۵۸

بُعث عیسی روح اللّه علیه السلام نبیاً ورسولًا فی بنی اسرائیل وأُنزل علیه الإنجیل، وبدأ بالدعوة إلی اللّه، ففریق صدّقوه واتبعوه حقاً، وفریقٌ کذّبوه وحاربوه، وفریقٌ ثالث انبهرت عقولهم به وبشخصه ومعجزة مجیئه إلی الدنیا من غیر أب ومن إحیائه الموتی وشفائه للأکمه والأبرص وغیرها من المعاجز التی جاء بها علیه السلام، هذا الفریق من الناس جعلوه إلهاً یُعبد أو ابناً للّهالکبیر وأنه نظیر للمعبود الأب وغیرها من الاصطلاحات التی میزووا به بقیة مخلوقات اللّه تعالی ..

أجل... أنزل اللّه تعالی علی عیسی علیه السلام الإنجیل: وقفّینا بعیسی بن مریم وآتیناه الإنجیل (۱)

. ولکن این هو الإنجیل الذی من عند اللّه والذی ذکره القرآن الکریم؟

لقد ضاع «الإنجیل الأصل» وبقیت أناجیل متعددة محرّفة کتبتها أیادی النصاری أو بکلمة أخری ألّفها تلامیذ المسیح علیه السلام من بعده بزمن طویل، وهی عبارة عن تعریف بأحوال المسیح وأعماله وأقواله وعظاته ومعجزاته وخوارق العادات التی أجراها اللّه تعالی علی یده.

أهم الأناجیل التی تعترف بها الکنیسة، أربعة هی:

۱- انجیل متی ۲- انجیل مرقس ۳- انجیل لوقا ۴- انجیل یوحنا.

«إنّ هذه الأناجیل وغیرها من الأناجیل الکثیرة، لم تکتب زمن عیسی علیه السلام بل بعد عهده بفترة، قام بعض تلامذته وتلامیذهم وتلامیذ تلامیذهم وکتبوا قصصاً کثیرة. وکلّ واحد یسمی ما کتبه «انجیلًا» حتی قیل: إنّ الأناجیل بلغت: نیفاً ومائة انجیل» (۲).

والجدیر بنا بیانه: أن هذه الأناجیل فی الظاهر لا ذکر فیها للأمر بالحج إلی بیت

۱- ۱ الحدید: ۲۷.

۲- ۲ قصص الأنبیاء، النجار: ۳۹۹.

ص: ۱۵۹

المقدس أو إلى أماكن ذكريات عيسى عليه السلام أو مسقط رأسه مثلًا، ولكنّا نرى النصارى يحجون إلى بيت المقدس والى جبل صهيون حيث مسقط رأس المسيح عليه السلام وبيت لحم.

هذا المكان فى القدس بدأ الحج إليه منذ أن بُنيت أول كنيسة هناك...

«... وبيت لحم، بعثها الامبراطور قسطنطينوس الأول الكبير، بعثها مدينة دينية وبنى فيها عام ۳۲۶ م كنيسة إلى جانب مغارة يرجح أن يكون المسيح ولد فيها، وهى لا تزال قائمة إلى اليوم، كما بنى فيها (يوستينيانوس) الأول ۵۲۶- ۵۶۵ كنيسة مزخرفة بالفيسانوس...» (۱).

وعلى هذا، فليس هناك مجال للاعتقاد بأنّ المسيح عليه السلام جعل أوامر الحجمكان مسقط رأسه الشريف، وإنما طقوس وألاعيب نسجت بعده عليه السلام.

إسراء محمد صلى الله عليه و آله إلى القدس

وبُعث محمد صلى الله عليه و آله بعد ميلاد المسيح ب (۶۱۰) أعوام؛ ليكون خاتماً لجميع الأنبياء والرسل وسيدهم، وخصه اللَّه تعالى بخصائص ومعجزات كثيرة كان منها الإسراء والمعراج.

لقد أسرىَ بالرسول الأكرم صلى الله عليه و آله من المسجد الحرام فى مكة المكرمة إلى المسجد الأقصى (۲) فى بيت المقدس، ثم عُرج به من بيت المقدس إلى السموات العُلى وقد اتفقوا على وقوع الإسراء والمعراج لوجود النصّ عليهما فى القرآن والسُنة، قال

۱- ۱ معجم الحضارات، هنرى س. عبودى: ۲۵۳.

۲- ۲ المسجد الأقصى: مكان للعبادة ولفظة مسجد مأخوذة من الفعل سَجَدَ، فالمسجد موضعالسجود، وحين أُسرى بالرسول الأكرم، لم يكن فى ذلك المكان بناء معروف بالمسجد الأقصى، وإنما سمى فى الآية الكريمة ب المسجد الأقصى لأنه مكان يُسجد فيه فى العبادة.

ص: ۱۶۰

تعالى سبحان الذى أسرى بعبده ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا... (۱)

.جاء عن القمى عن أبيه عن ابن أبى عُمير عن هُشام بن سالم عن أبى عبداللَّه عليه السلام فى تفسير هذه الآية قال: جاء جبرئيل وميكائيل وإسرافيل بالبراق لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله فأخذ واحد باللجام وواحد بالركاب وسوى الآخر عليه ثيابه، فتضعضعت البراق فلطمها جبرئيل ثم قال لها: اسكنى يا براق فما ركبك نبىّ قبله ولا يركبك بعده مثله.

قال: فرفَّت به ورفعته ارتفاعاً ليس بالكثير ومعه جبرئيل يريه الآيات من السماء والأرض. قال: فبينا أنا فى مسيرى إذ نادى منادٍ عن يمينى: يا محمد فلم أجبه ولم التفت إليه، ثم نادى منادٍ عن يسارى: يا محمد فلم أجبه ولم التفت إليه، ثم استقبلتنى امرأة كاشفة عن ذراعيها من كلّ زينة الدنيا فقالت: يا محمد انظرنى حتى اكلمك فلم التفت إليها، ثم سِرتُ فسمعتُ صوتاً أفزعنى فجاوزتُ، فنزل بى جبرئيل فقال: صلِّ فصليتُ. فقال: أتدرى أين صليتَ؟ قلتُ: لا، فقال: صليتَ بطورِ سيناء حيث كلّم اللَّه تعالى موسى عليه السلام تكليماً، ثم ركبتُ فمضينا ما شاء اللَّه ثم قال لى: انزل فصلِّ فنزلتُ وصليتُ فقال لى: أتدرى أين صليتَ؟ فقلتُ: لا، قال:

صليتَ فى بيت لحم، وبيت لحم بناحية بيت المقدس حيثُ ولد عيسى بن مريم.

ثم ركبتُ فمضينا حتى انتهينا إلى بيت المقدس، فربطتُ البراق بالحقة التى كانت الأنبياء تربط بها، فدخلتُ المسجد ومعى جبرئيل إلى جانبى، فوجدنا إبراهيم وموسى وعيسى فيمن شاء اللَّه من أنبياء اللَّه عليهم السلام فقد جمعوا إلىَّ واقيمت الصلاة ولا أَشُكُ إلّاوجبرئيل يستقدمنا، فلما استووا أخذ جبرئيل بعضدى فقدمنى وأممتهم ولا فخر.

۱- ۱ الإسراء: ۱.

ص: ۱۶۱

ثم أتانى الخازن بثلاثِ أوانٍ وإناء فيه لبن وإناء فيه خمر وإناء فيه ماء، وسمعتُ قائلًا يقول: إن أخذ الماء غرق وغرقت أُمته، وإن أخذ الخمر غوى وغويت أُمته، وإن أخذ اللبن هدى وهديت أُمتُه، قال: فأخذتُ اللبن وشربتُ منه، فقال لى جبرئيل: هديت وهديت أُمتك.

ثم قال لى: ماذا رأيت فى مسيرك؟ فقلتُ: نادانى منادٍ عن يمينى فقال: أوأجبته؟ فقلتُ: لا ولم ألتفت إليه فقال: داعى اليهود، لو أجبته لتهودت أمتك من بعدك، ثم قال ماذا رأيت؟ فقلتُ: نادانى منادٍ عن يسارى فقال لى: أوأجبته؟ فقلتُ: كلا ولم ألتفت إليه، فقال: ذاك داعى النصارى ولو أجبته لتنصرت أمتك من بعدك.

ثم قال: ماذا استقبلك؟ فقلتُ: لقيتُ امرأة كاشفة عن ذراعيها عليها من كلّ زينة الدنيا، فقالت: يا محمد انظرنى حتى أكلمك. فقال: أوكلمتها؟ فقلتُ: لم أكلمها ولم ألتفت إليها، فقال: تلك الدنيا ولو كلمتها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة (۱).

ومن بيت المقدس انتقل النبى محمد صلى الله عليه و آله إلى السماء- فكان المعراج- وهناك فُرض عليه وعلى أُمته الصلوات الخمس فى اليوم والليلة وغيرها، ثم عاد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلى مكة وجَرى ذلك كله فى ليلة واحدة (۲)...

ومن تلك الليلة قدّس المسلمون المسجد الأقصى فى بيت المقدس، وتوجهوا إليه فى صلاتهم بأمرٍ من اللَّه ثلاثة عشر عاماً وبضعة أشهر.

ولم يكن عجباً أن يتخذه المسلمون مكاناً مقدساً لهم، وأن يكون عندهم

۱- ۱ نقله القمى فى تفسيره للآية الأولى من سورة الاسراء، والطباطبائى فى الميزان، ومحمد جواد مغنية فى الكاشف، وسيد قطب فى تفسيره فى ظِلال القرآن، ونقله كُتّاب التاريخ الإسلامى باتفاق السُنة والشيعة، فراجع.

۲- ۲ المصدر السابق.

ص: ۱۶۲

بالمنزلة الثالثة بعد الحرم المكّى والمدنى من حيث القداسة والصيانة والرعاية...

فصلاة النبى فيه إماماً لأنبياء اللَّه دليلًا على أن اللَّه تعالى يورث الأرض لعباده الصالحين، ودليلًا على قدسية هذا المكان العظيم، لكن القدسية شيء والحج الذى نحن بصدده شيء آخر.

فالمسلمون يقدسون بيت المقدس، ويعتبرونه من مقدساتهم المهمة، لكنهم لم يحجوا إليه؛ لأنهم لم يؤمروا بذلك... ولم تأمر به الأديان السماوية السابقة.

والجدير بالذكر أنّ النبى محمداً صلى الله عليه و آله قيّد البراق بالصخرة المقدسة (۱) حين بلغ به الإسراء إلى بيت المقدس، وحتى يومنا هذا يُسمى الجدار الغربى للحرم القدسى بجدار البُراق (۲)، وجاء فى الروايات أيضاً أنّ النبى صلى الله عليه و آله صلى على أطلال هيكل سليمان إماماً لإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام وبقية الأنبياء...

والرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى من معجزات حبيب اللَّه محمد صلى الله عليه و آله وهى تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهم السلام، الى محمد صلى الله عليه و آله خاتم النبيين، وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعاً، وكأنما أُريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثة الرسول الخاتم لمقدسات الرُسل قبله، واشتمال رسالته على هذه المقدسات، وارتباط رسالته بها جميعاً، قال تعالى إن الأرض للَّهيورثها من يشاء من عباده (۳)

۱- ۱ الصخرة المقدسة: صخرة ذات تاريخ قديم جدّاً قدسها أهل أورشليم وتصوروا أنها نزلت منالسماء كالحجر الأسود فى الكعبة.

۲- ۲ جِدار البراق: هو الحائط الذى ربط فيه رسول اللَّه محمد صلى الله عليه و آله البُراق الدابة فى ليلة الإسراءفسمى بجدار البُراق.

۳- ۳ الأعراف: ۱۲۸.

ص: ۱۶۳

وهذه أروع رابطة وأروع علاقة بين الإسلام وبيت المقدس (محل عبادة الأنبياء)، وقد مثلها النبى الأكرم محمد صلى الله عليه و آله.

لقد احترم الإسلام بيت المقدس، فهو فعلًا بيت مقدس ومحل عبادة للَّه تعالى وفيه مقدسات الأنبياء من أولهم حتى خاتمهم صلى اللَّه تعالى عليهم جميعاً وسلم، ولكن مع هذا لم يجعله لحظة واحدة مركزاً للحج ولا أخبر نبيه الكريم أنه أمر أحداً من الأنبياء بالحج إليه، بل الاتجاه المأمور به منذ خلق البشرية إلى نهاية الأرض، بالحج إلى مكة المكرمة حيث بيت اللَّه العتيق، فالإذن إليه لا لغيره.

الصخرة المشرفة، منها عرج رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلى السماء

ص: ۱۶۴

سبحان الذى أسرى بعبده من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى

المسجد الأقصى حاليا

الكعبة لا القدس مركزاً لحج الأنبياء

من كلّ ذلك، ومن خلال ما أوردناه من حياة الأنبياء، لم نقرأ أنهم حجوا بيت المقدس، كما قد يتبادر إلى الذهن من خلال اسم البيت وقدسيته، ووجود الأنبياء

ص: ۱۶۵

فيه وممارستهم بعض شعائرهم... وعباداتهم و... و...

لكن البيت الحقيقى الذى حجّه الأنبياء ومارسوا فيه شعائر اللَّه تعالى هو بيت اللَّه العتيق والكعبة الشريفة، كما وردت فى الروايات عن النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله وعن آله الأطهار أنه أول بيت وضع للحج، وهو أول بيت للَّهعُبد اللَّه تعالى فيه، وهو أول بيت أسست شعائر الحج فيه، إلّاأنّ المنحرفين عن الجادة المستقيمة، اتّخذوا أماكن حج وشعائر حج على غرار الحج لبيت اللَّه.

وكما أنّ لبيت اللَّه الأولوية فى كلّ شىء، فإنه أعظم بيت وضع على الأرض، فقد قال الأزرقى: حدثنى جدى عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال:

«أخبرنى ابن جريج، قال: بلغنا أنّ اليهود قالت: بيت المقدس أعظم من الكعبة؛ لأنه مهاجر الأنبياء، ولأنه فى الأرض المقدسة، وقال المسلمون: الكعبة أعظم، فبلغ ذلك النبىّ محمداً صلى الله عليه و آله فنزل: إنّ أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً حتى بلغ فيه آيات بينات مقام ابراهيم وليس ذلك فى بيت المقدس، ومن دخله كان آمناً وليس ذلك فى بيت المقدس» (۱).

وبيت المقدس بيت مُقدّس واقعاً، وبيت عُبد فيه اللَّه، وكلّ بيت يُعبد فيه اللَّه فهو مسجد، وكلُّ مسجد هو بيت اللَّه، لكن الكعبة شىء آخر، ولها شأنٌ آخر، فقد قال اللَّه تعالى لآدم عليه السلام: «سأجعلُ فيها (۲) بيوتاً ترفع لذكرى، ويسبحنى فيها خلقى، وسأبوئك فيها بيتاً أختاره لنفسى، وأختصّه بكرامتى، وأوثره على بيوت الأرض كلّها باسمى، فأسميه بيتى، وأنطقه بعظمتى، وأجوزه بحرماتى، وأجعله أحقّ بيوت الأرض كلّها وأولاها بذكرى، وأضعه فى البقعة التى اخترتُ لنفسى، فإنى اخترتُ مكانه يوم خلقت السموات والأرض... ومن عظّم شأنه عظم فى عينى، ومن

۱- ۱ أخبار مكة، الأزرقى ۱: ۷۵.

۲- ۲ أى فى الأرض.

ص: ۱۶۶

تهاون به صغر فی عینی، ولکلّ ملک حیازة ما حوالیه، وبطن مکة خیرتی وحیازتی وجیران بیتی وعمارها وزوّارها... فأجعله أول بیت وضع للناس... الخ» (۱).

۱- ۱. أخبار مکة، الأزرقی ۱: ۴۶- ۴۷، منشورات الشریف الرضی.

ص: ۱۶۷

ص: ۱۶۸

ص: ۱۶۹

الفصل السابع: الحج فى الإسلام

مقدمة

اشارة

مسيرة الحج على أشكاله المتنوعة طويلة بطول الأُمم والحضارات والأديان، ابتدأت بظهور آدم عليه السلام على وجه الأرض، ثم الأُمم القديمة البائدة والحضارات كالحضارة الفرعونية القديمة والبابلية والفارسية وغيرها وانتهت إلى الحضارات والأديان والامم الموجودة الآن كالمسيحية واليهودية والإسلام على ما بينها من تفاوت... تفاوت فى طبيعته وشروطه وأشكاله وأعماله وتفاصيله المختلفة كما مرَّ علينا من خلال الفصول السابقة...

وقمة نضوج الحج هو تلاؤمه مع مختلف الظروف الحالية والمستقبلية مع الإسلام، فالحج فى هذه الديانة السماوية الإلهية، هو فى الحقيقة خاتم أشكال الحج، كما دين الإسلام خاتم الأديان، ومحمد صلى الله عليه و آله خاتم الرسل والأنبياء، وانسجامه مع مختلف الظروف مكاناً وزماناً، هو فى الحقيقة قمة نضوجه... ونضوجه من نضوج الإسلام، وكماله من كمال الإسلام.

ومن هنا تميز الحج فى الإسلام عن كلّ أنواع الحج فى الأُمم والحضارات والديانات الأخرى تميز بفرادته وهدفه السامى الصافى من كلّ شائبة. ولذلك

ص: ۱۷۰

جاء هـذه المرة صورة كاملـة متكاملـة موزعـة بين عدة أركان وفروع وملحقات وممارسات... ضـمن إطار كبير اسـمه (الحج الأكبر أو حجة الإسلام).

إذن الحج الإسـلامى، هو حالة كاملة متكاملة بمعنى الكلمة، لا يمكن الوصول الى هدفها، إلّاإذا تفاعل فيها عقل وقلب الإنسان ليكون أعمالًا ماديـة جسدية مزيجة بالروح والإيمان وبعلاقة من خارج الطبيعة، وهذه هى معنى الفرادة، وهذا هو معنى أبدية الحج الإسـلامى واستمراره فى الزمان والمكان، فهو فريضة تتماشى والفطرة الإنسانية السليمة وإلّا لا معنى لاستمراريته وشموله وخلوده.

ويقع الحج فى الإسـلام موقعاً ممتازاً، يقع فى قمة الأجزاء الأساسـية فى هذا الدين الحنيف، فحين قسّم الإسلام أجزاء الدين إلى اصول وفروع... وهى اساسـيات الـدين الإسـلامى... كـان الحـج أحـد هـذه الفروع وهى الصوم والصـلاة والزكـاة وغيرها، ومن مجموع هـذه الاصول والفروع يتشـكل أساس الإسـلام، فهى أعمدة كبرى قام عليها الإسـلام، فالحج جزء أساس من الإسـلام، جزء ضمن أجزاء إذا سقط أحدها تداعت له سائر الأجزاء ولم يكن إسلاماً أبداً...

ولكلّ جزء منزلـة محـددة ووظيفة محددة تختلف عن سائر الوظائف الأخرى .. ولكل فريضة منزلة خاصة تختلف وظيفتها عن وظائف الأخرى ..

ويقف الحج بمنزلة شامخة بين المنزلات، بسبب عموميته وفوائده الاجتماعية العريضة، فالحج فى الإسلام، دعوة عبادية عامة ومصالحة بين عـدد من الشـعوب؛ لـذلك جعـل اللَّه فيه ثواباً كبيراً وعظيمـاً فإذا أدّاه الفرد كما ينبغى، كان كيوم ولـدته أمه، طاهراً كأن لم يأتِ بذنب، وجعل اللَّه تعالى للحاج منزلة كبيرة يوم القيامة.

ويمكن أن يعرف المسـلم، بل وحتى غير المسـلم قيمة الحج، حين يرى أو يسـمع بذلك الجمع الغفير من الناس المتجه إلى اللَّه تعالى بنية العبادة والإخلاص للَّهالواحد الأحد فى وقت واحد بمنطقٍ واحدٍ بلباسٍ واحدٍ بموقفٍ واحدٍ ب... ب... الخ، حقاً

ص: ۱۷۱

إنها فريضة ذات منزلة كبيرة لا يعرف قيمتها الحقيقية إلّاالذى يؤديها ويمارسها على أكمل وجهها...

والحج فى الإسلام، منسك مهم وشعار عظيم لاستمرار الدين وإقامته، فقد جاء فى الحديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة» (۱).

اذن فقيام الدين واستمراره بإقامة وديمومة فريضة الحج، حتى جاء فى الحديث عنه عليه السلام أيضاً: «لو عطّل الناس الحج لوجب على الإمام أن يُجبرهم على الحج، إن شاؤوا وإن أبوا، فإنّ هذا البيت إنما وُضِع للحج» (۲).

اذن، فتعظيم الكعبة وإقامة الشعائر، هو الغرض الأسنى والهدف الأسمى من العبادة، وهو أعلى درجات العبادة عندما يؤدّى بشروطه الصحيحة.

والحج بعد هذا «من بين أركان الإسلام ومبانيه، عبادة العمر، وختام الأمر، وتمام الإسلام، وكمال الدين فيه... قال النبى صلى الله عليه و آله: من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً» (۳) هذا لمن استطاع إليه سبيلًا ولم يؤده...

والحج فى الإسلام، ليس بدعة، ولا خيالًا، أو اختلاقاً، أو ابتكاراً أو هوًى أو إرادة شخص معين من البشر، بل هو شريعة السماء وسُنة الأنبياء، التى سنّها إله الكون لأبناء آدم عليه السلام لغفران ذنوبهم وتوحيد صفوفهم و... و... الخ، وبيّن اللَّه تعالى اسمه وأصوله ومناسكه وشعائره ولم يُدخل المسلمون عليه شيئاً إلّاما سنه اللَّه تعالى لهم.

وللحج فى الإسلام فلسفة خاصة وطعم خاص، ومن فلسفته أن جعله اللَّه

۱- ۱ وسائل الشيعة ۲: ۳۷.

۲- ۲ المصدر السابق ۸: ۱۵.

۳- ۳ المحجة البيضاء ج ۲، كتاب الحج: ۱۴۵، الطبعة البيروتية.

ص: ۱۷۲

تعالى مؤتمراً عالمياً سنوياً يلتقى فيه المسلمون، يتداولون مشاكلهم وهمومهم، فهو رحمة ونفع للناس فى الدنيا والآخرة. قال تعالى ليشهدوا منافع لهم (۱)

حجُّ الحبيب محمد صلى الله عليه و آله

النبى محمد صلى الله عليه و آله، نموذج فريد من البشر فى كلّ شىء، حتى وصف اللَّه تعالى خلقه بالعظمة، فقال: إنك لعلى خُلقٌ عظيم (۲)

، فهو نموذج فى كلّ شىء، فى سلوكه وأعماله وأفعاله وممارساته، كيف لا، وهو الذى أوصل صدى الإسلام كلّ العالم؟ كيف لا، وهو الذى أنقذ الناس من الجهل المطبق إلى نور الحياة والحضارة... بخلقه العالى وسلوكه الهادئ وصبره الجميل وقلبه الواسع الكبير؟! وقد مارس كلّ شعائر اللَّه تعالى أحسن ممارسة وجسّدها أعظم تجسيد، حتى أصبح حبيباً للَّه، ويا لَه من شرف عظيم أن يصبح الإنسان الذى هو من مخلوقات اللَّه حبيباً لخالقه..! أجل، أحبه اللَّه تعالى وأحب أُمته حتى قال فيهم: كنتم خير أمةٍ أُخرجت للناس (۳)

.وقد أدى صلى الله عليه و آله الحج إلى الكعبة الشريفة كغيره من الأنبياء، وكان نموذجاً فى ذلك، فهو الصورة الرائعة للحج والنموذج الذى سار المسلمون على منواله...

وقد فرض اللَّه تعالى لحبيبه صلى الله عليه و آله الحج وشرعه له فى السنة السادسة للهجرة، وقيل: إنه اعتمر فى السنوات الأربع حتى أمره اللَّه تعالى وأنزل الآية الكريمة:

۱- ۱ الحج: ۲۸.

۲- ۲ القلم: ۴.

۳- ۳ آل عمران: ۱۱۰.

ص: ۱۷۳

وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالًا وعلى كلّ ضامرٍ يأتين من كلّ فجٍّ عميق (۱)

.وكان هـذا الأذان فى السـنة العاشـرة للهجرة، فقـد جاء فى الطبقات الكبرى لابن سـعد، روايـة أنس بن مالك ومجاهـد: «كانت حجة الرسول صلى الله عليه و آله فى ذى الحجة سنة (۱۰ ه) هى حجته الوحيدة عقب هجرته صلى الله عليه و آله إلى المدينة المنورة» (۲).

وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أقام بالمدينة عشر سنين لم يحجّ، ثم أنزل اللَّه تعالى عليه: وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالًا وعلى كلّ ضامر... (۳)

فأمر المؤذنين أن يؤذنوا بأعلى أصواتِهم بأنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يحجُّ من عامه هذا، فعلم به من حضر المدينة وأهل العوالى والأعراب، فاجتمعوا، فحـجَّ رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله، وإنما كانوا تابعين ينتظرون ما يؤمرون به فيتبعونه، أو يضع شـيئاً فيضـعونه: فخرج رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى أربع بقين من ذى القعدة... الخ» (۴).

وقـد بيّن اللَّه تعالى لحبيبه محمد صـلى الله عليه و آله شـعائر الحج ومراسـمه فى آيات عديدة من القرآن الكريم، حتى بلغت أكثر من أربع وثلاثين آية، وأنزل سورة خاصة ب (الحج) تكريماً لهذ الركن الإسـلامى الأساسـى، وعبر عنه- عن الحج- وعن مراسمه أنها من شعائر اللَّه ومن يعظم شعائر اللَّه فإنها من تقوى القلوب (۵)

وأطلق على هذه الشعيرة السماوية ب (يوم الحج الأكبر)، وقال جلّ اسمه: وأذان من اللَّه ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر (۶)

۱- ۱ الحج: ۲۷.

۲- ۲ الطبقات الكبرى، ابن سعد ۲: ۱۸۹، وابن حزم، حجة الوداع: ۱۳۷.

۳- ۳ الحج: ۲۷.

۴- ۴ وسائل الشيعة ۸: ۱۵۰.

۵- ۵ الحج: ۳۲.

۶- ۶ التوبة: ۳.

ص: ۱۷۴

وكان الرسول صلى الله عليه و آله فى مكة قبل هذا الأذان وقبل بعثته وبعدها يحج البيت ويختلف فى أدائه عمّن كانوا يحجون إليه من الجاهلية والحنيفية والصابئة وغيرهم، وقد ذكرت ذلك أغلب كتب التاريخ والتفسير.

وقد «سُئل الإمام الصادق عليه السلام، أحجَّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله غير حجة الوداع؟ قال:

نعم عشرين حجة» (۱).

وعنه عليه السلام أيضاً قال: «حجَّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله عشرين حجّة» (۲).

وكذلك قال أيضاً: «لم يحجّ النبى صلى الله عليه و آله بعد قدومه المدينة إلّاواحدة، وقد حجَّ بمكة مع قومه حجّات» (۳).

اقتداء المسلمين بسُنة نبيهم

الحج عند المسلمين، غير الحج فى الأديان الأخرى وبقية الأمم والحضارات، فهو الوحيد الذى بقى صافياً خالصاً، كما بدأ أول مرّة.

فكلّ أشكال الحج وأنواعه فى غير الإسلام قابلة للتغيير والتبديل ومعرضة لآفة التحريف فى أى زمان ومكان، لا ـ تشمله الثبوتية والخلودية، والسبب هو فى عدم كونه ركناً أساسياً من أركان أديانهم المتعددة هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى عدم رجوعه إلى معصوم منزّه من الخطأ، بل هو من صنع بشر عاديين معرضين للخطأ والنسيان والغفلة والذنوب والنزعات الذاتية...

أما الحج عند المسلمين، فهو التزام واجب وأمرٌ مفروض من ربّ العزّة والجبروت، فرضه الإسلام على المسلمين، فاتبعوا وأطاعوا وعلموا والتزموا بما

۱- ۱ الكافى ۴: ۲۵۱، والوسائل ۱۱: ۱۲۵.

۲- ۲ المصدر السابق: ۲۴۵، والوسائل: ۱۲۶.

۳- ۳ المصدر السابق: ۲۴۴، والوسائل: ۱۲۴.

ص: ۱۷۵

قال نبیهم محمد صلی الله علیه و آله، وبما فعل وقرر، وعلموا أنه: وما ینطق عن الهوی* إن هو إلّا وحیٌ یوحی (۱)

.فحینما أذّن رسول اللّه صلی الله علیه و آله فی الناس بالحج: «... واجتمعوا لحجِّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله وإنّما کانوا تابعین ینظرون ما یؤمرون ویتبعونه أو یصنع شیئاً فیصنعونه، فخرج رسول اللّه صلی الله علیه و آله فی أربع بقین من ذی القعدة» (۲).

هکذا بدأ الحج عند المسلمین، اتباع سُنِنهِ حبیب اللّه محمد صلی الله علیه و آله. وهذا سرُّ خلوده وديمومته، فهو کان ومازال صادقاً صافیاً، لا تحریف ولا غلو فیه... وهو فرضٌ واجب لمن استطاع إلیه سبیلًا، ومن استطاع ولم یحج حجة الإسلام فهو لیس بمسلم، فقد جاء فی الحدیث عن الرسول صلی الله علیه و آله وآله الأطهار: «من مات ولم یحج حجّة الإسلام، ولم یمنعه من ذلک حاجة تجحف به، أو مرض لا یطیق معه الحج، أو سلطان یمنعه، فلیمت یهودیاً أو نصرانیاً» (۳).

الاستطاعة للحج

الحج فی الإسلام فرعٌ من فروع الدین ورکن أساس وفرض واجب أوجبه اللّه تعالی علی عباده بشروط خاصة، فمن توافرت فیه الشروط، وجب علیه الحج، ومن وجب علیه الحج ولم یحج فقد کفر، للنص الموجود فی القرآن الکریم: وللّه علی الناس حِجُّ البیت من استطاع إلیه سبیلًا ومن کفر فإنَّ اللّه غنیٌّ عن العالمین (۴)

۱- ۱ النجم: ۳- ۴.

۲- ۲ الکافی ۴: ۲۴۵، والتهذیب ۵: ۴۵۴، والوسائل ۱۱: ۲۱۳.

۳- ۳ الکافی ۴: ۲۶۸، ومثله فی تفسیر ابن کثیر: ۳۸۶.

۴- ۴ آل عمران: ۹۷.

ص: ۱۷۶

أما الاستطاعة المذكورة فی الآية الكريمة فهی:

۱- البلوغ: ويعنی سنّ التكليف الشرعی وهی ۹ سنوات أو ۱۳ سنة علی رأی للأنثی و ۱۵ للذكر.

۲- العقل: أی لا تجب علی المجنون وفاقد الذاكرة وما شابه ذلك.

۳- الحرية: أی أن لا يكون عبداً مملوكاً.

۴- الزاد: والمراد به قدر الكفاية من القوت والشرب، ذهاباً وإياباً.

۵- الراحلة: وهی الوسيلة التی توصله إلی مكة، ذهاباً وإياباً.

۶- التمكّن من السير: أی عدم المرض المانع للسير، وأمان الطريق، وعدم منع الحاكم له (۱).

وشروط صحة حج الإسلام... فمن كان غير مسلم لا يصح منه الحج ولا يجب عليه... إلّاأن يسلم.

«يجب الحج علی المستطيع من الرجال والنساء والخناثی علی الفور، وشرط وجوبه البلوغ والعقل والحرية والزاد والراحلة والتمكّن من السير، وشرط صحته الإسلام» (۲).

ويجب الحج كذلك بأسباب أخری كالنذر والعهد واليمين والنيابة والاستئجار والإفساد (۳). وبتفصيل أكثر نذكر حجّ الأسباب فهی:

۱- النذر: وهو أن توجب علی نفسك ما ليس بواجب لحدوث أمرٍ، يُقال نذرت للّه أمراً (۴).

۱- ۱ شرائع الإسلام، المحقق الحلی: ۲۲۴- ۲۲۹.

۲- ۲ اللمعة الدمشقية، العاملی: ۱۵۹.

۳- ۳ انظر المصدر السابق.

۴- ۴ المفردات فی غريب القرآن، الأصفهانی: ۴۸۷.

ص: ۱۷۷

۲- العهد: وسُمِّيَ المَوْثِق الذى يَلزَمُ مُراعاتُه عهداً قال تعالى وأوفوا بالعهد إنّ العهدَ كان مسئولا (۱)

.۳- اليمين: وهو الحَلِف مُستعارٌ من اليد اعتباراً بما يفعله المعاهِدُ والُمحالف (۲) وغيره وهو أن يُقسم باللَّه أن يؤدى الحج للَّه.

۴- النيابة: وهو أن يؤدى شخص الحج عن شخص آخر فى شروط خاصة.

۵- الاستئجار: وهو إعطاء بدل مالى مقابل الحج نيابةً عن شخص آخر.

۶- الإفساد: وهو بطلان الحج بترك ركن من أركان الحج أو غير ذلك.

والحج الذى وجب على المكلف بالنذر وغيره مما ذكرناه، لا يجزئ عن حجة الإسلام، فواجبه وفرضه يبقى عليه، وإذا قُيد النذر وغيره فى سنة معينة وحصلت الاستطاعة ل (حجة الإسلام) فى تلك السنة، يُقدم النذر وغيره على حجة الإسلام وتبقى الاستطاعة إلى السنة الثانية.

والسبب فى تقديم النذر و غيره على حجةالإسلام، لأنّ النذر أصبح مانعاً شرعياً، و بما أنّ المانع الشرعى لا فرق بينه وبين المانع العقلى، فقد حجب حجة الإسلام فى سنة النذر؛ لذلك تؤجل حجة الإسلام إلى سنة أخرى مع بقاء الاستطاعة (۳).

أنواع الحج فى الإسلام

الحج لكلّ المسلمين، فريضة أوجبها اللَّه تعالى عليهم، وفى الوقت نفسه راعى عباده فى ممارسته وبعض شعائره، فنوّعه عليهم، مراعاة القرب والبعد من الكعبة... فالذين جاوروا الكعبة لهم نوع معين من الحج، والذى يبعد عنها له نوع

۱- ۱ المصدر السابق: ۳۵۰.

۲- ۲ المفردات: ۵۵۲.

۳- ۳ اللمعة الدمشقية، باب الحج: ۱۶۴.

ص: ۱۷۸

آخر... وهكذا...

هناك ثلاثة أنواع للحج فى الإسلام، ولكنها تقع ضمن إطار واحد، فالحج واحد فى أصله، ومكانه، وزمانه إلّابعض ممارساته التى تتبع الجغرافية فقط، وهو ليس اختلافاً فى الأصل ولا فى الطبيعة الواحدة كما قد يتبادر إلى الذهن، وإنما هو اختلاف يتعلق بمكان القاصد للحج (أى بُعد منزله عن الكعبة) لا أكثر ولا أقل، وعلى هذا فسندخل فى بيان أنواع الحج فى الإسلام وهى:

۱- حج الأفراد.

۲- حج القران.

۳- حج التمتع.

۱ - ۲- حجُّ الإفراد والقران يجبان على أهل مكة، أو من يبعد عنها ستة عشر فرسخاً أى حوالى (۸۶) كم، ويجب فى حج الإفراد والقران تقديم الحج على العُمرة.

وسمى (حجُّ قران) لأنَّ الحاج معه الهدى، وينفرد القران بالتخيير فى عقد إحرامه بين الهدى والتلبية، واما الإفراد فبهما معاً (۱).

وصورة الإفراد: أن يحرم من الميقات أو من دويرة أهله إن كان منزله دون الميقات، ثم يمضى إلى عرفات فيقف بها، ثم يمضى إلى المشعر فيقف به، ثم إلى مِنى فيقضى مناسكه بها، ثم يطوف بالبيت ويصلى ركعتيه، ويسعى بين الصفا والمروة، ويطوف طواف النساء ويصلى ركعتيه، وعليه عُمرة مفردة بعد الحج والإحلال منه، ويأتى من أدنى الحِل. ويجوز وقوعها فى غير أشهر الحج وشروطه النية (۲).

أما القارن (حج القرآن) فأفعاله وشروطه كالمُفرد، غير أنه يتميز عنه بسياق

۱- ۱ انظر اللمعة الدمشقية، باب الحج ۱: ۱۷۲، وشرائع الإسلام، باب الحج ج ۱.

۲- ۲ شرائع الإسلام: ۲۳۸- ۲۳۹.

ص: ۱۷۹

الهدى عند إحرامه. ويجوز للمفرد إدا دخل مكة أن يعدل بنيته إلى التمتع ولا يجوز ذلك للقارن.

۳- حج التمتع: وهو فرض من نأى منزله عن مكة أى على ما يزيد بُعده عنها أكثر من (۸۶) كم. ويجب فى هذا الحج تقديم العُمرة على الحج.

وسمى بحج التمتع لأن الحاج يتمتع بفترة تحلل، بين العُمرةِ والحج يُباح له فيها ما يحرم على المحرم. ويتكون هذا الحج من عبادتين واجبتين هما (۱):

أ- عُمرة التمتع.

ب- حجّ التمتع.

وصورة (حج التمتع): أن يُحرم من الميقات بالعُمرة المتمتع بها، ثم يدخل بها مكة. فيطوف سبعاً بالبيت، ويصلى ركعتيه بالمقام (۲)، ثم يسعى بين الصفا والمروة سبعاً... ويُقصر.

ثم يُنشئ إحراماً آخر للحج من مكة يوم التروية على الأفضل، وإلّا بقدر ما يعلم أنه يدرك الوقوف بالمشعر الحرام، ثم يأتى عرفات فيقف بها إلى الغروب، ثم يفيض إلى المشعر فيقف به بعد طلوع الفجر، ثم يفيض إلى مِنى فيحلق بها يوم النحر، ويذبح هديه، ويرمى جمرة العقبة... (۳) وحج التمتع أفضل الحج كما سيأتى تفصيله إن شاء اللّه ونذكر قول الإمام الصادق عليه السلام هنا: «قال: الحج ثلاثة أصناف:

حج مفرد، وقِران، وتمتع بالعُمرة إلى الحج، وبها أمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله والفضل فيها ولا نأمر الناس إلّابها» (۴).

۱- ۱ انظر اللمعة الدمشقية، باب الحج، أنواع الحج، حج التمتع.

۲- ۲ المقصود به مقام إبراهيم عليه السلام.

۳- ۳ شرائع الإسلام، المحقق الحلى، باب الحج: ۲۳۶.

۴- ۴ وسائل الشيعة ۲: ۱۴۸.

ص: ۱۸۰

وقال الفيض الكاشانى: «والتمتع فرض من نأى عن مكة بثمانية وأربعين ميلًا، وليس لهؤلاء غير التمتع عند أصحابنا لنصّ القرآن والصحاح المستفيضة عن أهل البيت عليهم السلام إلّامع الاضطرار كضيق أو طرء الحيض ونحو ذلك. والآخران فرض أهل مكة ومن بينه وبينها دون المسافة المذكورة على التخير بينهما، ولا يجوز لهم العدول إلى التمتع على الأصح إلّامع الاضطرار، فالمتطوع يتخير بين الأنواع الثلاثة، إلّاأنّ الأفضل له التمتع، وكذا الناذر إذا لم يعيّن أحدها، وكذا من له منزلان بمكة وغيرها يتساويان فى إقامته فيهما، فإن غلب أحدهما عليه لزمه فرضه، ومن أقام بمكة سنتين فهو من أهل مكة لا متعةَ له» (۱).

أفضل الحج

كثرت الأحاديث والروايات والأخبار عن أفضل الحج، نذكر منها ما جاء عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام:

«أفضل الحج التمتع بالعُمرة إلى الحج، وهو الذى نزل به القرآن الكريم، وقام بفضله رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، وكان قد ساق الهدى فى حجة الوداع، فلما انتهى إلى مكة وطاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة نزل عليه ما نزل عليه، فقال: لو استقبلتُ من أمرى ما استدبرتُ لم أسق الهدى ولجعلتها متعةً، فمن لم يكن معه هدى فليحل، فحلَّ الناس وجعلوها عمرةً إلّامن كان معه هدى، ثم أحرموا للحج من المسجد الحرام يوم التروية، فهذا وجه التمتع بالعُمرة إلى الحج لمن لم يكن من أهل الحرم كما قال اللَّه تعالى لأن أهل الحرم يقدرون على العمرة متى أحبّوا، وإنما وسّع اللَّه عزّوجلّ فى ذلك لمن أتى من أهل البلدان، فجعل لهم فى سفرةٍ واحدةٍ حجةً وعمرةً

۱- ۱ المحجة البيضاء، الفيض الكاشانى ج ۲، باب الحج: ۱۶۲.

ص: ۱۸۱

رحمةً من اللَّه لخلقه ومنّاً عليهم وإحساناً إليهم» (۱).

وسُئِلَ عليه السلام عن اختلاف الناس فى الحج فبعضهم يقول: خرج رسول اللَّه صلى الله عليه و آله مُهلًا بالحج، وقال بعضهم: مُهلًا بالعُمرة، وقال بعضهم: خرج قارناً، وقال بعضهم: خرج ينتظر أمر اللَّه عزّوجل...

فقال أبو عبداللَّه (الصادق) عليه السلام عَلِمَ اللَّه عزّوجلّ أنها حجة لا يحج رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بعدها أبداً، فجمع اللَّه عزّوجلّ له ذلك كلّه فى سفرة واحدة؛ ليكون جميع ذلك سُنّة لأمّته.

فلما طاف بالبيت وبالصفا والمروة أمره جبرئيل عليه السلام أن يجعلها عُمرة إلّامن كان معه هدى، فهو محبوس على هديه، ولا يحلّ لقوله عزّوجل: حتى يبلغ الهدى محله (۲)

فجمعت له العُمرة والحجّ.

وكان قد خرج على خروج العرب الأول؛ لأنّ العرب كانت لا تعرف إلّاالحج وهو فى ذلك ينتظر أمر اللَّه عزّوجل، وهو يقول: الناس على أمر جاهليتهم إلّاما غيّره الإسلام، وكانوا لا يرون العُمرة فى أشهر الحج، فشقّ على أصحابه حين، قال: اجعلوها عمرة؛ لأنهم كانوا لا يعرفون العُمرة فى أشهر الحج (۳).

أفعال الحج فى الإسلام

وللحج فى الإسلام أفعال خاصة وشعائر معينة، علّمها ربّ العزّةِ والجبروت لعباده المؤمنين به، الطائعين له عن طريق حبيبه خاتم الأنبياء... وأفعال الحج عند المسلمين وعلى جميع المذاهب هى كالآتى:

۱- ۱ البحار ۹۹: ۱۳۸، ودعائم الإسلام ۱: ۳۰۰.

۲- ۲ البقرة: ۱۹۶.

۳- ۳ علل الشرائع: ۴۱۴.

ص: ۱۸۲

يُحرِم الحاج البعيد عن مكة من الميقات الذى مرّ به، أو بما يحاذيه، ويشرع بالتلبية، لا فرق فى ذلك بين معتمر بعمرة مفردة، أو متمتع، أو مفرد، أو قارن، أما أهل الحرم فيحرمون من منازلهم.

فإذا رأى الحاج البيت الحرام كبّر وهلل- استحباباً-.

وإذا دخل مكة اغتسل- استحباباً أيضاً-.

ثم يدخل البيت، ويستلم الحجر الأسود، ويقبله إن استطاع، وإلّا أشار إليه بيده، ويطوف طواف القدوم- استحباباً- إن كان مفرداً، أو قارناً، ثم يصلى ركعتى الطواف، ثم يستلم الحجر، إن استطاع، ويخرج من البيت، ثم يقيم بمكة باقياً على إحرامه، فإذا جاء يوم التروية، وهو اليوم الثامن من ذى الحجة خرج إلى عرفة، وإن شاء خرج قبله بيوم.

وإن كان معتمراً بعمرة مفردة، أو حاجاً حج التمتع طاف- وجوباً- وصلّى ركعتى الطواف، ثم سعى بين الصفا والمروة، ثم حلق أو قصّر.

ويتحلل حينئذٍ من إحرامه ويُباح له كلّ شىء حتى النساء.

ثم ينشئ المتمتع إحراماً آخر من مكة فى وقت يمكنه فيه أن يدرك الوقوف بعرفة حين الزوال من اليوم التاسع من ذى الحجة، والأفضل الإحرام يوم التروية، وأن يكون تحت الميزاب.

ويتجه الحاج متمتعاً كان أو قارناً أو مفرداً إلى عرفة ماراً بمنى ويبدأ وقت الوقوف بعرفة من زوال اليوم التاسع حتى فجر اليوم العاشر عند الحنفية والشافعية والمالكية.

ومن زوال التاسع إلى غروب شمسه عند الإمامية وللمضطر إلى فجر اليوم العاشر. ومن فجر التاسع إلى فجر العاشر عند الحنابلة.

ويدعو الحاج بعرفة، ويلح بالدعاء والبكاء حين الدعاء- استحباباً- ثم يتجه

ص: ۱۸۳

الی المزدلفة یصلی فیها صلاة المغرب والعشاء لیلة العید جامعاً بینهما- استحباباً- باتفاق جمیع المذاهب الإسلامیة.

ویجب علی الحاج المبیت فی هذه اللیلة بالمزدلفة عند الحنفیة والشافعیة والحنابلة ولا یجب عند الإمامیة والمالکیة، ولکنه الأفضل، وفیها یجب الوقوف بالمشعر الحرام بعد طلوع الفجر عند الإمامیة والحنفیة، ومن المزدلفة یأخذ الحاج سبعین حصاة- استحباباً- لیرمی الجمرات فی منی.

ثم یتجه الحاج إلی منی قبل طلوع الشمس من یوم العید، فیرمی جمرة العقبة متمتعاً کان، أو قارناً، أو مفرداً، ویرمیها بین طلوع الشمس وغیابها، ویکبّر، ویسبّح عند الرمی- استحباباً-.

ثم یذبح، إن کان متمتعاً، غیر مکی بالاتفاق، ولا یجب علی المفرد بالاتفاق، ولکن یستحب، أما القارن فیجب علیه الذبح عند الأربعة (۱)، ولا یجب علیه عند الإمامیة إلّاإذا صحب معه الأضحیة وقت الإحرام، وإذا تمتع المکی وجب علیه الذبح عند الإمامیة، ولا یجب عند بقیة المذاهب.

ثم یُحلق أو یُقصّر- متمتعاً کان أو قارناً أو مفرداً- ویحلّ له بالحلق والتقصیر ما حرم علیه إلّاالنساء عند الحنابلة والشافعیة، وإلّا النساء والطیب عند الإمامیة والمالکیة.

ثم یعود إلی مکة فی نفس الیوم، أی یوم العید، فیطوف طواف الزیارة، ویصلی رکعتیه، ویسعی بین الصفا والمروة سبعة أشواط، ثمّ یطوف طواف النساء ویؤدی رکعتیه، وبه تحلّ النساء، وهو ما علیه الإمامیة.

ثم یعود إلی مِنی فی نفس الیوم العاشر، لیبیت فیها لیلة الحادی عشر، ویرمی

۱- ۱ نقصد المذاهب الإسلامیة الأربعة غیر الإمامیة وهی: الشافعیة والمالکیة والحنبلیة والحنفیة.

ص: ۱۸۴

الجمار الثلاث عند زوال الشمس إلى غروبها.

ثم يفعل فى اليوم الثانى عشر ما فعل بالأمس.

وله أن يترك مِنى قبل غروب هذا اليوم بالاتفاق، وإن دخل الغروب، وهو فيها وجب عليه المبيت ليلة الثالث عشر، ورمى الجمار الثلاث فى هذا اليوم، وبعد الرمى يعود إلى مكة ويطوف طواف الوداع (۱).

۱- ۱ راجع، اللمعة الدمشقية، كتاب الحج، افعال الحج ۱: ۱۷۹ فما بعدها. وكتاب الحج على مختلف المذاهب، محمد جواد مغنية: ۱۴۹- ۱۵۵، وشرائع الإسلام فى مسائل الحلال والحرام، المحقق الحلى ج ۱، كتاب الحج، باب أفعال الحج والعمرة.

ص: ۱۸۵

الحجر الأسود فى الركن

ص: ۱۸۶

أفعال الحج الإسلامى

اشارة

تُقسّم أفعال الحج فى الإسلام إلى واجبات والى أركان:

فالواجبات، هى:

۱- الإحرام: ولابـدّ فيه من النيّـة وهو أن يقصـد بقلبه إلى أمور أربعـة: ما يحرم به، من حـجّ أو عمرة متقرباً.. ونوعه من تمتّع أو قِران أو إفراد.. وصفته من وجوب أو ندب.. وما يحرم له من حجة الإسلام أو غيرها (۱).

۲- الوقوف بعرفات من زوال اليوم التاسع حتى الغروب.

۳- المبيت بالمشـعر الحرام: ينصرف من عرفة بعد غروب الشمس ليلة العيد، الى المشعر مقتصداً فى سيره داعياً إذ بلغ الكثيب الأحمر، ويكون بالمشعر ليلًا إلى طلوع الشمس، واقفاً أم نائماً، ويستحب إحياء تلك الليلة (۲).

۴- مناسك مِنى ويكون يوم العيـد؛ ليقوم بالمناسك الخاصة بمِنى وهى ثلاثة واجبات: الرمى والذبح والحلق أو التقصـير. ويجب عليه المبيت فى منى ليلتى أو ثلاثة ليالٍ، مقروناً بالنية المشـتملة على قصده فى النسك المعيّن بالقربة بعد تحقّق الغروب... ويرمى الحجرات الثلاث نهاراً فى كلّ يوم يجب مبيت ليلته، ولو بات بغير الرمى فعن كلّ ليلة شاة (۳).

* الرمى: وهى من الواجبات ومن مناسك مِنى ويكون البدء بجمرة العقبة؛ ويكون الرمى بالحصى التى جمعها من المشعر (۴).

* ذبح الهدى: وتقسيمه ثلاثة أقسام، يجب التصدق بثلثه لبعض المؤمنين،

۱- ۱ شرائع الإسلام ۱: ۲۴۵.

۲- ۲ اللمعة الدمشقية، كتاب الحج: ۱۹۱.

۳- ۳ اللمعة الدمشقية: ۲۰۰، وشرائع الإسلام: ۲۷۴ وما بعدها.

۴- ۴ المصدر السابق: ۱۹۵.

ص: ۱۸۷

وإهـداء ثلثه لبعضٍ آخر، ويأكـل من الثلث الأـخير، وذبـح الهـدى واجبٌ على المتمتع ولا يجب على غيره (۱). ووقته بمنى أربعـة أيام أولها يوم النحر (۲).

* حلق الرأس أو التقصـير: فإذا فرغ من الذبح، فهو مخيّر، إن شاء حلق، وإن شاء قصّـر، والحلق أفضل للرجل فى حج الصرورة وللمرأة التقصير. ويجب تقديم الحلق أو التقصير على زيارة البيت لطواف الحج والسعى. ولو قدّم ذلك عامداً، جبره بشاة (۳).

۵- طواف الحج وهو سبعة أشواط.

۶- صلاة ركعتى الطواف.

۷- السعى سبعة أشواط بين الصفا والمروة.

۸- طواف النسـاء: وطواف النساء واجب فى الحـج والعمرة المفردة دون المتمتع بها، وهو لازم للرجال والنساء والصبيان والخناثى (۴). وهو سبعة أشواط حول البيت الحرام (۵).

۹- صلاة ركعتى طواف النساء: وهى كركعتى الطواف الركنى، فى الصورة والكيفية. ويأتى بها بعد الطواف. ولا تصح قبله.

وأما الأركان فهى:

۱- الإحرام ۲- التلبية ۳- الوقوف بعرفة ۴- الوقوف بالمشعر الحرام ۵- الطواف ۶- السعى ۷- الترتيب بين الأفعال (۶).

۱- ۱ اللمعة الدمشقية، مصدر سابق، وشرائع الإسلام، مصدر سابق: ۲۵۹، وما بعدها.

۲- ۲ شرائع الإسلام: ۲۹۴.

۳- ۳ المصدر السابق: ۲۶۴ وما بعدها، واللمعة الدمشقية: ۱۹۸.

۴- ۴ شرائع الإسلام: ۲۷۱.

۵- ۵ المصدر السابق.

۶- ۶ انظر المحجة البيضاء، الفيض الكاشانى ج ۲، باب الحج: ۱۶۱.

ص: ۱۸۸

یقول المحقق الحلی: «وأیُّ رکن من هذه الأرکان من ترکهُ عامداً بطل حجّه، ومن ترکه ناسیاً قضاه، ولو بعد المناسک» (۱).

فالأرکان إذن هنّ أساس صحة الحج، وأی خطأ أو إشکال أو تقصیر أو نسیان وغیره یوجب علی الحاج إما الاستئناف أو القضاء، وهنا نحاول تفصیلها قدر الإمکان:

۱- الإحرام وهو لبس اللباس الخاص بالحج، أی الزی الموحد للمسلمین فی

هـذا الموسم، وهو عبارة عن ثوبین غیر مخیطین مما یجوز لبسه فی الصـلاة یأتزر بأحـدهما ویشـتمل بالآخر بالنسـبة للرجال، أما للنساء فیجوز لهن لبس المخیط مما یستر البدن جمیعاً عدا الوجه والکفین، ویکون الإحرام من أحد المواقیت، أی الأماکن التی عینها الرسول صلی الله علیه و آله لأهل المـدن القادمین لأداء فریضـة الحج، ولا یجوز الإحرام قبل المواقیت أو بعدها إلّافی حالات اسـتثنائیة کالنذر ونحوه، وتشـیر الی هـذا روایة الإمام الصادق علیه السـلام: «لیس ینبغی أن یحرم دون الوقت الذی وقّته رسول اللّه صـلی الله علیه و آله إلّاأن یخاف فوت الشهر فی العُمرة» (۲).

فـإذا تعـدی المیقـات دون أن یُحرم منـه «لم یصـح إحرامه، حـتی یعـود إلی المیقـات ویحرم منه، ولـو افـترض أن تعـذر علیه الرجـوع والإحرام من المیقات بعد أن ترکه عمداً لم‌یصح‌إحرامه وفاقاًللمشهور، بل ربما یفهم من غیر واحد عدم الخلاف فیه» (۳).

والمواقیت التی وقتها الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله والتی لا یجوز للحاج تعدیها إلّاوهو (مُحرم) هی:

۱- ۱ علل الشرائع، المحقق الکاشانی ۱: ۲۰۲.

۲- ۲ التهذیب ۱: ۴۶۱.

۳- ۳ الجواهر ۱۸: ۱۰۲.

ص: ۱۸۹

* میقات وادی العقیق: ویبعد عن مکة (۱۰۰) کم تقریباً، وهو میقات أهل العراق، ونجد، وکلّ من کان طریقه به إلی مکة.

* میقات یلملم: ویبعد عن مکة (۹۴) کم، وهو میقات أهل الیمن ومن مرّ به.

* میقات قرن المنازل: ویبعد عن مکة (۹۴) کم، وهو میقات أهل الطائف، ومن مرّ به.

* میقات الجحفة: ویبعد عن مکة (۱۸۷) کم، وهو میقات أهل مصر والشام ولمن مرَّ به.

* میقات ذو الحلیفة: وهو مسجد الشجرة، ویبعد عن مکة (۴۹۲) کم وهو میقات أهل المدینة، ولمن مرَّ به.

* أما الذی کان منزله فی مکة أو من مکان بین المیقات وبین مکة فمیقاته من منزله، أی یحرم من منزله (۱).

۲- التلبیة: وهی الرکن الثانی من الأرکان، حیث لا ینعقد الإحرام لمتمتع

۲- التلبیة: وهی الرکن الثانی من الأرکان (۲)، حیث لا ینعقد الإحرام لمتمتع

ولا ـ لمُفرد إلّابها، وبالإشارة للأخرس مع عقد قلبه. والقارِن بالخیار، إن شاء عقد إحرامه بالتلبیة، وإنشاء قلّد أو أشعر علی الأظهر، و بأیهما بدأ کان الآخر مستحباً (۳).

وصورةالتلبیة: «لبیک اللهم لبیک، لبیک لا شریک لک لبیک» وقیل یضیف الی ذلک، «إنّ الحمد والنعمة لک والملک لک، لا شریک لک» وقیل بل یقول: «لبیک اللهم لبیک، لبیک إن الحمد والنعمة والملک لک، لا شریک لک لبیک» والأول الأظهر (۴).

۱- ۱ انظر شرائع الإسلام، باب الحج، المواقیت، واللمعة الدمشقیة، باب الحج، المواقیت.

۲- ۲ المحجة البیضاء، الفیض الکاشانی ۲: ۱۶۱.

۳- ۳ المصدر السابق: ۲۴۵- ۲۴۶.

۴- ۴ المصدر نفسه.

ص: ۱۹۰

۳- ۴- الوقفان: وهما ركنان واجبان بالاتفاق:

أ- الوقوف بعرفة

وعرفات جبل، وحدوده من بطن عرنة وثوبة ونمرة إلى ذى المجاز، وهذه هى أسماء الأماكن الجغرافية المحيطة بعرفات. ويجزى الوقوف فى هذه الحدود الجغرافية بالاتفاق، ففى صحيحة معاوية بن عمّار عن الإمام الصادق عليه السلام قال: إنّ رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله وقف بعرفات فى مسيرة الجبل، فلما وقف جعل الناس يبتدرون اخفاف ناقته فيقفون إلى جانبه، فنحّاها، ففعلوا مثل ذلك، فقال: أيها الناس إنه ليس موضع اخفاف ناقتى الموقف، ولكن هذا كلّه موقف، وأشار بيده إلى الموقف (أى جبل عرفات) وفعل مثل ذلك فى المزدلفة» (۱).

ب- الوقوف فى المشعر الحرام

ويسمى «المزدلفة» وأجمع الفقهاء على وجوب الوقوف فيه؛ لقوله تعالى فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا اللَّه عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين* ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا اللَّه إنّ اللَّه غفورٌ رحيم (۲)

.ويقع المشعر أو المزدلفة ما بين المارين إلى وادى محسر، وهو أقرب من عرفات إلى مكة، وكلّ هذه المساحة من الأرض موقف واحد. ويكون الوقوف الشرعى فى المشعر الحرام بالتواجد فى ذلك المكان مع نية القربة لوقت شرعى محدد. ويقسّم الفقهاء الوقت الشرعى إلى قسمين:

الأوّل: الوقت الاختيارى، وهو لغير النساء والصبيان ممن لا عذر له فى التأخير، ويتحدد ما بين الطلوعين من يوم العيد وهو اليوم العاشر من ذى الحجة،

۱- ۱ الكافى ۱: ۲۹۳.

۲- ۲ البقرة: ۱۹۸- ۱۹۹.

ص: ۱۹۱

أی طلوع الفجر وطلوع الشمس، بشرط أن یستوعب الوقوف هذه الفترة بکاملها.

والثانی: الوقت الاضطراری، وهو وقت النساء والصبیان، ولمن له عذر یمنعه من الوقوف بین الطلوعین، ویمتد من طلوع الفجر إلی زوال الشمس فی یوم العید.

ویستحب التقاط حصی الجمار من المشعر، والاحتفاظ بها إلی مِنی عند الرمی وعددها سبعون حصوة (۱).

۵- الطواف: والطواف رکن من أرکان الحج المهمة لقوله تعالی ولیطوفوا

بالبیت العتیق (۲)

. وقوله تعالی أیضاً: وطهر بیتی للطائفین والقائمین والرکع السجود (۳)

.ومن سنن الطواف: الاغتسال، وتطیب الفم بالأذخر وهو نبات طیب الرائحة، ودخول المسجد الحرام من باب شیبة، ورفع الیدین عند رؤیة البیت، والتکبیر والتهلیل والدعاء بالمأثور. وقد ورد فی الروایات: «من دخل مکة بسکینة غفر له ذنبه» (۴).

ویکون الطواف ابتداءً بالحجر الأسود والاختتام به، وأن یجعل البیت علی یساره حال الطواف، لا علی یمینه، غیر مستقبل أو مستدبر، ولو فی خطوة واحدة، وأن یُدخِل فی الطواف حجر اسماعیل، ویتم سبعة أشواط بلا زیادة و لا نقصان، إجماعاً وللنصوص المستفیضة بل المتواترة (۵).

۱- ۱ اللمعة الدمشقیة، کتاب الحج: ۱۹۲ ج ۱، والمحجة البیضاء، کتاب الحج الوقوف بالمزدلفة.

۲- ۲ الحج: ۲۹.

۳- ۳ الحج: ۲۶.

۴- ۴ من لا یحضره الفقیه ۱: ۷۳.

۵- ۵ الجواهر ۱۹: ۲۹۵.

ص: ۱۹۲

وعند الانتهاء من الطواف ینبغی للحاج أن یصلی ركعتی طواف الفریضة خلف مقام إبراهیم علیه السلام، للنصّ القرآنی: واتخذوا من مقام إبراهیم مصلی (۱)

.وبذلك «یستدل علی أنّ صلاة الطواف فریضة مثل الطواف؛ لأنّ اللّه أمر بذلك، والأمر فی الشرع یقتضی الایجاب، ولیس ههنا صلاة یجب أداؤها عنده غیر هذه» (۲).

۶- السعی بین الصفا والمروة: ویأتی بعد الطواف وركعتیه فی العمرة

والحج بأنواعهما الثلاثة، والسعی بین الصفا والمروة من شعائر اللّه تعالی، حیث قال جلّ قوله: إنّ الصفا والمروة من شعائر اللّه فمن حجَّ البیت أو اعتمر فلا جناح علیه أن یطوّفَ بهما ومن تطوّع خیراً فإنَّ اللّه شاكرٌ علیم (۳)

.وجاء فی صحیحة معاویة بن عمار عن أئمة أهل البیت علیهم السلام: «إذا فرغت من الركعتین فاتِ الحجر الأسود، فقبله واستلمه وأشر إلیه، فإنه لابد من ذلك. وإن قدرت أن تشرب من ماء زمزم قبل أن تخرج إلی الصفا فافعل...» (۴).

«... ثم اخرج إلی الصفا عن الباب الذی خرج منه رسول اللّه صلی الله علیه و آله وهو الباب الذی یقابل الحجر الأسود حتی تقطع الوادی وعلیك السكینة والوقار...» (۵).

ویتحقق السعی بنیة القربة إلی اللّه تعالی أولًا، ثم الابتداء بجبل الصفا، ثم الاختتام بجبل المروة، ویكون السعی بینهما سبعة أشواط أی أن یكون ذهابه شوطاً، وعوده شوطاً آخر. ولا تجب الموالاة بین الأشواط، فیجوز الاستراحة

۱- ۱ البقرة: ۱۲۵.

۲- ۲ فقه القرآن، الراوندی ۱: ۲۷۳.

۳- ۳ البقرة: ۱۵۸.

۴- ۴ الكافی ۱: ۲۸۴.

۵- ۵ التهذیب ۱: ۲۸۴.

ص: ۱۹۳

قبل إتمام السعى، أو الصلاة الواجبة أو نحوها. ويجوز السعى ماشياً أو راكباً (۱).

السعى بين الصفا والمروة

۷- الترتيب بين الأفعال: اعتبره بعضهم ركناً واجباً من أركان الحج

كالفيض الكاشانى وغيره (۲)، والترتيب: هو أن يأتى بكل فعل من أفعال الحج حسب ما عينه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، لا يقدم ولا يؤخر، أى لا يأتى مثلًا بالسعى بين الصفا والمروة قبل الوقوفين أو الطواف وهكذا...

تروک الإحرام للحج

۱- ۱ اللمعة الدمشقية، باب الحج، السعى.

۲- ۲ وكذلك جاء فى اللمعة الدمشقية، مراعاة الترتيب، أى يبدأ بطواف الحج وركعتيه، ثم السعى، ثم طواف النساء، ثم ركعتيه، وهكذا، راجع اللمعة الدمشقية، كتاب الحج: ۲۰۰.

ص: ۱۹۴

يترتب على الإحرام للحج (۱) تروك، منها محرمات ومنها مكروهات، أما المحرمات فهى عشرون أمراً، وأما المكروهات فعشرة (۲). وبيانها كالآتى:

۱- ۲- حرمة الفسوق والجدال، لقوله تعالى: فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج (۳)

. ۳- حرمة الجماع والاستمتاع بشتى أنواعه، لقوله تعالى فلا رفث.

۴- حرمة التطيب وشم الطيب.

۵- حرمة الاكتحال بالسواد.

۶- حرمة صيد البر.

۷- حرمة لبس السلاح.

۸- حرمة قص الاظفار.

۹- حرمة قطع الشجر والحشيش.

۱۰- حرمة إزالة الشعر، قليله وكثيره. ومع الضرورة لا إثم.

۱۱- حرمة التظليل للرجال وجوازه للنساء.

۱۲- حرمة قتل هوام الجسد، كالقمل والقراد وغيرها.

۱۳- حرمة إخراج الدم إلّاعند الضرورة، وقيل: يكره، وكذا قيل: فى حك الجلد المفُضى إلى إدمائه، وكذا فى السواك، والكراهية أظهر.

۱۴- وحرمة استعمال دهن فيه طيب، قبل الإحرام وبعده.

۱۵- حرمة عقد الزواج لنفسه ولغيره.

۱- ۱ وكذلك العُمرة.

۲- ۲ شرائع الاسلام، مصدر سابق: ۲۴۸.

۳- ۳ البقرة: ۱۹۷.

ص: ١٩٥

١٦- حرمة لبس المخيط للرجال وفى النساء خلاف، والأظهر الجواز.

١٧- حرمة لبس الخفين وما يستر ظهر القدم. فإن اضطرّ جاز وقيل: يشقها.

١٨- النظر فى المرآة، على الأشهر.

١٩- وكذلك يحرم لبس الخاتم للزينة، ويجوز للسُنة. ولبس المرأة الحليّ للزينة. وما لم يُعتد لبسه منه على الأولى، ولا بأس بما كان معتاداً لها، لكن يحرُم عليها إظهاره لزوجها.

٢٠- يُحرم تغسيل الُمحرم لو مات بالكافور (١).

هذا بالنسبة للمحرمات على الُمحرم، أما المكروهات فهى ما يلى:

١- الإحرام فى الثياب المصبوغة بالسواد والعُصفُر وشبيهه، ويتأكّد فى السواد.

٢- يكره النوم فيها.

٣- ويكره الإحرام فى الثياب الوسخة وإن كانت طاهرة.

٤- يكره لبس الثياب المُعلَمة.

٥- يكره استعمال الحنّاء للزينة.

٦- يكره النقاب للمرأة على تردد.

٧- يكره دخول الحمام.

٨- يكره تدليك الجسد فى الحمام.

٩- يكره تلبية من يناديه.

١٠- يكره استعمال الرياحين (٢).

١- ١ شرائع الإسلام، كتاب الحج: ٢٤٩- ٢٥١، واللمعة الدمشقية. ج ١: ١٨١/ ط مكتب الاعلام الإسلامى ١٣٧١.

٢- ٢ المصدر السابق: ٢٥١- ٢٥٢، واللمعة الدمشقية ١: ١٨١.

ص: ١٩٦

ص: ١٩٧

ص: ١٩٨

ص: ۱۹۹

الفصل الثامن: أهمية الحج فى الإسلام وأفضليته

أ- أهمية الحج فى الاسلام

اشارة

للحج فى الاسلام أهمية عظمى، وهو فريضة وركن من أركان الدين الإسلامى الحنيف، وركنيته ثابتة فى جميع المذاهب الإسلامية، فقد جاء فى الحديث عن الرسول صلى الله عليه و آله: «بُنى الإسلام على خمس: شهادة لا إله إلّااللّه وأنّ محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان» (۱). وقد جاء عن الامام الصادق عليه السلام قال: «بُنى الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة، والزكاة، والحج، والصوم والولاية...» (۲).

ولهذا فقد حظى هذا الركن بأهمية بالغة وعظيمة فى كلّ أبعاده المادية منها والمعنوية، الروحية والعملية، فى كلّ أحكامه ومناسكه ومعارفه وآثاره النفسية- الفردية والاجتماعية- ولذا فإنّ الدين الإسلامى يحتم على المسلم فى قبول حجّه، أن لا يكتفى بمعرفة أحكام الحج ومناسكه ومواقفه وكيفيته فحسب، بل

۱- ۱ صحيح مسلم، بشرح الامام النووى ۱: ۱۷۷.

۲- ۲ وسائل الشيعة ۱: ۱۳.

ص: ۲۰۰

ينبغى له التعرف على ما يترتب على تلك المناسك من التزامات روحيـة وأخلاقيـة لنفسه ولغيره، وعندئذ سـيكون الحج مظهراً يجسـد الايمـان الحقيقى عبادةً وعملًا وقولًا، وصورةً رائعـةً من صور الكمال الايمانى والجمال الروحى، التى لو طبقها الانسان المسـلم فى كلّ لحظات حياته لأصبح من عباد اللَّه الُمخلصين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

إذن، فالحج يصنع من الانسان عبداً متكاملًا صافياً نقياً، فهو:

۱- يعمق ارتباط العبد باللَّه تعالى.

۲- وهو عبادة وتربية.

۳- وهو مؤتمر عالمى يلتقى فيه المسلمون على ما بينهم من اختلافات.

۴- والحج باب لطف لغفران الذنوب.

۵- وهو يحقق المساواة.

ومع كـلّ ذلـك، فالحـج يرسم لنـا صورة مصـغرة ليوم الحشـر، وصورة لمناسـك الحيـاة بشـكل عـام... ويرسم لنـا جملـة من الفرائض المتعددة الأبعاد ترتبط بالحياة الفردية والسـلوكيات الاجتماعية التى تؤثر فى النفس والفكر الانسانى وتهبه، لو أدّاها على أكملها، سمة كماليـة تميزه فى أبعاد حياته الخاصة والعامة.

إضافة إلى ذلك، فالحجّ فيض هدى ورشاد، وسـيل فوائد ومنافع، وسـياج عزة ومنعة، وتجسـيد وحدة الانسانية، وتحقق أسمى ما تصبو إليه البشرية، وأعلى ما تسعى إليه، من تطبيقات التحرر والمساواة، والعدالة والأمن والرخاء، والاستقرار والازدهار.

وقد جاء فى الحديث عن أهل البيت عليهم السلام: «من أراد دنيا وآخرة، فليؤم هذا البيت» (۱).

۱- ۱ غوالى اللّآلئ العزيزية، ابن أبى جمهور الاحسائى ۱: ۴۲۷، مطبعة سيد الشهداء، قم، ايران.

ص: ۲۰۱

الحجّ يعمّق الارتباط باللّه

قيمة الحج الكبرى أنه يربط الانسان باللّه تعالى ربطاً لا مثيل له، فهو فى بيته، بين يديه، تحت رحمته...

وقيمته الكبرى أيضاً، إنما يُذكر الإنسان، هذا المخلوق الغارق فى مشاغل الدنيا، يُذكره بيوم الحشر، يوم يجتمع الناس ضعافاً شاخصين إلى ربّ عظيم، يرجون رحمته...

فالحاج يرى هـذه الجموع الغفيرة، خائفةً جميعاً من بارئها، بسبب ما ارتكبته من المعاصى والـذنوب، وهى الآن فى بيته، تطلب العفو والتوبـة، هـذه الجموع التى هى ضيوف خالق الخلق بارئ الكون فتأخـذها الرهبة والخوف، يزيدها المنظر خوفاً ورهبةً وارتباطاً وإيماناً وقرباً من اللّه تعالى ..

لقد جاءت هذه الجموع برحلة الروح والجسد، زادها التقوى التى أمر بها اللّه تعالى .. أولى القلوب الواعية والعقول الفذة، وقد وصفهم اللّه تعالى بأنّهم: الذين يخشونَ ربّهم ثم تلين جلودُهم وقلوبُهم إلى ذكر اللّه ذلك هُدى اللّه يهدى به من يشاء (۱)

.فالحـاج بمجرّد أن يحسّ أنـه فى بيـت اللّه، بيـت خـالقه وبـارئه، يكفيـه أن يعيش القرب الإلـهى، ثـم أصـوات الملـبين والمكـبرين والمهللين، تجعله يخشـى ويلين، والآيـة أعلاه تقول ذلـك هو الهـدى أن يتـأثر الانسـان بموقف الجموع الغفيرة التى تعبُـد اللّه وحـده مخلصـين له الـدين، تنادى باسـمه وتناجى للوصول إلى قربه، تطلب التوبة والغفران والعفو بأصوات عالية، وقلوب وجلة ودموع هامرة، هذا المنظر المهيب

۱- ۱ الزمر: ۲۳.

ص: ۲۰۲

يجعل فى شعوره عظمة اللّه وجلاله، ويجره إلى القرب من الخالق العظيم الكامل المتعال؛ ليستمد منه القوة والكمال لروحه وبدنه فى هذه الرحلة السنوية أو رحلة العمر...

فالحج ليس مجرّد حركات وأعمال وألفاظ يؤديها الحاج، بل هى تقرب الحاج الى صاحب البيت، إلى المضيّف الكامل والاتصال الروحى والنفسى والمعنوى به «إنّ فلسفة الحج هى رؤية صاحب البيت، ولابُدَّ من أن يوجّه الحركات والأعمال التى تؤدى هناك فى هذا السبيل» (۱).

صورة للطائفين والخاشعين

قال تعالى ويذكروا اسم اللّه فى أيام معلومات (۲)

۱- ۱ ميقات الحج، مجلة اسلامية، العدد الأول: ۷۱.

۲- ۲ الحج: ۲۸.

ص: ۲۰۳

وقال تعالى وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود (۱)

.والحج إضافةً إلى ما ذكرنا يصقل النفوس ويعلمها التواضع ويزيل عنها ال (أنا)، يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«ما للّه‌عزّوجلّ منسك أحبّ إلى اللّه من موضع السعى وذلك أنه يذل فيه كلّ جبّار عنيد» (۲).

الحج عبادة وتربية

الحج فى الإسلام ليس مجرّد عبادة وارتباط باللّه تعالى فقط، وإنما هو إضافة الى ذلك، سبيل إلى السلوك القويم والتربية الصالحة التى تصبّ فى طريق اللّه القويم...

وهو تربية لسلوك الفرد وتهذيب نوازعه، ففى الحج يتعود الحاج الصبر، وتحمل المشاق، وحسن الخلق، والتواضع، واللين، وحسن المحادثة، والكرم، والتعاطف، والامتناع عند الكذب والغيبة والخصومة والجدال والتكبر وغيرها، وتنمو عند الحاج الروح الاجتماعية...

قال تعالى فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج (۳)

.فكما جعل اللّه تعالى الكعبة قياماً للناس، فكذلك جعل لا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الإحرام إليها... «وترك الرفث والفسوق والجدال كما نطق به القرآن، والرفث اسم جامع لكلّ لغو وخنى وفحش من الكلام ويدخل فيه مغازلة النساء (۴) ومداعبتهنّ والتحدث بشأن الجماع ومقدماته، فإن ذلك يهيج داعية

۱- ۱ الحج: ۲۶.

۲- ۲ وسائل الشيعة، العاملى ۲: ۳۲۹.

۳- ۳ البقرة: ۱۹۷.

۴- ۴ الخنى: الفُحش، والمغازلة: المحادثة والمراودة.

ص: ۲۰۴

الجماع المحظور والداعی إلی المحظور محظور، والفسوق اسم جامع لکلّ خروج عن طاعة اللّه، والجدال هو المبالغة فی الخصومة والمماراة بما یورث الضغائن ویفرق فی الحال المهمة ویتناقض وحُسن الخُلق، وقد جُعل فی الحدیث طیب الکلام مع إطعام الطعام من برّ الحج، والمماراة تناقض طیب الکلام، فلا ینبغی أن یکون کثیر الاعتراض علی رفیقه وجمّاله وعلی غیرهما من أصحابه، بل یلین جانبه، ویخفض جناحه للسائرین إلی بیت اللّه، ویلزم حُسن الخُلق، ولیس حُسن الخلق کفّ الأذی بل احتمال الأذی وقیل: سمّی السفر سفراً؛ لأنه یُسفر عن أخلاق الرجال، ولذلک قیل لمن زعم أنه یعرف رجلًا: هل صحبته فی السفر؟ فقال: لا، فقال: ما أراک تعرفه» (۱).

وقال اللّه تعالی جعل اللّه الکعبة البیت الحرام قیاماً للناس (۲)

.فالدین الإلهی متبلور فی المجاهدة لا غیر، وجهاد الأعداء قیام، والتسلیم لهم أو الفرار منهم قعود وعجز، فالقیام فی هذه الآیة یعنی المقاومة والاستقامة، لا الانتصاب البدنی... فجعل اللّه تعالی العامل الهام لقیام الناس هو جعل الکعبة یُستقبل إلیها، ویحجّ بمناسکها ویُطاف حولها و «النظرُ إلی الکعبةِ عبادة» (۳).

ویعدّ الحج میثاقاً وعهداً إلهیّاً یتشرف به العبد، حیث الدعوة من اللّه علی لسان خلیله ابراهیم علیه السلام وحبیبه محمد صلی الله علیه و آله، والتلبیة لهذه الدعوة تکون من العبد المطیع للّهوللرسول، فالحج بماله من أسرار ورموز عظیمة یورث الخلق العظیم، ومن هذه الأسرار والرموز، الدعوة للضیافة لبیت اللّه من الرب إلی العبد، والتلبیة من العبد إلی الربّ، ثم المراسم الخاصة والعامة التی یقوم بها العبد التی یعلم سرّها

۱- ۱ المحجة البیضاء، الفیض الکاشانی ط بیروت ۲: ۱۹۱- ۱۹۲.

۲- ۲ المائدة: ۹۷.

۳- ۳ وسائل الشیعة ۸: ۴۰.

ص: ۲۰۵

ويثيب على رمزها ومعانيها خالق العباد...

يقول الراغب الأصفهانى: جعل اللّه الكعبة قياماً أى قواماً لهم يقوم به معاشهم ومعادهم» (۱).

ويُقال: إنّ من علامة قبول الحج ترك ما كان عليه من المعاصى، وأن يستبدل بإخوانه البطّالين إخواناً صالحين، وبمجالس اللّهو والغفلة مجالس الذكر واليقظة (۲).

الحج مؤتمر عالمى كبير

لكى يكون المسلمون كتلة واحدة، كتلة قوية متماسكة، لابدّ من اجتماع كبير يجمع القاصى والدانى، والغنى والفقير، والعالم والجاهل، فالاجتماع على هذه الصورة الضخمة يعطى صورة كبيرة ومهمة، وجليلة لقوة الإسلام والمسلمين، وكلّ الاجتماعات الأخرى كاجتماع صلاة الجمعة والعيدين وغيرها من المناسبات لا تعادل ذلك الاجتماع الكبير العام، اجتماع الناس فى مكة المكرمة والكعبة الشريفة «بيت اللّه» فى يوم الحج الأكبر.

إنّه يوم عظيم وفرصة نادرة ومزيدة لالتقاء المسلمين على اختلاف مللهم ونحلهم على أرض واحدة، وأى أرض؟! أرض مكة وفى بيت اللّه بالذات، ولا يمكن تصور هذه الحالة إلّامؤتمراً عالمياً شاملًا كبيراً...

ولا شك أنّ لهذا المؤتمر الضخم دوراً آخر غير الأدوار المحلية الكثيرة، التى يعيشها المسلم ويمارسها فى حياته العامة، فمن خلاله يستطيع أن يرفع ظلاماته أمام الآخرين، أمام المسلمين أنفسهم، وأمام العالم كلّه فى الوقت نفسه...

۱- ۱ المفردات فى غريب القرآن، الأصفهانى: ۴۱۷.

۲- ۲ المحجة البيضاء، مصدر سابق: ۱۹۶.

ص: ۲۰۶

وكمثل على ذلك، القضية الفلسطينية ومأساتها الكُبرى وعبث الصهاينة فى مقدسات المسلمين، فأى مكان أفضل من مكة والكعبة الشريفة أن تحمل هذه القضية وتنطلق منها إلى كلّ العالم؟! وأىُّ مكان أفضل من مكان الحج لعرض المسلمين مشاكلهم وتداولها من واحد إلى آخر؟!

وفى هذه الفرصة السنوية المقدسة يستطيع المسلمون طرح وجهات النظر الفكرية، والاجتهادات العبادية، وحلّ الخلافات الداخلية للتقريب بين المذاهب، ووجهات النظر المختلفة فى سبيل خلق أمة متحابة متعاونة على البر والتقوى

ولذلك فستكون كلمة الحاج أقوى وأكثر تأثيراً فى النفوس من أى كلمات انطلقت من مؤتمرات أو مناسبات أخرى .. وهذا ما يضفى على عمومية الحج نوعاً من الشمولية والعالمية والخصوصية ما لم نجدها فى أى مؤتمر فى الدنيا... فهو- مؤتمر الحج- فريد فى نوعه وفى شعائره وأهدافه وغاياته ورموزه ومغازيه...

الحج باب لطف للتوبة وغفران الذنوب

ألطاف اللَّه تعالى أكثر من أن يتصورها إنسان، وأن يستوعبها عقله القاصر... وهنا نقف على بابٍ عظيم من أبوابه وهى: باب غفران الذنوب، وباب التوبة، وإحدى جادات هذا الباب وأعظمها هى جادة الحج الأكبر، وقد كثرت الأحاديث والروايات عن الرسول صلى الله عليه و آله وعن آله الأطهار فى هذا المجال، فقد جاء عن الرسول صلى الله عليه و آله، أنه قال: «أعظم الناس ذنباً من وقف بعرفة، وظنَّ أنّ اللَّه لم يغفر له» (۱).

هذا الحديث يؤكّد حتمية غفران ذنوب من دعا اللَّه الغفران على أرض وجبل عرفات.

۱- ۱ الفقيه ۲: ۱۳۷ ح ۵۸۷، والوسائل ۱۳: ۵۴۷، ح ۱۸۴۰۷.

ص: ۲۰۷

وقال الإمام على عليه السلام فى حتمية غفران ذنوب الحاج فى الحج: «من حجَّ ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» (۱).

وعن الرسول صلى الله عليه و آله يبين أقل ما يحصل عليه الحاج، يقول صلى الله عليه و آله: «من أيسر ما يعطى مَنْ ينظر إلى الكعبة أن يعطيه اللَّه نظرة حسنة وتمحى عنه سيئة، وترفع له درجة» (۲). وأيضاً: «لا يزال على الحاج نور الحج ما لم يذنب» (۳).

وعن الإمام الباقر عليه السلام فى تفسير قوله تعالى ففروا إلى اللَّه إنّى لكم منه نذير مبين قال عليه السلام: يعنى: «حجّوا إلى اللَّه» (۴). واستغفروا ذنوبكم، وقال الإمام على عليه السلام: «ما من مُهلٍّ بالتلبية إلّاأهلَّ من عين يمينه من شىء إلى مقطع التراب ومن عن يساره إلى مقطع التراب، وقال له الملكان ابشر يا عبداللَّه وما يبشّر اللَّه عبداً إلّا بالجنة، ومن لبّى فى إحرامه سبعين مرّةً إيماناً واحتساباً أشهد اللَّه له ألف ملك ببراءة من النار وبراءة من النفاق، ومن انتهى إلى الحرم فنزل واغتسل وأخذ نعليه بيده، ثمَّ دخل الحرم حافياً تواضعاً للَّهعزّوجلّ محا اللَّه عنه مائة ألف سيئة، وكتب اللَّه له مائة الف حسنة، وبنى له مائة ألف درجة، وقضى له مائة الف حاجة، ومن دخل مكة بسكينة غفر اللَّه له ذنبه، وهو أن يدخلها غير متكبر ولا متجبر، ومن دخل المسجد حافياً على سكينة ووقار وخشوع غفر اللَّه له، ومن نظر إلى الكعبة عارفاً بحقها غفر اللَّه له ذنوبه وكفى ما أهمّه» (۵).

وهناك روايات كثيرة تؤكد أنّ الحج هو خير مكان لغفران الذنوب ومحوها،

۱- ۱ غوالى اللّآلئ العزيزية، ابراهيم الاحسائى ۱: ۴۲۶ ح ۱۱۳، مطبعة سيد الشهداء، قم، ايران، والمستدرك، كتاب الحج، باب ۲۴ من أبواب وجوب الحج وشرائطه.

۲- ۲ وسائل الشيعة ۹: ۳۶۵.

۳- ۳ سفينة البحار ۱: ۲۱۱، الشيخ عباس القمى.

۴- ۴ المصدر نفسه.

۵- ۵ المحجة البيضاء، الفيض الكاشانى ۲: ۱۴۸.

ص: ۲۰۸

يطيل بنا الحديث لذكرها...

وما أحوجنا- نحن البشر المذنبين- إلى اللجوء إلى هذا المكان العظيم الذى يطهرنا ويزكينا... إلى المكان الذى تظلِلُهُ القدسية والنفحات السماوية... وأبواب اللطف الإلهية، نتقرب فيها ونطلب العفو والتوبة والغفران ونتوجه ونتوسل وندعو ونلحُ بالدعاء فى فرصة العُمر الثمينة.

الحج مظهر لوحدة الأُمة وأخوّتها

الحاج يشعر أنه يتقرب إلى اللَّه تعالى بعبادة جماعية مع إخوانه المسلمين التى تربطه وإياهم رابطة الدين والانسانية، وهذا يعنى أنّ الحج يلغى الامتيازات والمفاخرات الشخصية والقومية، ويجمع الأمة فى إطارٍ واحدٍ، ويظهرهم بمظهرٍ واحدٍ وأفعالٍ واحدةٍ وأعمالٍ مشتركةٍ، وتحت لواءٍ واحدٍ، لواء التوحيد والعبودية للَّه الواحد لا شريك له، فكلّهم يرددون: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

وهذه العبادة الجماعية والشعبية تجمع الملك والخادم، السيد والعبد، الغنى والفقير، الأبيض والأسود، الطويل والقصير، تجمعهم كلّهم تحت راية لا- إله إلّااللَّه محمد رسول اللَّه والقرآن كتاب اللَّه... كلّ هذه المشتركات تجمعهم فى أحبّ بقاع اللَّه إلى اللَّه تعالى «إن الأرض برحبتها مسجد طهور... وكان الانسان من أقدم الدهور يعبد اللَّه سبحانه فى أى قطر من أقطار الأرض كان، إلّاأنّ أول موضع اختصّ للتعبد الشعبى والخضوع الجماعى للَّهو البيت الذى قد أُسس فى مكة المكرمة على التوحيد، حيث قال تعالى إنّ أول بيت وضع للناس.....» (۱).

۱- ۱ الحج حكمة ورموز، تحقيق: مظفر الاسلام خان، المعهد الاسلامى- لندن: ۳۳، بحوث الندوة الدولية عن الحج، عام ۱۹۸۲.

ص: ۲۰۹

وعلى هـذا يكون مكـان الحـج الإسـلامى من أفضل المقـدسات الاسـلامية لاجتماع الأخوة والغرباء والبعـداء المسـلمين؛ لأنّ مناسـكه وشعائره وتعاليمه تساوى فيما بينهم، وتجعلهم كتلة واحدة فى الحقوق والواجبات... و «الإطار الاجتماعى لأعمال الحج ومناسكه، يدفع الأفراد نحو التماسـك والتعـاون الـذى يتحول لاحقاً لبنـةً من لبنات الدولـة الإسـلامية العالميـة، ولا شك أنّ النشاطات الشـرعية للحج الإسـلامى إنما تساعد جميع الأفراد على كسـر طوق الانعزال الاجتماعى والغربة الانسانية التى نلاحظ مساوئها النفسية فى عالم اليوم...» (۱).

ومناسك الحـج هى مناسك الحياة، وعلى الأُمـة الإسـلامية بمختلف قومياتها أن تصـبح إبراهيميـة؛ لتلتحق بركب أُمة محمد صـلى الله عليه و آله وتكون واحدة ويداً واحدة (۲).

فالحج الإسـلامى يولد شـعوراً لدى الفرد الإسـلامى الحاج المندمج بمناسـكه وأفعاله بالوحدة الكونية للخلق والمخلوقات، ويشعره أنّ الخلق كلّهم خلقوا لهـدف واحـد وغايـة واحدة، عندما يرىالكلّ يطوف ويدور ويسـعى وينحر ويتحرك طائعاً لخالقه، وكأن الموقف يوحى إليه أنّ خلق اللّه قد حشروا جميعهم للحساب والجزاء.

الحج يحقق المساواة

خُلق الانسـان اجتماعيـاً، يحب أبنـاء جنسه، فهو اجتماعى بالفطرة، يحب الاختلاط مع نظائره، ولا يتحقق هـذا الأمر إلّابسـقوط الفوارق الوضـعية، وبسـقوطها يأنس مع من تساوى معهم فى الملبس والمنطق والـدين والعقيـدة، ويأنس أكثر عنـدما يتساوى معهم بالغُربة عن الأهل والوطن، بعيداً عن تربته

۱- ۱ الأبعاد الاجتماعية لفريضة الحج د. زهير الأعرجى: ۱۴۱.

۲- ۲ ميقات الحج/ مجلة إسلامية العدد ۱: ۷۱.

ص: ۲۱۰

ومـأواه، يلقى الـذى ينـاظره، متجهـاً إلى مقصـدٍ يقصـده هو أيضـاً، مـدعواً من قِبل ربّ العزةِ والجبروت، خالق الخلق، جبار السـموات والأرض، إلى بيته؛ ليساويهم فى المظهر والجوهر، ليغفر ذنوبهم ويكفّر عنهم سيئاتهم ويجعل فيهم القوة والغلبة أمام أعدائه وأعدائهم، ولينصرهم أمام شياطين الإنس والجن...

والحج خير دورة تدريبية إنسانية، تدرب المسـلم على روح المساواة والشعور بالتواضع، والتخلى عن الأنا، فهو فى هذه الدورة لا يلبس ملبساً أفضل من ملبس اخوانه المسـلمين، ولا يتحـدث بألفاظ أفضل وأبلغ منهم، فالـذكر والتلبيـة يتلفظها الجميع بلغة واحدة، ولا ينظر إلى فخامـة بيته وسـيارته فهو يهرول على رجليه، حاله حال البقية، بعيداً عن الكرسـى والمنصب والجاه والأموال والبنين والزخارف وما إلى ذلـك ممـا يميزه عنهم... هـا هو يتسـاوى معهم، ويـا ليته يتخرّج من هـذه الـدورة المكثفـة فى تعاليمها وتربيتها، وهو يحمل روح العمـل والتطبيق بما أخـذ من المفاهيم فى (الـدورة الإلهيـة)، هـذا ما يقرّره الحاج نفسه أن يختار تطبيق تعاليمها أو يضـربها عرضاً كأنّ شيئاً لم يكن، يخرج منها صـفر اليدين، ويرجع إلى ما فرضـته الحياة عليه من المغريات واللذات، وما كان عليه قبل أدائه لهذه الفريضة العظيمة... وما كان عليه من التكبر والغرور والتمييز والعنصرية وما إلى ذلك...

وفى الحج يتحقق مفهوم الآية الكريمة: يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شـعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند اللّه اتقاكم (۱)

.وعلى هـذا تتحقق المساواة الحقيقيـة فى الحـج، ولعلّه أفضل مكان لهـذه المساواة التى تفتقر إليها كثير من الشـعوب، فالحاج المسـلم يشـعر بـأروع مظـاهر المسـاواة والتواضع والأخوة والإنسانيـة بإلغاء الفوارق والأزياء وخلع أسـباب الظهور الاجتماعى، والظهور باللباس العبادى الموحد، حيث يحسّ الجميع بوحدة النوع

۱- ۱ الحجرات: ۱۳.

ص: ۲۱۱

الانسانى، وإسقاط الحدود التى صنعتها الأنانيات والأطماع البشرية: الإقليمية، والقومية، والعنصرية، فهم اليوم متساوون فى كلّ شىء، فى التكاليف والواجبات، وفى كلّ الفعاليات لا فرق بينهم، سوى القبول وعدم القبول التابع لنية الحاج وقصده فى الحج.

ب- أفضلية الحج فى الإسلام

اشارة

على الرغم من أنّ الحج فريضة من الفرائض الإسلامية الكبيرة، وفرع ضمن عدد من فروع الدين العديدة، من يؤده يؤدِ واجباً إسلامياً عظيماً، يكسب به جنان اللَّه تعالى ومرضاته، ومع كلّ ذلك، يمتاز الحج على غيره من الفرائض والفروع بمميزات كثيرة ذكرنا بعضها فى فصول سابقة، وستأتى أيضاً فى ثنايا الفصول اللاحقة بإذنه تعالى ..

وقد وردت روايات وأحاديث شريفة كثيرة تفضله على كثير من الفرائض...

روايات فى أفضليته على أهم فريضتين إسلاميتين هما الصلاة والصوم، وروايات وأحاديث أخرى تؤكد أن الذى يحج إلى بيت اللَّه العتيق، تعتق رقبته من نار جهنم وما أدراك ما نار جهنم، وإنّ هذه الفريضة... إضافة إلى الثواب الأخروى تضع المكلف فى موضع كريم فى الحياة الدنيا، فتخرجه من حالة الفقر، الحالة التى قد تؤدى إلى الكفر كما ورد فى الروايات الشريفة، تُخرجه إلى حالة الغنى ..

وبالتالى فالحج كما ورد فى الروايات أفضل تجارة يتاجر بها الانسان مع ربّه ليشترى بها الدنيا والآخرة، وأى تجارة أفضل من التجارة مع اللَّه عزّوجلّ؟! وأى ربح سيقدمه البارى تعالى إلى الذاهب لبيته الطالب عفوه ورضوانه وجنته ونعيمه الأبدى الخالد؟!

ص: ۲۱۲

الحج تجارة حقيقية... بل هو أعظم فرصة لمن يريد التجارة، ويريد المزيد...

فهى تجارة أخروية تبعده عن مشاكل التجارة الدنيوية وحلالها وحرامها ومشاكلها وشبهاتها التى لم يسلم منها تاجر دنيوى طالب لها حتى وإن جهد فى تجنب مزالق الخطأ والحرام... إنّ طمع الدنيا قريب من القلوب يجرّ الإنسان جرّاً إليه، ويبعده عن ربّه...

فما بالنا وباب التجارة مع اللّه العلى القدير مفتوح على مصراعيه؟! وما بالنا لا ندخله، من خلال الذهاب إلى بيته وحضرته وألطافه التى لا تُعدّ ولا تُحصى !

لقد جاء الحج رحمة إلى عباد اللّه... فهو دنيا وآخرة... وهو حقّ ونور وأفضل من كثير من عبادات اللّه تعالى بل يجمع بين كلّ العبادات المكلف بها الإنسان فى حياته، وقد ثبت ذلك فعلًا وعملًا، وبالنصوص والروايات والأحاديث الكثيرة الواردة الينا وليس ذلك كلاماً خرافياً...

ومن هنا تميز الحج عن غيره من العبادات، ومن هنا جاءت أفضليته وفضيلته وإشعاعه الوهاج الذى غطّى على كثير من الفرائض الإسلامية والواجبات الدينية فهو:

۱- أفضل من الصلاة والصوم، كما نصّت الروايات على ذلك.

۲- وهو يعتق الرقبة من النار.

۳- ويُخرج المكلف من الفقر وآفاته.

۴- وهو أفضل تجارة يتاجر بها العبد مع ربّه وخالقه.

وسنأتى على تفصيلها واحدة واحدة إن شاء اللّه...

الحج أفضل من الصلاة والصوم

الصلاة والصوم من الأركان المهمة فى الإسلام ومن مبانى الدين الإسلامى

ص: ۲۱۳

وقواعـده، فقـد جـاء فی الأحادیث الشـریفهٔ والروایات عن الصـلاهٔ، أنها عمود الـدین وعصام الیقین وسـیدهٔ القربات وغُرّهٔ الطاعات إن قُبلت قُبِلَ مـا سواهـا وإن رُدت رُدّ مـا سواهـا، وجـاء عن الصـیام أنه تمیز بخاصـیهٔ النسـبهٔ إلی اللّه تعالی من بین سائر الأرکان الـدینیهٔ الإسـلامیهٔ، إذ قال اللّه تعالی فیما حکاه عنه نبیه محمد صـلی الله علیه و آله: «کلّ حسنهٔ بعشرِ أمثالها إلی سبعمائه ضعف إلّاالصیام فإنه لی وأنا أُجزی به» (۱).

وهناک الکثیر جـدّاً من الآیات والروایات والأحادیث الشـریفهٔ التی تؤکّـد وتبین فضـیلهٔ هذین الرکنین المهمین فی الإسـلام، لا یسـعنا ذکرها، بل نسـتفید منها کیف صار الحـج أفضل بعـد (۲۳) عاماً من تَعبـد المسـلمین بالصوم والصـلاهٔ، حتی جاء الإذن بالحـج فی عام (۱۰) ه، لیکون أفضل من هاتین العبادتین!

الحدیث الشـریف یقول: «إنّ الحج أفضل من الصـلاهٔ والصیام» (۲) نتساءل هنا لماذا هو أفضل منهما؟ یجیبنا الحـدیث الشـریف: «لأنّ المصـلی إنما یشـتغل عن أهله ساعـهٔ، وأنّ الصائم یشـتغل عن أهله بیاض یوم، وأنّ الحاج یشـخص بـدنه، ویضـحی نفسه، وینفق ماله، ویطیل الغیبهٔ عن أهله ولا فی مالٍ یرجوه ولا إلی تجارهٔ» (۳).

ونضیف إلی ذلک أنّ عبادهٔ الحج عبادهٔ جماعیهٔ والعبادات الجماعیهٔ أفضل من العبادات الفردیهٔ فی کثیر من الأحیان، کصلاهٔ الجماعهٔ وصلاهٔ الجمعهٔ وصلاهٔ العیدین، والدعاء مع الجماعهٔ وغیرها.

الحج یُخرج المکلف من الفقر

من شـروط الحج: الاسـتطاعهٔ المالیهٔ، وعُشاق بیت اللّه الحرام فی سعیٍ دائم وراء توفیر تلک الاستطاعهٔ، وهم یعلمون أنّ اللّه تعالی من خلال حجّهم لبیته

۱- ۱ المحجهٔ البیضاء، مصدر سابق ۲: ۱۲۱.

۲- ۲ الفقیه: ۲۰۹، تحت رقم ۷۰.

۳- ۳ المصدر نفسه.

ص: ۲۱۴

الحرام سيخرجهم من الفقر والعوز إلى غِنى الدُنيا والآخرة.

وإنَّ رمز ومغزى الاستطاعة الماليـة، تشجع الأفراد على العمل الجاد من أجل التحصيل المالى والاكتفاء، وهـذا يكسبهم مَلكة العمل ويبعـدهم عن الكسل والخمول والاعتماد على الغير، بل يكون محفزاً ومشجعاً للعمل الجاد فى سبيل توفير ما يتطلبه الحج والسفر إلى بيت اللَّه الحرام...

وقـد جاء فى الحـديث الشـريف: «إنّ من حـجَّ ثلاث حجج لم يصبهُ الفقر أبداً، وأيما بعير حجَّ عليه ثلاث سنين جُعل من نعم الجنة- روى سبع سنين-» (۱).

والحج سببٌ فى قضاء الـدَّيْن، فقـد سُئِل الإمام الصادق عليه السلام عن رجل ذى دَيْن، يستدين ويحجُّ؟ فقال عليه السلام: نعم هو أقضى للدين» (۲).

وفىالصحيح عنمعاوية بن عمّار عن الإمامالصادق عليه السلام قال: قال رسولاللَّه صلى الله عليه و آله:

الحـجُّ والعُمرة ينفيان الفقر كما ينفى الكير خبث الحديد، قال معاويه: فقلتُ: حجّةٌ أفضل أو عتق رقبة؟ قال: حجّةٌ أفضل، قلتُ: فثنتين؟ قال حجّةٌ أفضل، فلم أزل أزيد ويقول: حجّةٌ أفضل حتى بلغتُ ثلاثين رقبة، فقال حجّةٌ أفضل» (۳).

ومما يدلُ على أنّ الحج يخرج الانسان من الفقر إلى الغنى حديث الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن إسحاق بن عمّار...

قال إسحاق بن عمّار قُلتُ لأبى عبداللَّه الصادق عليه السلام: إنى وطّنتُ نفسى على لزوم الحج كلّ عام بنفسى أو برجل من أهل بيتى بمالى، فقال وقد عزمتَ على ذلك؟ قلتُ: نعم، قال: إن فعلتَ ذلك فأيقن بكثرة المال وأبشر بكثرة المال» (۴).

۱- ۱ المحجة البيضاء نقلًا عن الفقيه: ۲۰۸ تحت رقم ۴۸ و ۴۹.

۲- ۲ المصدر السابق نفسه، نقلًا عن الفقيه: ۲۶۲ تحت رقم ۵.

۳- ۳ التهذيب ۱: ۴۴۸.

۴- ۴ المحجة البيضاء، مصدر سابق، نقلًا عن الفقيه: ۲۰۸ رقم ۵۲.

ص: ۲۱۵

الحج يعتق الرقبة من النار

الانسان مليءٌ بالذنوب نتيجة ما يرتكبه من المعاصى والآثام، وقد قيدت هذه الذنوب رقبته بسلاسل من نار جهنم التى أُعدت للمذنبين، لكنَّ اللَّه تعالى الرؤوف الرحيم جعل مقابل هذا باب لطفٍ ورحمة وهى بابُ غُفران الذنوب والتوبة والعفو كما ذكرنا سابقاً، وإذا تاب اللَّه عزّوجلّ عن عبده المذنب حُلّتْ رقبته من النار، وخير مكانٍ وأفضل فرصة لهذا العبد أن يحلَّ رقبته فى موسم الحج إلى بيت اللَّه العتيق الذى يعتق الرقاب من النار كما جاء فى معنى البيت العتيق على لسان أهل اللغة (۱).

قال الإمام الصادق عليه السلام: «من حجَّ حجّة الإسلام فقد حلَّ عقدة من النار من عنقه، ومن حجَّ حجتين لم يزل فى خير حتى يموت، ومن حجَّ ثلاث حجج متوالية ثم حجَّ أو لم يحج فهو بمنزلة «مُدّ» من الحج» (۲).

وعنه عليه السلام أيضاً انه قال: «قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «إنّ من الذنوب ذنوباً لا يكفّرها إلّا الوقوف بعرفة» (۳).

وفى فضيلة النظر إلى الكعبة فى أداء الحج والعُمرة ومحو السيئات والذنوب، قال عليه السلام أيضاً: «إنّ من نظر إلى الكعبة لم يزل يُكتب له حسنة ويمحى عنه سيئة حتى يصرف ببصره» (۴).

وجاء فى الدعاء عن رسول اللَّه محمد صلى الله عليه و آله وأهل بيته الأطهار: «فإذا بلغت مقابل الميزاب قل: اللهم أعتق رقبتى من النار، ووسّع علىَّ من الرزق الحلال،

۱- ۱ البيت العتيق: قالوا ضمن سبب التسمية: لأنه أقدم بيت، ولأنه يعتق الرقاب من النار.

۲- ۲ المحجة البيضاء: ۱۴۹، مصدر سابق، وعن الفقيه: ۲۰۸ تحت رقم ۴۸ و ۴۹.

۳- ۳ المصدر السابق نفسه.

۴- ۴ الكافى، الكلينى ۴: ۲۴۰ تحت رقم ۴.

ص: ۲۱۶

وأدرِئ عنّی شر فسقه العرب والعجم، وشرَّ فسقةِ الجنّ والانس» (۱) فإنّ الدعاء يستجاب حتماً (۲).

الحج أفضل تجارة

قال اللَّه تعالى فی محكم كتابه الكريم: يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تُنجيكم من عذاب أليم* تؤمنون باللَّه ورسولِهِ وتجاهدون فی سبيل اللَّه بأموالكم وانفسكم ذالكم خيرٌ لكم ان كنتم تعلمون* يغفر لكم ذُنوبكم ويُدخلكم جنّاتٍ تجری من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فی جنّات عدن ذلك الفوز العظيم* وأُخری تُحبّونها نصرٌ من اللَّه وفتح قريب وبشّر المؤمنين (۳)

.وخير تجارة يتاجرها العبد المكلف مع ربّه، طاعةٌ وإيمان وجهاد بالمال والنفس. وأفضلُ ما يُرضی اللَّه تعالى حجُّ بيته الحرام الذی هو أول بيت وضع للناس للذی ببكة مباركاً وهدًی ورحمة للعالمين، فهو خير مكان يُطاع فيه اللَّه ويُعبد ويُبذل فيه المال والنفس.

جاء فی الصحيح عن أبی عبداللَّه الصادق عليه السلام: «أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لقيهُ اعرابیٌ فقال: يا رسول اللَّه إنّی خرجتُ أُريد الحج ففاتنی وأنا رجلٌ ميّلٌ (أی كثير المال) فمرنی أن أصنع فی مالی ما أبلغ به مثل أجر الحاج، قال: فالتفت إليه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقال: انظر إلى أبی قبيس فلو أنّ أبا قبيس لك ذهبة حمراء انفقته فی سبيل اللَّه ما بلغت ما يبلغ الحاج، ثم قال: إنّ الحاجّ إذا أخذ فی جهازه لم يرفع شيئاً ولم يضعه إلّا كتب له عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات، فإذا

۱- ۱ المحجة البيضاء، مصدر سابق ۲: ۱۷۰.

۲- ۲ أكدت الروايات عن الرسول صلى الله عليه و آله حتمية استجابة الدعاء تحت الميزاب وعلى عرفة.

۳- ۳ الصف: ۱۰- ۱۳.

ص: ۲۱۷

رکب بعیره لم یرفع خفاً ولم یضعه إلّاکتب اللّه له مثل ذلک، فإذا طاف بالبیت خرج من ذنوبه، فإذا سعی بین الصفا والمروة خرج من ذنوبه، فإذا وقف بعرفات خرج من ذنوبه، فإذا رمی الجمار خرج من ذنوبه [قال: فعدّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله کذا وکذا موقفاً إذا وقفها الحاجُّ خرج من ذنوبه ، ثم قال: أنی لک أن تبلغ ما یَبلغهُ الحاج؟

قال أبو عبداللّه علیه السلام: ولا یکتب علیه الذنوب أربعة أشهر، ویکتب له الحسنات إلّا أن یأتی بکبیرة» (۱).

ویا لَها من تجارة، أن تکون بین العبد القاصر والخالق الکامل، العبد الفقیر والخالق الغنی، العبد الذی لا یملک شیئاً والخالق المالک لکلّ شیء..!

وهذا الإمام الرضا علیه السلام یبین لنا: المتاجرُ بالحجّ مع ربّه صاحب الحج وصاحب البیت یقول:... مَن حجَّ أربع حجج لم تصبه ضغطة القبر أبداً، وإذا مات صوّر اللّه عزّوجلّ الحجج التی حجّها فی صورة حسنة أحسن ما یکون من الصور بین عینیه تصلّی فی جوف قبره حتی یبعثه اللّه عزّوجلّ فی قبره، ویکون ثواب تلک الصلاة لهُ. واعلم أن الرکعة من تلک الصلاة تعدل ألف رکعة من صلاة الآدمیین. ومن حجَّ خمس حجج لم یعذبه اللّه أبداً، ومن حجَّ عشر حجج لم یحاسبه اللّه أبداً. ومن حجَّ عشرین حجّة لم یر جهنّم ولم یسمع شهیقها ولا زفیرها، ومن حجَّ أربعین حجة قیل له: اشفع فیمن أحببت، ویفتح له من أبواب الجنّة، یدخل منه هو ومن یشفع له، ومن حجَّ خمسین حجّة بنی له مدینة فی جنّة عدن فیها ألف قصر، فی کلّ قصر ألف حوراء من حور العین، وألف زوجة، ویُجعل من رفقاء محمد والأوصیاء صلوات اللّه علیهم، وکان ممن یزوره اللّه تبارک وتعالی کلّ جمعة، وهو ممن یدخل جنّة عدن التی خلقها اللّه تعالی بیده، ولم ترها عین، ولم یطّلع علیها مخلوق، وما من

۱- ۱ التهذیب ۱: ۴۴۷.

ص: ۲۱۸

أحـد يكثر الحـج إلّابنى اللَّه عزّوجلّ له بكلّ حجـة مدينـة فى الجنّـة فيها غُرف فى كلّ غرفة منها حوراء من حور العين، مع كلّ حوراء ثلاثمائة جارية لم ينظر الناس إلى مثلهن حسناً وجمالًا» (۱).

۱- ۱ المحجة البيضاء، مصدر سابق، نقلًا عن الفقيه: ۲۰۸، رقم ۵۱.

ص: ۲۱۹

ص: ۲۲۰

ص: ۲۲۱

الفصل التاسع: الكعبة فى التاريخ

اشارة

لا أعتقد أنّ أحداً يجهل قِدم الكعبة الشريفة، فلهذا البيت الشريف تاريخ طويل وتاريخ عريق موغل فى القِدم، فهو- كما ذكرنا- أول بيت وضع للناس ليعبدوا فيه اللّه سبحانه، من هنا جاءت تسمية «بيت اللّه العتيق».

ولا أظنّ أحداً يجهل القداسة التى تمتع بها هذا البيت الشريف، الذى حاز من الشرف فى امتداد تاريخه الطويل، أن يُعتق زائره وقاصده، من ذنوبه وآثامه ومعاصيه، ويخرج منه كيوم ولدته أُمه، ويحصل على مراده فى الدعوة فيه، إضافة الى ذلك فقد كان مركزاً لحج الملائكة قبل آدم عليه السلام بألفى عام، ثم حج إليه أبو البشر آدم عليه السلام وولده من بعده...

ولماجاءزمن نوح عليه السلام و الطوفان الكبير الذى حدث فى أيامه، زالت‌معالم البيت، وقيل رُفع إلى السماء، وبقى أثره على الأرض فقط، حيث كان أكمة حمراء مدرة لا تعلوها السيول. والناس يعرفون أنّ هذا المكان هو موضع بيت اللّه الكريم، وكان يزوره المظلوم والهارب من جور الأرض وظلمها، فيدعو اللّه فيه فيستجاب له، حتى بوّأه اللّه تعالى لإبراهيم الخليل عليه السلام، ومَنَّ مرةً أخرى على عباده بالحج لهذا

ص: ۲۲۲

البيت الشريف المقدس والعبادة فيه والدعاء وطلب الحاجة من اللَّه تعالى فيه للدنيا والآخرة ...

أما الموقع الجغرافى للكعبة الشريفة: فهى فى منتصف الجزيرة العربية الغربى، على بُعد ثمانية وأربعين ميلًا من البحر الأحمر فى وادٍ غير ذى زرع، تحيطها جبالٌ جرداء تكادُ تُطبقُ عليها من جميع الجهات، صيفها حار لا يُطاق. وموقعها هذا جعلها محطة صالحة فى طرق القوافل الطوال التى تجمع فى بعض الأحيان ألف جمل بعضها وراء بعض، والتى تحمل المتاجر بين جنوبى بلاد العرب (ومن ثم بين الهند وافريقية الوسطى وبين مصر، وفلسطين، وبلاد الشام. وكان التجار أصحاب هذه التجارة يؤلفون فيما بينهم شركات محاصة، ويسيطرون على أسواق عُكاظ (۱).

ويقومون بالشعائر الدينية المجزية حول الكعبة وحجرها الأسود المقدس (۲).

وقد وصف الإمام على عليه السلام فى نهج البلاغة الكعبة، بقوله: «أَلا ترونَ أنّ اللَّه سبحانه اختبر الأولين من لدُن آدم- صلوات اللَّه عليه- إلى الآخرين من هذا العالم بأحجارٍ لا تضر ولا تنفع، ولا تُبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذى جعله للناس قياماً، ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً، وأقلَّ نتائق الدنيا مدراً، وأضيق بطون الأودية قُطراً، بين جبالٍ خشنة ورمالٍ دَمِثة، عيون وشلة، وقُرًى منقطعة، لا يزكو بها خُفّ، ولا حافر ولا ظلف؟» (۳).

ثم بيّن عليه السلام قِدم الكعبة بقوله: «ثم أمر آدم عليه السلام وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابةً لمنتجع أسفارهم، وغاية لملقى رحالهم، تهوى إليه ثمار الأفئدة. من

۱- ۱ أسواق عُكاظ: أسواق تجارية مهمة، تدر بالأرباح المالية الهائلة خصوصاً فى موسم الحج قبل الاسلام وبعده.

۲- ۲ قصة الحضارة، ول ديورانت مج ۱، ج ۱: ۱۸.

۳- ۳ نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۲ القاصعة: ۲۹۳ منشورات دار الهجرة إيران. قم

ص: ۲۲۳

مفاوزِ قفار سحیقة، ومهاوی فجاج عمیقة، وجزائر بحارٍ منقطعة حتی یهزّوا مناکبهم ذُلًا، یُهلّلون للّه‌حوله، ویرملون علی أقدامهم شُعثاً غُبراً له. قد نبذوا السرابیل وراء ظهورهم و... الخ» (۱).

وعن تاریخ بناء الکعبة وإعادة البناء وتجدیدها یحدثنا ولِ دیورانت قائلًا: «إنّ الکعبة بُنیت ثم أُعید بناؤها عشر مرات، فقد بناها فی فجر التاریخ ملائکة السماء، وبناها فی المرة الثانیة آدم أبو البشر، وفی المرة الثالثة ابنه شیث ثم بناها فی المرة الرابعة إبراهیم وإسماعیل... وبناها فی المرة السابعة قُصی زعیم قبیلة قریش، وبناها فی المرة الثامنة کِبارُ قُریش فی حیاة محمد صلی الله علیه و آله عام (۶۰۵) م وبناها المرتین التاسعة والعاشرة زُعماء المسلمین فی عامی ۶۸۱ و ۶۹۶ م والکعبة کما بُنیت فی المرة العاشرة هی کعبة هذه الأیام فی معظم أجزائها» (۲).

وفی‌بیان قِدم الکعبة یقول الإمام الباقر علیه السلام: «لما أراد اللّه تعالی أن یخلق الأرض أمر الریاح فضربن متن الماء حتی صار موجاً، ثم أزبد فصار زبداً واحداً فجمعه فی موضع‌البیت، ثم جعله جبلًا من زبد، ثم دحا الأرض من‌تحته وهوقول‌اللّه عزّوجل:

إن أول بیت... فأول بیت خُلق من الأرض الکعبة، ثم مدت الأرض منها» (۳).

هذا موجز سریع استعرضتُ فیه تاریخ الکعبة؛ لیکون مدخلًا ومقدمة لقراءتها من التاریخ وتمهیداً للتفصیلات اللاحقة...

هبوط آدم علیه السلام وبناء الکعبة

آدم علیه السلام، الکعبة الشریفة، قَدِما الینا من أعماق التاریخ، قَدِما مجملین، فقد ورد ذکر آدم علیه السلام ضرباً فی القرآن الکریم ووردت قصته وأمر خلقه وهبوطه‌الأرض،

۱- ۱ الخطبة نفسها.

۲- ۲ قصة الحضارة، ولِ دیورانت مج ۷، ۱: ۱۸.

۳- ۳ الکافی، الکلینی ۱: ۱۸۹.

ص: ۲۲۴

ووردت الکعبة کمرکز مقدس هام فی القرآن الکریم أیضاً... ولکن متی بُنیت؟

وهل کان آدم علیه السلام فعلًا هو بانیها أم هناک غیره؟ فذلک ما حدثتنا بها الروایات، والروایات فی هذا الموضوع کثیرة تحکی صراحةً بأنّ بانی الکعبة الأول هو آدم، ومن هذه الروایات الکثیرة فی بناء آدم علیه السلام الکعبة حین هبوطه إلی الأرض، نذکر ما ذکره الأزرقی فی کتابه «أخبار مکة»:

فقد ورد عنه: «وحدثنی جدی قال: وحدثنی إبراهیم بن محمد بن أبی یحیی عن الزهری، عن عبداللّه بن عبداللّه عتبة بن مسعود، عن ابن عباس رضوان اللّه تعالی علیه قال: کان آدم علیه السلام أول من أسس البیت، وصلی فیه حتی بعث اللّه الطوفان ...» (۱).

وفی الروایات الأخری تفصیلات یطول ذکرها... ولکن الحقیقة أنّ القراءة الدقیقة والتفصیلیة، لا مجال لها فی هذا الموضوع، وإنما أردنا مجرد ذکر ما ورد فی تاریخ بناء الکعبة، وهذه روایة أخری عن ابن عباس ونکتفی بها؛ لأن ما جاء فی هذا الأمر روایات یشابه بعضها الآخر.

یقول ابن عباس: «لما أهبط اللّه تعالی آدم من الجنة کان رأسه فی السماء ورجلاه فی الأرض وهو مثل الفلک فی رعدته، قال: فطأطأ اللّه عزّوجل منه ستین ذراعاً، فقال یا رب مالی لا أسمع أصوات الملائکة ولا أحسهم؟ قال: خطیئتک یا آدم ولکن اذهب فابن لی بیتاً فطف به واذکرنی حوله کنحو ما رأیت الملائکة تصنع حول عرشی، قال: فأقبل آدم علیه السلام یتخطا، فطویت له الأرض وقبضت له المفاوز فصارت کلّ مفازة یمرّ بها خطوة وقبض له ما کان من مخاض ماء أو بحر فجعل له خطوة، ولم تقع قدمه فی شیء من الأرض إلّاصار عمراناً وبرکة حتی انتهی مکة فبنی البیت الحرام، وإنّ جبرئیل علیه السلام ضرب بجناحیه الأرض فأبرز عن أسٍ ثابت

۱- ۱ أخبار مکة، الأزرقی ۱: ۴۰.

ص: ۲۲۵

على الأرض السُفلى فقذفت فيه الملائكة من الصخر ما لا يطيق حمل الصخرة منها ثلاثون رجلًا، وإنه بناه من خمسة أجبل: من لبنان، وطور سيناء، والجودى، وحواء، وطور زيتا حتى استوى على وجه الأرض» (۱).

فإنصحت هذهالأخبار والروايات التى وصل إلينا منها الحشد الكثير، فيكون البانى والمؤسس والحاج الأول للكعبة الشريفة هو أبو البشر آدم عليه السلام، ولكن القرآن الكريم لم يخبرنا بهذه التفاصيل إنما جاءت قصة آدم عليه السلام مجملة مختصرة...

إنّ ارتباط آدم عليه السلام بالكعبة الشريفة، ووجودها فى زمانه، وفى عمق التاريخ يعطيها أهمية كُبرى فوق أهميتها الذاتية الحقيقية، التى أعطاها اللَّه تعالى ونسبها اليه عزّوجل...

لقد كرّمها اللَّه تعالى يومَ خُلقت، ويوم حجّها أول إنسان، والى اليوم ما زالت ذلك الصرح الإلهى المقدس العظيم...

زوال معالم الكعبة فى الطوفان

كلّ شىء آيل إلى التغير والتبدل والزوال، على مستوى الدنيا، ولا يبقى سوى اللَّه تعالى كلّ شىء هالك إلّاوجهه (۲) ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام (۳)

.ولكن عين اللَّه تعالى التى لا تنام، حارسة لمن تحب وما تحب وما تريد أن يبقى الى قيام الساعة.

فحين غضب اللَّه تعالى على قوم نوح عليه السلام وطغى الطوفان الكبير على سطح

۱- ۱ أخبار مكة، الأزرقى ۱: ۳۶- ۳۷.

۲- ۲ القصص: ۸۸.

۳- ۳ الرحمن: ۲۷.

ص: ۲۲۶

الكرة الأرضية، لم تكن الكعبة المشرفة بمنأى عن هذا الطوفان، فغرقت ضمن ما غرق من موجودات الكرة الأرضية، ولكونها مركزاً إلهيّاً مقدساً لم تكن كساير أشياء الأرض التى غرقت وانتهى كلّ شىء، وإنما أراد اللَّه لها شيئاً آخر، أراد لها اللَّه بقاءً أبدياً إلى قيام الساعة؛ لتكون نقطة الاتصال المركزية بين العبد وربّه، من هنا ومن خلال اللطف الإلهى الشامل لكلّ الوجود، قيض اللَّه لها نبياً من عظماء الأنبياء ألا وهو إبراهيم الخليل عليه السلام وابنه الحليم اسماعيل عليه السلام ليعيدا بناءها من جديد، وليرفعا قواعد البيت... وهكذا بلغ أمر اللَّه وتربعت الكعبة على سطح الكرة الأرضية؛ لتكون شامخة وعالية، وامتداداً بين السماء والأرض.

والقرآن الكريم لم يتحدث عن الطوفان بشكل مفصل، وكيف كانت الكعبة وكيف زالت (۱)، وإنما ذكر الموضوع بشكل مجمل، تعرض بشكل أساس عن العبرة والموعظة دون التفاصيل والجزئيات والأجزاء والأماكن.

أما الروايات التى تحكى حال الكعبة الشريفة فى الطوفان الكبير فهى كثيرة جدّاً، لا يسعنا سوى ذكر واحدة أو اثنين ونكتفى بها.

عن ابن عباس رضوان اللَّه عليه قال: «فكان أول من اسس البيت وصلّى فيه وطاف به آدم عليه السلام حتى بعث اللَّه تعالى الطوفان: وكان غضباً ورجساً. قال: فحيث ما انتهى الطوفان ذهب ريح آدم عليه السلام قال: ولم يقرب الطوفان أرض السند والهند، قال: فدَرَسَ موضع البيت فى الطوفان حتى بعث اللَّه تعالى ابراهيم واسماعيل فرفعا قواعده وإعِلامه...» (۲).

وفى رواية مجاهد قال الأزرقى: قال: «بلغنى أنه لما خلق اللَّه عزّوجل السماوات

۱- ۱ ليس من اختصاصات القرآن الكريم ذكر التفاصيل فى طرح التاريخ وغيره، وانما يُشيرُ إليها بماينسجم والعبرة والبيان، والتفاصيل تأخذ من الأحاديث الشريفة والأخبار والروايات.

۲- ۲ أخبار مكة، الأزرقى ۱: ۳۷.

ص: ۲۲۷

والأرض كان أول شـيء وضـعه فيها البيت الحرام وهو يومئذ ياقوتة حمراء جوفاء لها بابان أحدهما شرقى والآخر غربى فجعلهُ مستقبل البيت المعمور، فلما كان زمن الغرق رُفع فى ديباجتين فهو فيهما إلى يوم القيامـة، واسـتودع اللّه عزّوجل الركن أبا قبيس قال: وقال ابن عباس: كان ذهباً فرفع زمان الغرق فهو فى السماء. وعن سعيد عن مقاتل يرفع الحديث إلى النبى صلى الله عليه و آله فى حديث حدّثَ به آدم عليه السـلام قـال: أى ربّى إنّى أعرف شـقوتى، إنى لا ـ أرى شـيئاً من نورك يعبـد، فأنزل اللّه عزّوجلّ عليه البيت المعمور على عرض هـذا البيت فى موضـعه من ياقوتة حمراء، ولكن طوله كما بين السـماء والأرض، وأمره أن يطوف به، فأَذهبَ اللّه عنه الغم الذى كان يجده قبل ذلك، ثم رُفع على عهد نوح عليه السلام» (۱).

ابراهيم عليه السلام يجدد بناء الكعبة

وجاء النبى العظيم أبو الأنبياء خليل الرحمن ابراهيم عليه السلام، جاء ليعيد مجد الكعبة الشريفة التى درسها الفيضان والطوفان النوحى، ولكن من أين بـدأ؟ وأين كان مكانها؟ وفى أيـة بقعـة من بقاع الكرة الأرضـية؟ إنّ موضع الكعبة كان قد خُفى ودرس فى زمن الغرق فيما بين عهد نوح عليه السـلام وابراهيم عليه السـلام، وقد ذكر مجاهد، كان موضع الكعبة أكمة حمراء مدرة لا تعلوها السـيول غير أنّ الناس يعلمون أنّ موضع البيت فيما هنالك ولا يثبت موضـعه، وكان يأتيه المظلوم والمتعوذ من أقطار الأرض ويـدعو عنده المكروب، فقـلَّ من دعا هنالك إلّااسـتجيب له، وكان الناس يحجون الى موضع البيت حتى بوأ اللّه تعالى مكانه لإبراهيم عليه السـلام لما أراد من عمارة بيته وإظهار دينه وشرائعه، فلم يزل منذ أهبط اللّه تعالى آدم عليه السلام إلى الأرض معظماً محرماً بيته تتناسخه الأُمم والملل أمة بعد أمة وملّة بعد ملّة، قال: وقد كانت

۱- ۱ المصدر السابق: ۵۰- ۵۱.

ص: ۲۲۸

الملائكة تحجهُ قبل آدم عليه السلام (۱).

وقد ذكرنا فی الفصل الثالث، كيفية بناء إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل عليه السلام البيت الحرام، والكعبة الشريفة بالتفصيل، وهنا نضيف كيفية مجیء ابراهيم عليه السلام إلى هذا المكان المقدس، كيف كان والى اين آل.

ابراهيم عليه السلام يسرى بزوجه هاجر وابنه اسماعيل صوب بيت اللّه الحرام

۱- ۱ أخبار مكة، الأزرقی ۱: ۵۲- ۵۳.

ص: ۲۲۹

ام اسماعيل تسعى بين الصفا والمروة بحثاً عن الماء، ومنبع الماء يظهر تحت قدمى اسماعيل عليه السلام

فقد خرج ابراهيم عليه السلام من الشام، أو من مدينة أورشليم «بيت المقدس» يحمل هاجر زوجه المظلومة (۱) وولده الوحيد اسماعيل عليه السلام، فخرج بهم ومعه جبرئيل عليه السلام يدله على موضع البيت ومعالم الحرم، يقول محمد بن إسحاق: «فخرج وخرج معه

۱- ۱ أقول هنا مظلومة: لأنها ظُلمت بغيرة سارة منها.

ص: ۲۳۰

لا يمرّ ابراهيم عليه السلام بقرية من القرى إلّاقال: يا جبرئيل أبهذا أُمرت؟ فيقول له جبرئيل عليه السلام: أمضه حتى قدم مكه وهى إذ ذاك عضاهٔ من سلم وسمر، وبها ناس يُقال لهم العماليق خارجاً من مكهٔ فيما حولها، والبيت يومئذ ربوهٔ حمراء مدرهٔ. فقال ابراهيم عليه السلام لجبريل: أهاهنا أُمرتُ أن أضعهما؟ قال: نعم! قال: فعمد بهما إلى موضع الحجر فأنزلهما فيه، وأمر هاجر أمّ اسماعيل أن تتخذ فيه عريشاً ثم قال: ربنا إنّى أسكنتُ من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع (۱)

ثم انصرف إلى الشام وتركهما عند البيت الحرام (۲)، فى رعايهٔ اللّه ورحمته.

وقال ابن جريج: «وبلغنى أنّ جبرئيل عليه السلام حين هزم بعقبهٔ فى موضع زمزم قال لأُم اسماعيل:.. وأشار لها إلى موضع البيت- هذا أول بيت وضع للناس، وهو بيت اللّه العتيق، وأعلمنى أنّ ابراهيم واسماعيل يرفعانه للناس ويعمرانه فلا يزال معموراً، محرماً، مكرماً إلى يوم القيامهٔ، ويضيف ابن جريج: أنّ أمّ اسماعيل ماتت قبل أن يرفعه ابراهيم وإسماعيل، ودُفنت فى موضع الحجر» (۳).

زواج إسماعيل عليه السلام وولاية أبنائه الكعبة

ليس من المحتم أن ندرك حكمهٔ اللّه تعالى للوهلهٔ الأولى فقد يأمر اللّه أمراً يبدو فى الظاهر غير مناسب، ولكن مناسبته وأهميته تظهر أخيراً، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحالهٔ الإنسانيهٔ، إلى استعجال الانسان فى الأمور وطلب الحقيقهٔ فوراً دون تأنٍ، قال تعالى خلق الانسان من عجل سأريكم آياتى فلا تستعجلون (۴).

۱- ۱ إبراهيم: ۳۷.

۲- ۲ أخبار مكهٔ، الأزرقى ۱: ۵۴.

۳- ۳ المصدر السابق: ۵۶.

۴- ۴ الأنبياء: ۳۷.

ص: ۲۳۱

وهذا ما حدث لهاجر زوجة النبى ابراهيم عليه السلام المؤمنة باللَّه الطائعة لأمره وأمر نبيه، والدة اسماعيل عليه السلام الحليم الممتثل لأوامر اللَّه تعالى وصاحب تلك الاطاعة المثالية فى الذبح وبناء الكعبة وغيرها من الأمور...

ولمثالية النبى اسماعيل عليه السلام وسلوكه القويم منحه اللَّه تعالى ولاية أقدس بقعة من بقاع الأرض، وأحبّ بقاع الأرض إلى اللَّه، الكعبة الشريفة ومن بعده ولاية أبنائه عليها...

وإذا رجعنا إلى قصة ابراهيم عليه السلام وزوجه هاجر ووحيدهما اسماعيل عليه السلام والمكان المقفر الذى أُنزلوا فيه، فسنجد الحكمة والموعظة والمعجزة.

لقد استجاب النبى ابراهيم عليه السلام لأمر ربه الكريم، إذ أخذ هاجر وطفلها الرضيع اسماعيل من الشام إلى أرضٍ قفراء خالية بعيدة عن العمران، ولا ماء ولا غذاء، فأنزلهما وقفل راجعاً، تبعته هاجر ملتاعة وقالت له، إلى أين تذهب؟

ولمن تتركنا بهذا الوادى الموحش المقفر؟ قالت له ذلك مراراً خائفة وجلة، مستعطفة، وهو يمضى فى سبيله، عندئذ قالت: اللَّه آمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت:

إذن لا يضيعنا اللَّه، وحُسن ظنها وإيمانها باللَّه تعالى طمأن قلبها، وقيل: إن جبرئيل عليه السلام طمأن قلبها، أن أخبرها أنّ هذا المكان سيكون مكان خير وبركة ومهوى الأفئدة.

وقد خطهُ اللَّه تعالى لها ولابنها أن جعل البركة فى إسماعيل وحيدها، وجعله أمة، وجعل ذلك المكان المفقر تهوى إليه أفئدة الناس، وجعل الخير والبركة والأمن والأمان فيه.

عن ابن عباس قال: لما أخرج اللَّه تعالى ماء زمزم لأم إسماعيل، فبينا هى على ذلك إذ مرَّ ركب من جرهم قافلين من الشام فى الطريق السفلى فرآى الركب الطير على الماء، فقال بعضهم: ما كان بهذا الوادى من ماء ولا أنيس، يقول ابن عباس،

ص: ۲۳۲

فأرسلوا رجلين لهم حتى أتيا أمّ اسماعيل فكلّماها ثم رجعا إلى ركبهما، فأخبراهم بمكانها، قال: فرجع الركب كلّهم حتى حيّوها فردت عليهم وقالوا: لمن هذا الماء؟

قالت أم اسماعيل: هو لى، قالوا لها: أتأذنين لنا أن ننزل معك عليه؟ قالت: نعم! (۱)

ويضيف ابن عباس قائلًا: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: القى ذلك أمّ اسماعيل وقد أخبت الأنس، فنزلوا وبعثوا إلى أهاليهم، فقدموا إليهم وسكنوا تحت الدوح، واعترشوا عليها العرش فكانت معهم هى وابنها، حتى ترعرع الغلام وأنفسوا فيه وأعجبهم، وتوفيت أم اسماعيل، فلما بلغ أنكحوه جارية منهم (۲).

وقد ذكر المفسرون والمؤرخون، أنّ اسماعيل عليه السلام طلّقَ زوجته الأولى (تلك الجارية) بطلب من ابراهيم عليه السلام (۳)، وتزوج بأخرى بنت مضاض بن عمرو الجرهمى، فولدت له اثنى عشر رجلًا. وقد ذُكرت أسماؤهم وأحوالهم فى كتب الصحاح وأخبار مكة وغيرها من كتب الخاصة والعامة. وجاء ما يشابه ذلك من الأسماء فى التوراة. والذى يهمنا من ولد اسماعيل عليه السلام «نابت» و «قيدار» كبار ولد اسماعيل ومنهما نشر اللَّه العرب، وبعد وفاة اسماعيل عليه السلام تولى نابت إمارة البيت المعمور، وبعد أن توفى نابت بن اسماعيل عليه السلام ولىَ أمرها- أمر الكعبة- جده لأمّه (مضاض بن عمرو الجرهمى) وضمَّ بنى نابت وبنى اسماعيل عليه السلام إليه فصاروا مع جدهم أبى أمهم ومع أخوالهم من جرهم.

۱- ۱ أخبار مكة، الأزرقى ۱: ۵۷، وصحيح البخارى، عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه و آله.

۲- ۲ المصدر نفسه.

۳- ۳ انظر، الأزرقى، أخبار مكة، ج ۱، وكتب الصحاح، وتفاسير القرآن الكريم، والتوراة، سفرالتكون وفى التوراة جاءت قصة اسماعيل وهاجر مع زيادات ونقصان كثير وكذب وتحريف أشهر من نارٍ على علم.

ص: ۲۳۳

وهكذا توارث آل اسماعيل (وهم فى الحقيقة آل ابراهيم عليه السلام) الكعبة البيت الحرام. وهكذا كرّم اللَّه تعالى ابراهيم واسماعيل عليهما السلام.

جُرهم وولايتها الكعبة

بعد وفاة اسماعيل عليه السلام وابنه نابت نصّبت قبيلة جُرهم (الحارث بن مضاض بن عمرو الجرهمى) (۱) ملكاً عليهم، وفى نفس الوقت ضعنت قبيلة قطورا (وهم من العماليق) من اليمن إلى مكّة فولّوا عليهم (السميدع) (۲) ملكاً، فلما نزلوا مكة رأوا بلداً طيباً وماءً وشجراً فأُعجبوا بها، فكان الحارث بن مضاض ومن معه قد نزلوا أعلى مكة وقعيقعان، ونزل السميدع ومن معه أسفل مكة وأجياد، وكان (الحارث) يعشّر (۳) من دخل مكة من أعلاها، وكان السميدع يعشّر من يدخل مكة من أسفلها، لا يدخل واحد منهما على صاحبه فى ملكه، ثم إنّ جرهماً وقطوراً بغى بعضهم على بعض وتنافسوا الملك بها واقتتلوا بها حتى نشبت الحرب بينهم على المُلك وولاة الأمر بمكة، وصارت ولاية البيت إلى العماليق، ثم كانت لجُرهم عليهم، وأقامت جُرهم بولاية البيت نحو ثلاثمائة سنة، وكان آخر ملوكهم الحارث بن مضاض الأصغر بن عمرو بن الحارث بن مضاض الأكبر وزادوا فى بناء البيت، ورفعته على ما كان عليه من بناء ابراهيم واسماعيل عليهم السلام (۴).

وقال ابن اسحاق: ثم نشر اللَّه تعالى بنى اسماعيل بمكة، وأخوالهم من جُرهم إذ ذاك حكّام بمكة وولاة البيت، وكانوا كذلك بعد نابت بن اسماعيل عليه السلام، فلما ضاقت عليهم مكة وانتشروا بها، انبسطوا فى الأرض وابتغوا المعاش والتفسح

۱- ۱ قال الأزرقى ونصبت قبيلة جُرهم مضاض بن عمرو فى أخبار مكة، أما المسعودى فقد ثبتَعنده أنه الحارث بن مضاض فى مروج الذهب ۲: ۵۴.

۲- ۲ السميدع: هو ملك العماليق، وهو ابن هوبر بن لاوى بن قيطور بن كركر بن حيدلا، مروج‌الذهب، المصدر السابق.

۳- ۳ التعشير: هو ضريبة تعادل عُشر قيمة البضاعة يدفعها المار من الناس والتّجار لسيد الأرض، مروج الذهب، المصدر السابق.

۴- ۴ انظر أخبار مكة، للأزرقى ۱: ۹۰- ۹۳ منشورات الشريف الرضى، ومروج الذهب ۲: ۵۴.

ص: ۲۳۴

فی الأرض، فلا یأتون قوماً ولا ینزلون بلداً إلّاأظهرهم اللّه عزّوجل علیهم بدینهم فوطئوهم، وغلبوهم علیها حتی ملکوا البلاد ونفوا عنها العمالیق، ومن کان ساکناً بلادهم التی کانوا اصطلحوا علیها من غیرهم، وجُرهم علی ذلک بمکة ولاة البیت لا ینازعهم إیاه بنو اسماعیل لخولتهم وقرابتهم وإعظام الحرم أن لا یکون به بغی أو قتال (۱).

أما المسعودی فیقول: «وکثر ولد إسماعیل وصاروا ذوی قوة ومَنَعَة فغلبوا علی أخوالهم جُرهم وأخرجوهم من مکة، فلحقوا بجُهینة، فأتاهم فی بعض اللیالی السیل فذهب بهم، وکان الموضع یُعرف (بإضم) وقد ذکر ذلک أمیة بن أبی الصّلت الثقفی فی شعر له فقال:

وجُرهم دفنوا تُهامة فی الد هر فسالت بجمعهم إضَمُ (۲)

خُزاعة وولایة الکعبة

حکمت جُرهم فترة طویلة فی مکة کما ذکرنا سابقاً مع ولایتها علی الحرم والکعبة «ولما طالت ولایتهم استحلوا من الحرم أموراً عظاماً، ونالوا ما لم یکونوا ینالون، واستخفوا بحرمة الحرم، وأکلوا مال الکعبة الذی یُهدی إلیها سِرّاً وعلانیة، وکلّما عدا سفیه منهم علی منکر وجد من أشرافهم مَنْ یمنعه ویدفع عنه، وظلموا من دخلها من غیر أهلها» (۳).

ویذکر المؤرخون والرواة أنّ جرهم بعد أن صاروا أکثر سُکان مکة رجالًا وأموالًا وسلاحاً وأعزهم عزة، طغوا وتنازعوا أمرهم بینهم واختلفوا، وضعفوا

۱- ۱ انظر أخبار مکة، ۱: ۸۰- ۹۰.

۲- ۲ مروج الذهب ۲: ۵۵.

۳- ۳ أخبار مکة ۱: ۹۰.

ص: ۲۳۵

بعد ذلک، فقام (مضاض بن عمرو بن الحارث بن مضاض الجُرهمی) ناصحاً لهم (۱). ولم ينفع النصح فيهم، فدخل عمرو بن عامر نازحاً من اليمن مع أهله وأمواله وكاهنة لهم تُدعى (طريفة الكاهنة) مُطاعٌ أمرُها عندهم، فكانوا لا يطأون بلداً إلّاغلبوا عليه وقهروا أهله حتى قاربوا مكة واقتتلوا مع جُرهم ثلاثة أيام فانتصروا وانهزمت جُرهم، فلم ينفلت منهم إلّاالشريد، وكان مضاض بن عمرو ابن الحارث قد اعتزل جرهماً ولم يعنِ فی ذلک، فرحل هو وولده وأهل بيته حتى نزلوا قنونا وخلّى أودية على ساحل البحر الأحمر.

وتشتت جُرهم، وفُنيت البقية الباقية بالسيف، وجاء دور خزاعة فی ولاية الكعبة، فحازت أمر مكة وصاروا أهلها، وجاءهم بنو اسماعيل فسألوا السكنى مع خزاعة فأذنوا لهم. فلما رأى ذلک (مضاض بن عمرو بن الحارث) أرسل خزاعة يستأذنها فی الدخول عليهم والنزول معهم بمكة فی جوارهم ومتَّ إليهم برأيه وتوديعه قومه عن القتال وسوء السيرة فی الحرم واعتزاله الحرب، فأبت خزاعة أن تقررهم ونفتهم عن الحرم كلّه ولم يتركوهم ينزلون معهم، فقال عمرو بن لحی وهو ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر لقومه: من وجد منكم جرهمياً قد قارب الحرم فدمهُ هدر (۲).

وبذلک سيطرت خزاعة على مكة وأخرجت جُرهم منها ونفتهم عن آخرهم الى اليمن، وحزنت جُرهم حزناً شديداً، وندموا على ما فعلوا فی مكة ندماً ذريعاً، وبكوا على مكة وألفوا الأشعار فيها (۳).

هذا... وحازت خزاعة ولاية البيت الحرام والكعبة الشريفة، وحُكم مكة،

۱- ۱ يذكر الأزرقی خطبتهُ لهم فی كتابه أخبار مكة ۱، انظر ۹۰- ۱۰۳.

۲- ۲ المصدر نفسه.

۳- ۳ أخبار مكة ۱: ۱۰۵.

ص: ۲۳۶

ثلاثمائهٔ عام، وقد تعرضت مکهٔ إلی عدوان أرادوا تخریبها وهدمها، ودافعت خزاعهٔ دفاعاً عظیماً، وقاتلت دونها قتالًا شدیداً... وقیل: إن عمرو بن لحی الخزاعی کان یلی البیت وولده بعده خمسائهٔ سنهٔ حتی کان آخرهم حلیل ابن حبشهٔ بن سلول بن کعب بن عمرو، الذی تزوج قصی بن کلاب ابنتهُ «حُبی (۱).

وقال المسعودی: کان أول من ولی البیت من خزاعهٔ عمرو بن لُحی، واسم لحی حارثهٔ بن عامر، فغیّر دین إبراهیم وبَدّله، وبعث العرب علی عبادهٔ التماثیل، حین خرج إلی الشام ورآی قوماً یعبدون الأصنام، فأعطوه منها صنماً فنصبه علی الکعبهٔ، وقویت خزاعهٔ، وعمَّ الناس ظلم عمرو بن لُحی (۲).

ولمّا أکثر عمرو بن لحی من نصب الأصنام حول الکعبهٔ، وغلب علی العرب عبادتها، وانمحت الحنیفیهٔ منهم إلّالمعاً، قال فی ذلک شحنهٔ بن خلف الجرهمی:

یا عمرو، إنک قد أحدثت آلهةً شتی بمکهٔ حول البیت أنصابا

وکان للبیت رَبٌّ واحدٌ أبداً فقد جعلتَ له فی الناس أربابا

لتعرفَنّ بأنّ اللّه فی مَهَل سیطفی دونکم للبیت حُجّابا (۳)

ولایهٔ قصی بن کلاب الکعبهٔ

تذکر کتب التاریخ عن قصی عندما توفی والده کلاب کان طفلًا رضیعاً فتزوجت أمّه (فاطمهٔ بنت عمرو) ربیعهٔ بن حزام، فخرجت معه من مکهٔ إلی بلاده

۱- ۱ المصدر نفسه.

۲- ۲ مروج الذهب، المسعودی ۲: ۶۱.

۳- ۳ المصدر السابق.

ص: ۲۳۷

أرض عذرهٔ من أشراف الشام وحملت معها قصیّاً لصغر سنه، فولدت من ربیعهٔ «رزاح» (۱) ولما شب قصی حدث بینه وبین رجل من قضاعهٔ شیء، فقال له القُضاعی: ألا تلحق بنسبک وقومک فإنک لست منا؟ فرجع قصی إلی أمه وقد وجد فی نفسه مما قال له القضاعی، فسألها عما قال له، فقالت: واللّه أنت یا بنی خیرٌ منه وأکرم، أنت ابن کلاب بن مرهٔ بن کعب بن لؤی بن غالب بن فهر بن مالک بن النضر بن کنانهٔ، وقومک عند البیت الحرام وما حوله. فأجمع قصی للخروجقومه واللحاق بهم وکره الغُربهٔ فی أرض قُضاعهٔ (۲).

دخل قصی مکهٔ فی شهر الحج أحد الأشهر الحُرم، وکان رجلًا جلیداً حازماً بارعاً، فلما أنهی حجهُ دخل علی حلیل الخُزاعی خاطباً ابنتهُ «حُبی ، فلما عرف حلیل نسب قُصی رغب فیه وزوجه، وحلیل یومئذ ولیُ أمر الکعبهٔ ومکهٔ. ولما حضرت حلیل الوفاهٔ نظر إلی قصی والی ما انتشر له من الولد من ابنته، فرآی أن یجعل إمارهٔ الکعبهٔ وحکمها فی ولد ابنته فدعا قصیاً، فجعل له ولایهٔ البیت وسلّم إلیه مفتاح الکعبهٔ (۳).

وقال حلیل لقصی: إنها لا تقوم بفتح الباب وغلقه (۴)، فجعل ولایهٔ البیت إلیها وفتح الباب وغلقه إلی رجل من خزاعهٔ یُعرف بأبی غبشان الخزاعی، فباعه أبو غبشان إلی قصی ببعیر وزق خمر، فأرسلت العرب ذلک مثلًا، فقالت: «أخسرُ من صفقهٔ أبی غبشان» وفی بیعه لولایهٔ البیت ببعیر وزق من الخمر، ونقله ولایهٔ البیت من قومه من خُزاعهٔ إلی قُصی بن کلاب، یقول الشاعر:

۱- ۱ انظر أخبار مکهٔ، الأزرقی ۱: ۱۰۴.

۲- ۲ المصدر نفسه.

۳- ۳ المصدر السابق ۱: ۱۰۷.

۴- ۴ أی «حُبی» لأن فتح الباب وغلقه تحتاج إلی قوهٔ رجل أما الولایهٔ فلها بالوراثهٔ.

ص: ۲۳۸

أبو غبشان أظلم من قصيٍّ وأظلم من بنى فِهْرٍ خُزاعة

فلا تَلحوا قصياً فى شِراهُ ولوموا شيخكم إذ كان باعهْ (۱)

ولما مات حليل الخزاعى، أبت خُزاعة أن يكون قصى ولى أمر الكعبة ومكة المكرمة، فأخذت المفتاح منه، فاستنصر قصى قريشاً وبنى كنانة فأجابوه‌النصر، وأرسل إلى أخيه لأمه «رزاح» فخرج رزاح واخوته لأبيه فى حاج العرب مجتمعين لنصر قصى والقيام معه، فلما كان آخر أيام منى أرسلت قضاعة إلى خُزاعة يسألونهم أن يسلموا إلى قصى ما جعل له حليل، وعظموا عليهم القتال فى الحرم، وحذرهم الظلم والبغى بمكة، وذكروهم ما كانت فيه جُرهم، وما صارت إليه حين ظلموا وبغلوا فيها، فأبت خزاعة ذلك واقتتلوا قتالًا شديداً. آلَ الأمر بالنهاية أن يحكموا لقصى بحجابة الكعبة وولاية أمر مكة وأسلمت خزاعة لقصى، وتملك على قومه فملكوه، وكان قصى أو رجل من بنى كنانة أصابَ ملكاً وأطاع له به قومه، فكانت له الحجابة، والرفادة، والسقاية، والندوة، واللواء، والقيادة. وجمع قريشاً بمكة وسُمى بذلك مجمعاً أو قرشياً (۲). وقصى الجد الخامس للنبى محمد صلى الله عليه و آله وهو من بنى اسماعيل النبى عليه السلام بن إبراهيم الخليل عليه السلام (۳).

وقد كانت ولاية البيت فى خُزاعة ثلاثمائة سنة، واستقام أمر قصى، وعشّر من دخل مكة من غير قريش، وبنى الكعبة، ورتب قريش على منازلها فى النسب بمكة، وبيّن الأبطحىَّ من قريش، وهم الأباطح، وجعل الظاهرى ظاهرياً.

ظهور قريش واستيلاؤها على الكعبة

۱- ۱ مروج الذهب، المسعودى ۲: ۶۳.

۲- ۲ أخبار مكة ۱: ۱۰۷.

۳- ۳ معجم الحضارات السامية: ۶۸۸.

ص: ۲۳۹

ظهرت قريش فی عهد قصی کما ذکرنا، وکان السبب فی تسمیتهم لأن تفسیر ذلک الأمن، وتقرّشت، والتقرش: الجمع، ومنه قول ابن حِلِّزة الیشکری:

إخوة قَرَّشوا الذُنوب علینا فی حدیث من دَهرِنا وقدیم (۱)

وکانت قریش قبائل متفرقة جمعها قصی بن کلاب، فسمیت قریشاً، فالتجمع فی بعض کلاب العرب یعنی التقرش، ویُقال: کان یُقال لقصی القرشی ولم یسم قرشی قبله، ویُقال أیضاً: إنّ النضر بن کنانة کان یُسمی القرشی وقد قیل: إنما سمیت قریش قریشاً؛ لأنها کانت تجاراً تکتسب وتتجر وتحترش فشبهت بحوت فی البحر تسمی «قریشاً» (۲).

وظهرت قریش علی ساحة مکة، فلما حاز قصی بن کلاب شرف مکة، وأنشأ دار الندوة، کانت قریش تقضی فیها أمورها، ولم یکن یدخلها من قریش من غیر ولد قصی إلّاابن أربعین للمشهورة، وکان یدخلها ولد قصی کلهم، وحلفاؤهم، فلما کبر قصی ولّی ولدیه عبدالدار وعبدمناف أمور الکعبة، فأعطی عبدالدار السدانة وهی الحجابة، ودار الندوة، واللواء، وأعطی عبد مناف السقایة والرفادة والقیادة.

وبعد وفاة عبدالدار جعل الحجابة بعده إلی ابنه عثمان بن عبدالدار، وجعل دار الندوة إلی ولده عبدمناف بن عبدالدار، ثم ولی أمورها عامر بن هاشم بن عبدمناف بن عبدالدار وجاء بعده عثمان، ثم ولیها عبدالعزی بن عثمان بن عبدالدار،

۱- ۱ مروج الذهب ۲: ۶۵.

۲- ۲ أخبار مکة ۱: ۱۰۹.

ص: ۲۴۰

ثم وليها طلحة بن عبداللَّه بن عبدالعزى ثم وليها ولده حتى كان فتح مكة، فقبضها رسول اللَّه محمد صلى الله عليه و آله بن عبداللَّه بن عبدالمطلب (۱) وحطّم أصنام الكعبة، وولى الأمور كلّها؛ ليعيد الحج الإبراهيمى الأصيل فيها بعد أن حُرّف وتغيرت معالمه.

عبادة الأصنام فى الكعبة الشريفة

اتفق المؤرخون والرواة، أنّ أول من نصب الأصنام فى الكعبة «عمرو بن لحى» وهو ربيعة بن حارثة بن عمر بن عامر من خزاعة وكان زعيماً لها، وقد نقل فكرة الوثنية من بلاد الشام التى زارها، ورأى وثنية أهلها، فتأثر بها وغيّبَ معالم التوحيد ودنّس البيت الحرام. وجاء بالصنم الكبير «هُبل» من هيت (۲)، من أرض الجزيرة فنصبه فى بطن الكعبة، فكانت قريش والعرب تستقسم عنده بالأزلام، وهو أول من غيّر الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام وولده إسماعيل، فقد كان أمره عند عرب مكّة مطاعاً لا يُعصى وقد ذكرنا سابقاً أنه زعيم خزاعة، وانتصرت بقيادته على قبيلة جُرهم، وبلغ بمكة وفى العرب من الشرف ما لم يبلغ عربى قبله ولا بعده فى الجاهلية.

ذكر الأزرقى فى أخبار مكة عن هذا الرجل وتأكيده على الأصنام قائلًا: «إنّ جرهماً لما طغت فى الحرم، دخل رجل منهم بامرأة منهم الكعبة ففجر بها، ويقال:

إنما قبّلها فيها فمسخا حجرين اسم الرجل أساف بن بغاء، واسم المرأة نائلة بنت ذئب، فأخرجا من الكعبة، فنصب أحدهما على الصفا والآخر على المروة، وإنما نصبا هنالك ليعتبر بهما الناس، ويزدجروا عن مثل ما ارتكبا... فلما كان عمرو بن

۱- ۱ المصدر السابق: ۱۱۰.

۲- ۲ هيت: بلدة فى العراق.

ص: ۲۴۱

لحى (قد ولى الكعبة) أمر الناس بعبادتهما والتمسح بهما» (۱) (۲).

وظلَّ الحجاج من أهل مكة ومن غيرهم يعبدون هذين الصنمين المذكورين، ويتمسكون ويتمسحون بهما ويقدمون لهما النذورات والذبائح وينحرون لهما حتى جاء قصى بن كلاب، فصارت إليه الحجابة وأمر مكة، فنقلهما من الصفا والمروة، وجعل أحدهما بلصق الكعبة، وجعل الآخر فى موضع زمزم، وكان أهل الجاهلية يمرون بأساف ونائلة ويتمسحون بهما، وكانوا إذا طافوا بالبيت يبدأون بأساف فيستلمه الحاج، فإذا فرغ من طوافه ختم بنائلة فاستلمها، فكانا كذلك حتى كان يوم الفتح، فجاء رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فكسّرهما، وحين دخل الرسول صلى الله عليه و آله والمسلمون فاتحين مكة المكرمة، كان عدد الأصنام فيها «ثلاثمائة وستين صنماً» وقد كسرها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله جميعاً (۳).

وفى ذلك يقول فضالة بن عمير بن الملوح الليثى فى ذكر يوم الفتح:

أوما رأيت محمداً وجنوده بالفتح يوم تكسر الأصنام؟!

لرأيت نور اللَّه أصبح بيننا والشرك يغشى وجهه الاظلام (۴)

حادثتا (تبع) و (الفيل) ومنزلة الكعبة

للكعبة الشريفة منزلة عظيمة عند اللَّه تعالى فقد حفّها برعايته، وخصّها بكرامات سجّلها التاريخ، منها صيانتها من الشر والخراب، فقد تشتت قوم جُرهم

۱- ۱ انظر أخبار مكة ۱: ۱۱۹- ۱۲۰.

۲- ۲ وذكر المسعودى فى مروج الذهب ۲: ۵۵، الخبر نفسه وأضاف وقيل: بل هما حجران نحتا ومُثّلا بمن ذكرنا وسميا بأسمائهما أساف ونائلة.

۳- ۳ أخبار مكة ۱: ۱۲۱.

۴- ۴ المصدر نفسه.

ص: ۲۴۲

لظلمهم فيها وطغيانهم، وخزاعة هى الأخرى وكذلك قريش وكلّ من يحاول الاعتداء عليها أو الاستخفاف بها، فقد قضت حُرمة الكعبة على قوم تبّع وأصحاب الفيل، أما تُبّع فهو اسم لأحد ملوك اليمن، والتبابعة لقب ملوك اليمن، وكان للتبابعة دولة وصولة فى اليمن وغيره، وكانوا أحسن حالًا وأكثر مالًا من قريش، ولما عتو عن أمر ربّهم أخذهم بالهلاك والدمار.

قال تعالى أهم خير أم قوم تبّع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين (۱)

.والتبابعة الذين أرادوا هدم الكعبة وتخريبها ثلاثة، وقد كان قبل ذلك منهم من يسير فى البلاد، فإذا دخل مكة عظم الحرم والبيت.

وتُبّع الثالثة التى صممت على هدم البيت الحرام كانت بالدّفِ من جمدان بين أمج وعسفان، دفت بهم دوابهم، وأظلمت الأرض عليهم، فدعا- تُبع ملكهم- أحباراً كانوا معه من أهل الكتاب، فسألهم فقالوا: هل هممتَ لهذا البيت بشىء؟

قالَ: أردتُ أن أهدمه. قالوا: فانوِ له خيراً أن تكسوه، وتنحر عنده، ففعل، فانجلت عنهم الظلمة (وإنما سُمى الدف من أجل ذلك)، فسار وتكررت الحالة ثلاثِ مرات، فقال الأحبار له: واللّه ما أرادت هذيل (۲) فى دفعك بهذا إلّاهلاكك وهلاك قومك، إنّ هذا بيت اللّه الحرام ولم يرده أحد قط بسوء إلّاهلك... فضرب تُبع أعناق الهذليين وصلبهم، فرآى فى المنام أنه يكسى الكعبة، فكساها كسوة كاملة، كساها العصب، وجعل لها باباً يُغلق بضُبة فارسية. قال ابن جريج: كان

۱- ۱ الدخان: ۳۷.

۲- ۲ هذيل: قبيلة عربية كبيرة قطنت شمالى الجزيرة، فريقٌ منهم حثَّ تُبّعاً على هدم الكعبة حسداًلقريش على ولايتها البيت. لكنهم دافعوا عن الكعبة وقاتلوا قتالًا شديداً حينما همَّ إبرهة الحبشى بهدم الكعبة، انظر معجم الحضارات السامية هنرى س. عبودى: ۸۸۲.

ص: ۲۴۳

تُبّع أول من كسا البيت كسوة كاملة (۱).

وقد جاء فی الحدیث عن الرسول صلی الله علیه و آله قال: «لا تسبوا تبعاً فإنه قد أسلم» (۲).

وروی عن الصادق علیه السلام قال: «إن تُبعاً قال للأوس والخزرج: کونوا هاهنا حتی یخرج هذا النبیّ، أما أنا فلو أدرکته لخدمته وخرجتُ معه» (۳).

هذا ما کان لقوم تُبّع، أما قوم إبرهة الأشرم أو الحبشی (أصحاب الفیل) فقد ذکرهم القرآن الکریم وکیفیة هلاکهم عن آخرهم نتیجة ما کانوا یکیدون للکعبة وتدمیرها، وملخص ما جاء من أمرهم فی تفاسیر القرآن الکریم: أنّ الأحباش بعد أن انتصروا علی ملک الیمن، وتسلط إبرهة الأشرم علی الیمن، بنی القلیس بناءً من الذهب والفضة محکماً یضاهی الکعبة، ودعا الناس للحج إلیه بدل الکعبة، وانتشر خبره فی العرب، فدعا رجل من بنی مالک بن کنانة رجلین من العرب لیذهبا ویحدثا فیه، فدخل إبرهة البیت فرأی أثرهما فیه، فغضب وأقسم علی هدم الکعبة، وتخریبها، فسار مع جیشه یتقدمهم فیل أو أکثر حتی وصلوا إلی مکان بالقرب من مکة یُقال له: «المغمّس» فنزلوا فیه، وأرسل إبرهة إلی قریش مَن یخبرهم بأنه لم یأتِ لحربهم، وإنما لهدم البیت والحرم، فإن لم یعرضوا له بحرب فلا حاجة له بدمائهم. وما أن همَّ إبرهة بهدم البیت أرسل اللّه علیه وعلی جیشه أسراباً من الطیر ترمیهم بحصی صغیرة لا تصیب أحداً منهم إلّاهلک، ومات وتناثر لحمه، فذعر الجیش وصاحبه، وفرّوا هاربین ومات إبرهة بعد أن وصل صنعاء، وسقط لحمه قطعة قطعة إلی أن انتهی (۴).

۱- ۱ أخبار مکة ۱: ۱۳۳- ۱۳۴.

۲- ۲ المیزان فی تفسیر القرآن، الطباطبائی ۱۸: ۱۵۴.

۳- ۳ المصدر السابق نفسه.

۴- ۴ انظر الکاشف مج ۷: ۶۰۹- ۶۱۰، والمیزان، ومروج الذهب ج ۲، وأخبار مکة ۱: ۱۳۴- ۱۵۴، والطبری وغیرها من کتب التاریخ والتفسیر.

ص: ۲۴۴

قال تعالى أَلم ترَ كيف فعل ربّك بأصحاب الفيل* أَلم يجعل كيدهم فى تضليل* وأرسل عليهم طيراً أبابيل* ترميهم بحجارة من سجيل* فجعلهم كعصفٍ مأكول (۱)

.يقول د. طه حسين فى كتابه «مرآة الإسلام»: «وفى هذه الموقعة أظهر عبدالمطلب من الصبر والجلد، ومن الشجاعة والثقة ما لم يظهره غيره من أشراف قريش، ذلك أنه قد أشار على قريش أن تخلى مكة، فسمع له قومه، وأقام هو بمكة لم يعتزلها، وإنما أقام عند الكعبة يدعو اللَّه ويستنصره. ويقول الرواة: إنّ الجيش أغار على إبل قريش فاحتازها، وجاء عبدالمطلب إلى إبرهة، ولما دخل عليه لم يكلمه إلّافى إبلٍ له، فصغر فى نفس إبرهة وقال له: كنتُ أظن أنك تكلمنى فى شأن مكة، وشأن هذا البيت الذى تعظمونه. قال عبدالمطلب: إنى أكلمك فى مالى الذى أملكهُ، أما البيت فإنّ له ربّاً يحميه إن شاء. فأرسل اللَّه على إبرهة وجيشه من تلك الطير، التى ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصفٍ مأكول، وعادت قريش إلى مكة، فازداد إكبارهم لعبدالمطلب وشجاعته وثقته وثباته» (۲).

وبذلك حمى اللَّه تعالى بيته من إبرهة ومن كلّ من نوى لها سوءاً. وهكذا صمدت الكعبة الشريفة فى وجه أكبر الحوادث التاريخية حيث فشلوا فى خرابها والقضاء عليها.

بعثة محمد صلى الله عليه و آله وفريضة الحج

ولد محمد بن عبداللَّه بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف بن قصى بن حكيم (كلاب) بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن

۱- ۱ الفيل: ۱- ۵.

۲- ۲ نقله محمد جواد مغنية فى تفسير الكاشف ۷: ۶۱۰، عن مرآة الاسلام، د. طه حسين.

ص: ۲۴۵

خزيمة بن مدركة بن الليلس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أدد، وينتهى نسبهُ الشريف إلى اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام (۱)، ولد فى مكة وهى أشرف بقاع العالم، ولم يولد نبىّ قبله ولا بعده- حسب اطلاعنا- فى هذه البقعة المباركة الشريفة إلّا هو، وقد شرّفه اللّه تعالى وكرّمه وجعله سيد البشر وسيد الأنبياء وخاتمهم وجعل تابعيه خير أمّة أخرجت للناس، وبعثه فى عامه الأربعين فى محل ولادته نبياً للناس كافة، قال تعالى

وما أرسلناك إلّاكافةً للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون (۲)

.بُعث صلى الله عليه و آله فى قوم يعبدون الأصنام فى البيت الحرام، وكانت أصنامهم أساس الحياة خصوصاً عند قريش زعيمة العرب فى مكة آنذاك، إذ كانت القرابين تقدم لهذه الأصنام، وفى ذلك مصلحة اقتصادية وأدبية لقريش التى كانت تحمى الدار، فالقضاء على «الدين الوثنى» يعنى القضاء على منافع قريش وزعامتها.

لذلك كانت مهمة رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى نشر الدين الجديد مهمة شاقة جدّاً، كمهمة أبيه ابراهيم عليه السلام، فقد ندّد بالوثنية والمعتقدات التى لا تتلاقى مع وحدانية اللّه، وأظهر فساد نظمهم الاجتماعية، مما أثار غضب قريش عليه ومقاومتها إياه مقاومة شديدة حتى قال صلى الله عليه و آله: «ما أوذى نبىّ مثل ما أوذيت».

ومضى محمد صلى الله عليه و آله يواصل الدعوة بثقة، ومضت الصفوة من الدعاة تواصل السير معه وتترسم خطاه المباركة، وقد أعيى قريشاً إصرارُ محمد صلى الله عليه و آله وأصحابه على تحدّيها فراحت تجدُّ فى تحطيم دعوته وتعذيب المؤمنين به، مما اضطره للهجرة

۱- ۱ الاعلام، الزركلى.

۲- ۲ سبإ: ۲۸.

ص: ۲۴۶

إلى يثرب، بعد أن هاجر مئتا مسلم بإذنٍ منه صلى الله عليه و آله قبل هجرته بشهرين، قسمٌ منهم هاجر إلى الحبشة، وقسمٌ آخر إلى المدينة. ثم استقر الجميع فى المدينة التى كانت تسمّى ب «يثرب» (۱) قبل هجرته صلى الله عليه و آله وتشرّفها به فسمّيت «مدينة الرسول».

وحين وصول النبىّ الأكرم إليها شرع ببناء الدولة الإسلامية حيث توفرت له عناصرها- الأرض، الأمة، السلطة السياسية المتمثلة بقيادته الحكيمة-، فأسس المسجد؛ ليكون منطلقاً للقيادة ومركزاً لبناء الدولة إلى جانب مهام المسجد العبادية والفكرية، وقد تمثل بناء الدولة فى الخطة الحكيمة التى وضعها رسول اللَّه فى بناء الجبهة الداخلية بمؤاخاة المهاجرين والأنصار، والمساواة بينهم فى الحقوق والواجبات، وعقد معاهدة مع اليهود بعدم الاعتداء، ثم تكوين الجيش المسلم والقوة المسلحة للجهاد فى سبيل اللَّه، وبناء جهاز إدارى متين، وعلاقات خارجية ببعث رسائل إلى بعض الملوك والحكام وغيرها من الأمور.

والذى يهمنا هنا أنّ الرسول صلى الله عليه و آله أصبح قوة لا تستطيع قريش مقابلتها، فجهّز جيشاً من عشرة آلاف مقاتل وسار سرّاً ليباغت قريشاً، وليصادر إمكانية الدفاع من يدها، ولئلا يقع قتال فى مكة الأمن والسلام.

وتحرك جيش محمد صلى الله عليه و آله صوب مكة فى العاشر من رمضان سنة ثمان للهجرة، واستخدم حرباً نفسية بإشعال النيران فى الصحراء على مقربة من مكة؛ ليُشعر قريشاً بقوة الجيش الإسلامى، ويثير الرعب فى نفوس طغاتها، ويحملهم على الاستسلام والخضوع من غير قتال (۲).

وهكذا دخل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله- الذى خرج من مكة مستخفياً يطارده كفارها-

---

۱- ۱ يثرب: مدينة زراعية تقع على بُعد أربعمائة وخمسين كيلومتراً إلى الشمال من مكة المكرمة.

۲- ۲ راجع تاريخ الطبرى، ومروج الذهب، وقصة الحضارة وغيرها من كتب التاريخ فى فتح مكّة.

ص: ۲۴۷

دخل فاتحاً محطّماً أعظم حصون الشرک والجاهلية، ولم يستطع الذين حاربوه طوال واحد وعشرين عاماً أن يصمدوا أمام قوة الإيمان الزاحفة، فاستسلموا، وأتوا إليه مذعنين، ودفعوا إليه الجزية التى فرضها عليهم صاغرين منكسرين.

وبهذا ثبتت الدولة والدعوة وأركانها فى الجزيرة وتحقق الفتح المبين، واستلم الرسول صلى الله عليه و آله ولاية الكعبة وحطّم أصنامها، وصار يُطافُ بها كما طاف ابراهيم وابنه اسماعيل عليهم السلام من قبل حوالى خمسة آلاف من السنين، واستُجيبت دعوة ابراهيم عليه السلام: ربّنا وابعث فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياتک ويُعلمهم الكتاب والحكمة ويُزكّيهم... (۱)

.وأذّن محمد صلى الله عليه و آله بالناس للحج، كما أذّن جده ابراهيم ودعاهم إليه، وعادت مناسک الحج الإبراهيمى كما خطّها جبرئيل لإبراهيم عليه السلام بإذن السماء...

الكعبة أحبّ بقاع الأرض إلى اللّه

لقد ورد فى الروايات الشريفة، عن خاتم الأنبياء والرسل محمد صلى الله عليه و آله وعن آله الأطهار: أنّ أحبّ بقاع الأرض إلى اللّه تعالى هى الكعبة الشريفة. إضافةً إلى ما أشارت إليه الآيات القرآنية كما ذكرنا سابقاً...

قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله حين هجرته إلى يثرب ملتفتاً وراءه ناظراً إلى الكعبة الشريفة مناجياً إياها: «واللّه إنّک لأحبّ البقاع إلى اللّه، ولولا أنّى أُخرجتُ منک ما خرجت» (۲).

وروى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «أحبّ الأرض إلى اللّه عزّوجلّ مكة، ما

۱- ۱ البقرة: ۱۲۹.

۲- ۲ أخبار مكة، الأزرقى ۱: ۵، ونقلتها بعض كتب التفسير منه كالكاشف والميزان وغيرها.

ص: ۲۴۸

تربـة أحبُّ إلى اللَّه عزّوجلّ من تربتها، ولا حجر أحبُّ إلى اللَّه عزّوجل من حجرها، ولا شـجر أحبُّ إلى اللَّه عزّوجل من شـجرها، ولا جبال أحبُّ إلى اللَّه عزّوجل من جبالها، ولا ماء أحبُّ إلى اللَّه عزّوجل من مائها» (۱).

وقـال عليه السـلام أيضـاً: «مـا خلق اللَّه تبـارك وتعـالى بقعـةً فى الأـرض أحبّ إليه منها- وأومأ بيـده نحو الكعبـة- ولا أكرم على اللَّه عزّوجلّ منها، لها حرّم اللَّه الأشهر الحُرم فى كتابه يوم خلق السماوات والأرض» (۲).

وهنـاك روايـات أخرى نسـتغنى عن ذكرهـا ونكتفى بما ذكرنا، ويكفى أن نسـتنتج حبّ اللَّه تعالى للكعبـة الشـريفة ممّا يعطيه لزائرها وللحاج إليها... فقد جاء فى الصحيح:

«الحـاج ثلاـث أصـناف: صـنفٌ يُعتقُ من النـار، وصـنفٌ يخرج من ذنوبه كيوم ولـدته أمّه، وصـنفٌ يُحفظ فى أهله وماله وهو أدنى ما يرجع به الحاج» (۳).

الحج بين ابراهيم عليه السلام ومحمد صلى الله عليه و آله

ومما تقدم يتضح أن ليس هناك فرقٌ بين حج أبى الأنبياء الخليل إبراهيم عليه السـلام وحج خاتم الأنبياء الحبيب محمد صلى الله عليه و آله؛ وهو حجّ واحد أصيل... بعيد كلّ البعد عن الإضافات البشرية والزوائد واللواحق الخارجة عن الحج الحقيقى...

ولكن للزمـان معـاوله وأنيـابه، وللإنسـان أهواؤه ورغباته الدنيويـة... وقـد لعبت فى الأصول والمقـدسات فحرفتها وأخرجتها فى أحيان كثيرة عن خطّها الطبيعى الذى وضعه اللَّه تعالى ..

۱- ۱ المحجة البيضاء، الفيض الكاشانى ۲: ۱۵۲، والفقيه: ۲۱۵ تحت رقم ۸.

۲- ۲ المصدر السابق نقلًا عن الكافى، الكلينى ۴: ۲۵۳، والتهذيب ۱: ۲۴۸.

۳- ۳ المصدر السابق نقلًا عن الكافى، الكلينى ۴: ۲۵۳، والتهذيب ۱: ۲۴۸.

ص: ۲۴۹

فقد شَوَّه أو حَرَفَ هذا الخط الإلهى (الحج) كثيرٌ من ولاة الكعبة الشريفة وغيرهم ممن جاؤوا (۱) بعد النبى ابراهيم عليه السلام فجعلوه مجرد طقوس خاوية وأفعال مادية جسدية محدّدة، وأخرجوه من معناه الروحى والقدسى الذى أراده اللّه تعالى ..

فلم تعد الكعبة ذلك الصرح الإلهى العظيم الذى أقامه النبى إبراهيم الخليل عليه السلام ووضع قواعده، والهدف الإلهى الذى استهدفه من تأسيسها...

وإنما أصبحت مركزاً ومقراً للأفكار والأوضاع التى حملها العرب فى العصر الجاهلى بما يحملون من روح وثنية من خلال إدخالهم الأصنام فيها وعبادتهم لها، والتقرب من خلالها إلى اللّه زلفاً، أو مركزاً للأعاجم من فرس وغيرهم ممن لم يؤمنوا إيماناً صحيحاً، وإنما جاؤوا لإحياء ذكريات أو لأغراض أخرى غير دينية ولا إلهية من قبيل التجارة أو الترويح عن النفس، أو لقضاء الحاجة من خلال تقديم النذور والقرابين مما ورثوه من عادات وعقائد...

وهكذا ابتعد الحج عن أهدافه السامية الأولى الروحية والمعنوية، وصار مجرّد شكل ومظهر مادى لا مضمون فيه ولا روح...

وبُعث النور الأعظم، النبى محمد صلى الله عليه و آله وغيّر الدنيا، وغيّر المجتمع، وإذا بالكعبة والحج الأصيل نفسه يعيد مجده السالف التليد الذى أرساه النبى ابراهيم الخليل عليه السلام وأبناؤه وأحفاده المخلصون...

جاء محمد بن عبداللّه صلى الله عليه و آله ليضع الحج فى موقعه المناسب، الحج الأبدى، ما دام الإنسان حيّاً يجرى على سطح الأرض...

۱- ۱ نقصد بالذين جاؤوا بعد النبى ابراهيم عليه السلام فى منطقة الجزيرة من السدنة والولاة والحكام، وليس الأنبياء بين ابراهيم عليه السلام ومحمد صلى الله عليه و آله؛ لأنهم حجوا إليها كما حج ابراهيم عليه السلام وهو ما مرّ علينا سابقاً.

ص: ۲۵۰

جاء الحج فى لمساته الأخيرة ركناً مرتبطاً كامل الارتباط بالخالق البارئ عزّوجلّ، وممتداً امتداداً طويلًا إلى كلّ إنسان يجرى فى المعمورة؛ ليصوغ منه شخصية اجتماعية تستمد من الحج (ذلك الاجتماع الكبير) مفاهيم صادقة وقيماً عالية، تنظر إلى الآخرين نظرتها إلى نفسها... باعتباره عبداً من ملايين العبيد للّه عزّوجل...

وهكذا عاد الحج الإبراهيمى على يد رسول اللّه صلى الله عليه و آله بعد أن ابتعد عن ابراهيم عليه السلام رويداً رويدا وخلف عن سلف كما قال تعالى فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً (۱)

۱- ۱ مريم: ۵۹.

ص: ۲۵۱

ص: ۲۵۲

ص: ۲۵۳

الفصل العاشر: الحج فی النظریة والتطبیق والمشترکات والاختلافات

اشارة

الحج فی الإسلام لا یتکامل أساساً إلّامن خلال عدد من الممارسات والأفعال المیدانیة الخاصة، یستمد قوته وتکامله من مصدر غیبی إلهی یتمثّل بالقرآن الکریم والسُنة النبویة الشریفة، ومصادر التشریع الإسلامی الأخری ..

وهو علی هذا الأساس المبین یصبح کیاناً مقدساً له أهمیته فی الشریعة الإسلامیة وحیاة المسلمین.

ولا شک أنّ الحج فی الدیانات الأخری إذا خضع لضوابط ذلک الدین وشعائره وممارسته التی استمدها من مصدر إلهی یکون- وبالطبع فی وقته، قبل الدیانات الناسخة، وقبل مجیء الدین الإسلامی- شرعیاً ومرضیاً للّهعزّوجلّ ومبرئاً للذمة.

من هنا تکون نقطة الالتقاء بین الحج فی الدین الإسلامی المجید والحج فی الدیانات السماویة الأخری أما الدیانات الوضعیة فلا لقاءَ بینها وبین الحج الإسلامی أبداً؛ لأنها غیر إلهیة وغیر شرعیة فی الأساس.

والحقیقة التی لابد من تأکیدها هی: أنّ الحج حاجة فطریة شرعها اللّه تعالی

ص: ۲۵۴

استجابة للفطرة التی فطر الناس علیها. وقد کان معروفاً فی الأدیان ومارسه الأنبیاء جمیعاً، منذ آدم علیه السلام حتی خاتمهم کما ذکرنا سابقاً، وفی الوقت نفسه مارسته الأدیان الوضعیة والجاهلیة کما ذکرنا أیضاً لحاجتها النفسیة إلیه، ومن هنا جاء الفارق الکبیر بین الحج السماوی والوضعی، فهو فی الحالة الوضعیة لم یجعله الواضع موافقاً لحاجة الإنسان الفطریة بالشکل المتکامل؛ لأنّ الواضع قاصر ومحدود.

وکما ذکرنا سابقاً أنّ الدیانات السماویة کالیهودیة والمسیحیة وجدنا حجّها قد تعدد فیه الزمان والمکان، واختُلقت طقوس خاصة بین المذاهب المتعددة، کلٌ حسب توجهاته واعتقاداته، وألزموا أنفسهم بحجٍّ حرفه الأسلاف أو بالأحری ابتدعه الأسلاف، أما الدین الإسلامی فقد جعل من هذه الفریضة کمال الدین ووحدة المسلمین ووحدة الزمان والمکان، وبکلمة أخری فالحج الإسلامی، الحج الأکمل والأصفی والمتعالی علی الزمان والمکان، صلح لأبناء الإسلام، أمام الدعوة الإسلامیة الأولی وهو الیوم کذلک وسیکون للأجیال المستقبلیة القادمة أیضاً کما بدأ أول مرّة. وهذا هو الفارق الأساس بین الحج الإسلامی وغیره.

ویظهر الفارق جلیاً عندما تحسُّ النفس أنّ الطقوس التی تمارسها مستمدة من المطلق ومرتبطة بالغیب، وسیحصل القائم بها علی خیر الدنیا والآخرة، أو أنها مجرد سفرة مریحة للنفس مرفهة لها عن همومها وآلامها بمسکن موقت مرتبط بالأرض.

وعلی هذا یمکن القول: إنّ الحج فی الإسلام هو رمز نموذجی جاء لتلبیة الحاجة النفسیة الروحیة الملحة داخل الانسان، والتی تندک فیها الفکرة والمضمون فیصیران کلًا واحداً، لا یتحملان الفصل والافتراق والتباعد، فالفصل بینهما یحوّل الشعیرة الإلهیة إلی طقس مجرّد، وعادة فارغة من المضمون والروح، عادة لا تتجاوز ذاتها ولا تشع بأی إیحاء، کما نشاهد ذلک عند غیر المسلمین فی حجهم

ص: ۲۵۵

واکتضاض طقوسهم ورموزها الخالیة المجردة، والتی هی أقربُ إلی الترفیه والترویح عن النفس منها إلی الحج الحقیقی الأصیل الذی یدور محوره حول الانسان نفسه وسلوکه ومرضاة اللّه.

وبناءً علی هذا الفهم یمکننا أن نصنف الدلالات الحقیقیة للحج والممارسات اللازمة له، ویمکننا أیضاً أن نبین نقاط الاشتراک والاختلاف بین الحج فی الإسلام والحج عند غیر المسلمین بصورة عامة:

فقد اشترکوا واتفقوا مع الحج الإسلامی فی نقاط، واختلفوا وتباعدوا وافترقوا فی نقاط أخری یمکننا أن نعرض بعضاً منها:

نقاط الإشتراک

۱- تلبیة حاجة انسانیة ضروریة

الانسان فقیر وبحاجة إلی غنی، وناقص وبحاجة إلی کامل، وضعیف وبحاجة الی قوی یسنده. فالمسلمون عرفوا الغنی الکامل والقوی واتجهوا إلیه، ولبّوا ما شرعه لهم و فَفروا إلی اللّه (۱)

لیغرس فی نفوسهم الأمن والأمان والطمأنینة والسلام والحریة والکمال، فاتجهوا نحو الکعبة بیته العتیق لیستمدوا فیض هدًی منه ورشاد وسیل فوائد ومنافع دنیویة وأخرویة، ویصبح لهم- الحج- سیاج عزة ومنعة أمام أعدائهم...

أما غیر المسلمین، أصحاب الدیانات المحرفة والوضعیة فقد أحسّوا بهذه الحاجة الفطریة واتجهوا إلی ما صوره خیالهم أنه هو الحق؛ لیکملوا نقصهم به ویغنوا فقرهم بطلب جماعی یشعرهم بالقوة والطمأنینة؛ لوجودهم معاً فی مکان

۱- ۱ الذاریات: ۵۰.

ص: ۲۵۶

مقدس يشعرهم بالراحة النفسية والشفافية الروحانية بعيداً عن المطالب المادية المنهكة للنفس...

وقد اتفقت البشرية فى كلّ زمان ومكان على أهمية هذه الزيارة الجماعية السنوية للفرد والمجتمع، وما لها من أثر على الفرد نفسه وعلى مجتمعه...

يقول د. حسن ظاظا: «ومن المؤكد أنّ الانسان فى العصور السحيقة قبل التاريخ، كان يرتاد بقاعاً من الأرض يجد لها رهبة، أو راحة نفسية، أو شفافية روحانية، يحلق بها فى آفاق أسمى من المطالب المادية التى تحاصره. ثم تبلور هذا الشعور فى العصور التاريخية القديمة... الخ» (۱).

والحج فى الواقع حالة تعبّر عمّا يموج فى نفس الانسان من الحاجة إلى سمو النفس وترفعها عن الحياة المادية إلى الحياة المعنوية والروحية.. وعن الحياة الفردية إلى الحياة الاجتماعية التى تزيد النفس قوة واطمئناناً وراحة، ثم خروج الهموم والغموم من داخل الانسان من خلال البوح بها إلى معبوده المتكامل، وأمور أخرى نفسية واجتماعية، بالرغم من الصعاب والمشاق التى يواجهها الحاج خلال سفره إلى الحج.

هذه الحالة، هى صفة انسانية مشتركة... وهى صفة أساسية تنبع من الفطرة كما ذكرنا فى مقدمة الفصل؛ لذلك وجدنا الحج فى كلّ زمان ومكان فى الديانات السماوية الأخرى والأخرى الوضعية يحتاجه صاحب النفس الصادقة، والقلقة على السواء، المتدين وغير المتدين، وبكلمة واحدة: إنّ الحج هو تلبية روحية مزيدة تشبع النفس وتروى الروح، ومن ذهب إلى الحج ومارس شعائره، يبقى يعيش فى هذه التلبية بكلّ معانيها...

۱- ۱ الفيصل، طقوس الحج عند اليهود، مقال د. حسن ظاظا، العدد ۲۱۰: ۹.

ص: ٢٥٧

٢- القصد والزيارة

يتفق حج غير المسلمين مع المسلمين فى القصد والزيارة إلى أماكن معينة فى وقت محدد؛ لأنّ للحج نية فى القصد لارتياد تلك البقعة أو ذلك المكان إضافةً إلى الأعمال المقدسة فيه.

والحج ليس حالة سائبة وإنما تنظيم شعائرى وعقيدى يرمز لأصحابه ومعتقديه والقائمين به.

والقصد والزيارة إلى أماكن الحج من المشتركات فى كلّ أنواع الحج فى موكب الحضارات والأُمم والأديان المختلفة، وهذا القصد لا يكون فردياً، بل من شروطه الجماعة والمكان والزمان والطقس أو الشعيرة، وإن لم تتحقق هذه اللوازم للحج لا- يكون حجّاً، بل زيارات عادية من الممكن أن تحصل فى أى وقت والى أى مكان...

الحقيقة أنّ الفرق بين الحالتين، هو الفرق بين قانون أو ناموس قد يكون إلهيّاً وقد يكون من وضع البشر، وبين حالة بشرية عادية غير مرتبطة بناموس أو مصدر قانونى محدد...

إنّ الصفة الأولى ثنائية الزمان والمكان والجماعة أو الطقس والشعيرة وهى ما يعبر عنها (بالحج) والصفة الثانية هى انعدام هذه اللوازم وهى ما يعبر عنها (بالزيارات العادية).

إذن فالحج عند الجميع إضافةً إلى قدسيته وأهميته العقائدية والدينية، هو حالة شعائرية مؤطرة بإطار يميزها عن كثير من العبادات التى يتميز الكثير منها بعدم القيود والأطر الخاصة.

فالانفراد مثلًا فى أى مكان مقدس مسجداً كان أو مزاراً أو كنيسة أو معبداً أو بيتاً مقدساً أو جبلًا أو... لا يمكن أن نطلق عليه حاجاً، وإن بذل العابد فيه كلّ

ص: ۲۵۸

طاقاته وكلّ ما يملك فى ذلك المكان...

إذن، فارتياد مكان فى زمان متفق عليه مع الجماعة التى تربطها رابطة العقيدة والدين وممارسة شعائر ذلك المكان، من مشتركات الحج عند المسلمين وغيرهم.

۳- الطقوس والشعائر

يتميز الحج عن غيره من العبادات الكثيرة أنه عمل ذو فعاليات عديدة ومتنوعة خلافاً لكثير من العبادات المحدودة. ومن لم يمارس هذه الفعاليات على أصولها الشرعية وأحكامها الدقيقة التى شرعها الشارع المقدس أو وضعها الواضع الأرضى، لا يمكن أن يُطلق عليه اسم (الحج) بأى حال من الأحوال.

والمقصود بالممارسة هى أداء فعل معين محدد على وفق ما وضحه الدين (۱) للناس، والذى لا يمكن التلاعب به وتغييره إلّافى حدود ما يسمح به ذلك الدين.

وممارسة الطقوس والشعائر تتمثل بأعمال متنوعة حسب طبيعة ذلك الحج وموقعه فى دينه أو حضارته، فهناك إحرام، ولباس معين، وذبائح، وطواف، ونزول أماكن معينة فى وقت خاص، وعدم ممارسة فعل من المباحات التى يجوز الإتيان بها فى أيام غير أيام الحج، أما فى الحج فتصبح حراماً، وما إلى ذلك من الأعمال التى وردت فى الدراسات التى تناولت الحج فى التاريخ.

ويمكن أن نستشهد بنقطة اشتراك أساسية فى الحج عند أغلب الأمم والأديان: الطواف وتقديم القرابين والأضاحى اللّذان يعتبران عمودين من أعمدة الحج، بل يمكن القول: إنهما قوام الحج عند مختلف الأديان والأمم.

وبالطبع طقوس الحج وشعائره مرّةً تكون حقيقية أصلية، ومرةً تكون

۱- ۱ نقصد بالدين هنا: أى المعتقد إن كان سماوياً أو غير سماوى.

ص: ۲۵۹

مقتبسة، وتارةً أخرى تكون ابتداعية مختلفة، وفى كلّ الأحوال، يمكن القول: إنَّ من أساسيات الحج هو ممارسة أفعال وشعائر وطقوس، وبها يصبح الحج حجّاً، من حيث الشكل والمسمى وهذه من مشتركات الحج عند الجميع عبر التاريخ البشرى...

۴- الدعاء وطلب الحاجة والغفران

ما أضعف الانسان!

ما أضعفهُ تجاه كلّ شىء، وتجاه قوى الطبيعة، تجاه نفسه، تجاه ما حوله..!

فكيف به تجاه المطلق خالق كلّ شىء، قوى الطبيعة والحيوانات و... والكون كلّه. وقد صدق القرآن المجيد حين قال: خلق الإنسان ضعيفاً (۱)

!؟

إذن فالانسان كائن ناقص ضعيف، وفى الوقت نفسه يمكن القول: إنه كائن خائف، إن انفرد وحده دون قوة تدعمه وتحميه، وكان الانسان القديم يخاف قوى الطبيعة، الأشجار، الجبال، النجوم، الكواكب... ولعله عبدها خوفاً من قوتها ولضعفه تجاهها.

وقد ورد فى القرآن الكريم هذا المعنى فقد داوى الاضطراب والخوف بالاستناد إلى اللّه تعالى إلى القوة المطلقة العظمى حيث عالج كلّ ذلك بذكر اللّه تعالى قال عزّوجل: ألا بذكر اللّه تطمئن القلوب (۲)

والاطمئنان حاجة نفسية كبرى ..

وهذه الفريضة الجماعية فى الاسلام، أو هذا الموقف أو الحالة الجماعية التى يلجأ إليها الانسان فى الأديان الأخرى ماذا تعنى؟ لا شك أنها تعنى أنّ هناك

۱- ۱ النساء: ۲۸.

۲- ۲ الرعد: ۲۸.

ص: ٢٦٠

حاجة نفسية فطرية أولًا- كما ذكرنا- ونواقص بشرية كثيرة يحاول الانسان أن يسدّها بمختلف الأسباب والأعمال والجهود لحبّه الفطرى للكمال، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد سعى الانسان ومنذ القدم، منذ عرف الحج أن يطلب ممن يقصده ويعتقد بقدسيته أن يقضى حاجاته ويغفر ذنوبه وسيئاته ويرزقه ما يسعده، إضافةً إلى حاجاتٍ كثيرة لا تنقضى بالحالات الاعتيادية والطاقات المحدودة.

فالنفس صاغية إلى ربّها والى معتقدها، وأى مطلب أهم من أن تطلب حاجاتها؟ فهذه الصفة مشتركة ومهمة أساسية من أساسيات الحج عبر القرون الطويلة والتاريخ الانسانى المديد...

٥- التقرب للمعبود

إذا أحبّ الانسان شخصاً أياً كانت درجته، نوعه، غناه، فقره، يحاول التقرب إليه والتحبب إلى حضرته بشتى السبل، ببذل المال، ببذل النفس، ببذل الجهد...

بكلّ إمكاناته المتوافرة بين يديه، ولا شك أن درجة التقرب تعتمد أساساً على قيمة ذلك المُتقرب إليه... فعلى قدر مستواه، تأتى درجة التقرب، فالانسان الطيب النفس يُتقرب له بدرجة معينة، والوالى الكريم بدرجة أكبر، والأنبياء والرسل لا شك تكون درجة التقرب لهم أكبر وأعظم... وهكذا...

فكيف بنا- نحن البشر- إن كان المُتقرب إليه هو اللَّه تعالى خالقنا وبارئنا ومانحنا الحياة والوجود، وكلّ هذه النعم الظاهرية والباطنية؟!

إنها الدرجة الكبرى الدرجة المطلقة من التقرب؛ لأنه مطلق لا حدود لكرمه ونعمه.

ولكن أين يتقرب العبد إلى ربّه وخالقه...؟ لا شك أنه يتقرب إلى أحبّ شيء

ص: ٢٦١

إليه وأحبّ مكان إليه، وأحبّ مكان إلى اللَّه عزّوجلّ منـذ أن دحا الأرض- كما ذكرنا- هى بيته الحرام الـذى جعله مثابةً للناس وقياماً لهم... هذا بالنسبة لمن أطاع ابراهيم عليه السلام وحفيده محمداً صلى الله عليه و آله وامتثل لأمر السماء وسُنة الأنبياء كما لاحظنا سابقاً.

أما حال غير المسـلمين فهو مشابه إلى هـذا، فلو رجعنا إلى اليهود مثلًا نجدهم يتقربون إلى اللَّه تعالى فى حجهم، رغم بِدعتهم للمكان والزمان، والنصارى كذلك، أما الأغلبية من النصارى فقد جعلوا مريم عليها السـلام والسـيد المسـيح عيسـى عليه السـلام واسـطةً بينهم وبين اللَّه وهو ما ذكرناه، كما فعلت بعض القبائل العربية فى الجاهلية بوضعهم الأصنام والأوثان واسطة بينهم وبين اللَّه...

أما غير الـديانات السـماوية فقد تقربوا فى حجهم إلى آلهتهم المختارة... وبذلك يكون من أساسـيات الحج التقرب إلى المعبود سواء كان معبوداً حقيقياً أم خيالياً أو مصنوعاً.

وهذه النقطة الحساسة من مشتركات الحج عند الجميع مع فارق واسع بينهم وبين المسلمين.

فالحـج عنـد المسـلمين يـأتى قمـة التقرب إلى المعبود (اللَّه عزّوجل)، فهو- التقرب فى الحـج- تجسـيد لأحوال الحاج الباحث عن ربّه المتوجّه إليه أينما حلَّ وارتحل، يلتمس سبيل الوصول إليه ويتعرض لأنفاس رحمته، فالحاجّ منذ اللحظات الأولى التى ينوى فيها الحج ويرحـل عن الأهـل والـدنيا وينقطع عن كـلّ ما يجـذبه إلى الـدنيا، حتى الإحرام من الميقات فالطواف فالوقوف فالرمى، وفى كلّ حالٍ ومرتحـل له يبحث عن اللَّه ويطلب الزلفى إليه والقرب منه، فهو ضـيفه الـذى لبّى دعوة التوحيـد كمـا لبت الأنبيـاء والرسـل فى أعماق التاريخ، وحجت إلى البيت الحرام والكعبة الشريفة.

ص: ٢٦٢

٦- القرابين والأضاحى

عادة القرابين والأضحية، عادة بشرية قديمة، عرفها الانسان منذ عرف العبادة، فكانت إحدى أهم وسائل التقرب إلى المعبود، أياً كان نوعه... والحقيقة نحن لا نعرف البداية الأولى للأضاحى البشرية...

لكنّا نعرف أنّ كلّ الحضارات مارست هذا الطقس لتفتدى الأحياء الباقين من البشر، وقد كانت أبشع الأضاحى والقرابين تلك القرابين البشرية التى كان يذبح فيها الضحية فداءً لإله مادى حجراً كان أو شجراً أو ظاهرةً كونيةً طبيعيةً، وقد كانت هذه الحالة على أشدّها فى حضارة أمريكا الوسطى (المايا والأزتك) فكان الكهنة فى هذه الحضارة يأخذون الضحية إلى قمة هرم المعبد، فيتقربون به إلى الإله (١).

وكانت بداية فكرة القربان، هى الخوف من الموت الجماعى: فأخذ الإنسان البدائى يضحى بالانسان كحلّ لهذه الاشكالية العقلية، حتى جاء دور إسماعيل الولد الوحيد والحبيب لنبى اللّه إبراهيم عليه السلام، فتأمر السماء إبراهيم عليه السلام أن ينحر ولده فى موسم الحج، وعندما عزم صادقاً من أعماق قلبه راضياً بقضاء اللّه تعالى بالتضيحة بولده، وتلّه للجبين ممراً المدية على نحر ولده، نودىَ: أن يا إبراهيم* قد صدّقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين* إنّ هذا لهو البلاء المبين* وفديناه بِذَبح عظيم (٢)

.وجاء الإعلان بالفداء الحقيقى أو التضحية الواقعية وهى ذبح الأنعام فى حالة

١- ١ انظر الفيصل، د. خالص جلبى، مقال: يوم الحج الأكبر، يوم ميثاق السلام العالمى، العدد ٢٥٨: ٢٢- ٢٥.

٢- ٢ الصافات: ١٠٤- ١٠٧.

ص: ٢٦٣

التقرب والفداء، وكان هذا درساً للبشرية، درساً عظيماً، لكنَّ أكثر الناس لا- يعلمون هذا المعنى وبقى أكثر الناس على حاله فى التضحية البشرية، وغلب عليهم عنادهم وشيطانهم على مدى الحضارات- كما ذكرنا سابقاً-، يقدمون الضحايا البشرية تقرباً للمعبود وحتى إنّ بعض المنتمين إلى الأديان السماوية كاليهود والنصارى يمارسون هذه العادة السيئة والبشعة لفترة طويلة من الزمن.

ولما جاء دور (الضحية) فى الاسلام وجاء معه الإعلان القرآنى بإيقاف «القربان البشرى» فى أى صورة هو، فى تضاعيفه إعلان ضمنى للسلام العالمى، وإذا كان ولابدّ فليضحَّ بالحيوان كرمز للقربان القديم، وتذكيره بالمرض القديم، مرض التضحية بالإنسان فى أى صورة من الصور (١).

إذن، فالكلّ يضحى فى الحج إن كان بالانسان أو الحيوان، وهذه عادة قديمة جدّاً، بل من أساسيات الحج، ولم نقرأ حجّاً فى التاريخ لم يكن ضمن تعاليمه الضحية والقربان. وهذه نقطة أخرى من المشتركات بين أنواع الحج فى التاريخ.

٧- التعظيم للشعائر

الشعيرة فى اللغة: هى العلاقة (٢)، وهى هوية الجماعة وبيان انتمائها وتميزها عن الجماعات الأخرى والحقيقة أن الشعائر هى تعبير عن المظهر الخارجى للجماعة التى تربطها مصالح أو عقيدة أو فكرة مما تتبناه، فالشعائر إحدى الوسائل التى اعتمدها الانسان للتعبير عن عقائده، وقد ولدت بمولد الانسان على هذه الأرض، وارتبطت به، ورافقته خلال مراحل حياته المختلفة، وجمعت بين الايجابى

١- ١ الفيصل، د. خالص جلبى، مصدر سابق.

٢- ٢ لسان العرب، ابن منظور، مادة شعر، قم. منشورات أدب الحوزة. ايران.

ص: ٢٦٤

والسلبى، بين المفيد وغير المفيد، والمعقول وغير المعقول. فقد كانت الشعائر قبل الاسلام موزعة على عقائد شتى وكانت حصيلة ما يعتقد به الانسان حول الكون والحياة والآخرة والآلهة والأرض و...

وقد اشترك الناس فى تعظيمهم لشعائرهم فى موسم الحج؛ لأنه مصدر إعلامى للمعتقد، ومصدرٌ يبرز فيه الانسان محبته ومدى تقربه وتقواه لمعتقده، وفيه مآربُ أخرى نستغنى عن ذكرها هنا...

وقد تكون أصل الشعيرة سماوية ويقتبسها دين وضعى ويتبناها لينسبها إليه، وبمرور الزمن تفقد الشعيرة معناها ومغزاها، حتى يأتى أمر السماء ثانية فى تثبيتها، كما حصل ذلك عند المسلمين حين ظنوا أنّ الصفا والمروة من أفعال الجاهلية؛ لأنهم فى الجاهلية كانوا يسعون ويطوفون بهما مع وجود الأصنام عليهما. فأنزل اللَّه تعالى

إنَّ الصفا والمروة من شعائر اللَّه (١)

و من يعظّم شعائر اللَّه فإنها من تقوى القلوب (٢)

؛ ليبين للمسلمين أنها ليست من بدع الجاهلية، وإنما اقتبست من الحج الابراهيمى الأصيل، ونُسبت لأفعال الجاهلية.

فجاء الاسلام بدستوره العظيم- القرآن الكريم- ليبين أنّ هناك نوعين من الشعائر، منها للَّهومنها لغير اللَّه، فميز التى كانت للَّهوعدّها من تقوى القلوب، وصار للشعائر فى الحج وظائف خاصة منبثقة من عقيدة التوحيد، وقائمة عليها، وأصبحت ممارستها وتعظيمها يجسّد تقوى الفرد وإيمانه ومدى ارتباطه باللَّه تعالى على العكس من شعائر غير اللَّه التى تكون إما اقتباساً- كما ذكرنا سابقاً- أو بدعة يبتدعها انسان، وبمرور الزمن تتحول إلى عقيدة، وتثبت لتتعامل معها الأجيال اللاحقة المقلدة للسلف، وتكون عقيدة راسخة لا تنفك عن الدين المتبع.

١- ١ الحج: ٣٢.

٢- ٢ الحج: ٣٢.

ص: ۲۶۵

إذن، فهذه نقطة اشتراك بين الحج الإسلامى وغير الإسلامى، ويمكن القول:

إنّ تعظيم الشعائر من صميم فكرة الحج وأفعاله، فكلّ الأمم والأديان تعظم شعائرها، وتبرز عقائدها من خلال الحج.

نقاط الاختلاف

اشارة

ومما سبق عرفنا المشتركات بين الحج الإسلامى والحج عند الأمم والأديان الأخرى والآن نستعرض نقاط الاختلاف بين الاثنين:

۱- الانحراف عن خط الأنبياء والرسل

عرفنا مما سبق أنّ الأنبياء جميعاً وبدون استثناء توجهوا إلى الكعبة الشريفة فى حجهم، ولم يرد نصّ واحد يذكر أنّ نبياً من الأنبياء اتخذ له وجهة أخرى فى حجّه غير الكعبة، كالبيت المقدس مثلًا أو أى مكانٍ آخر...

وعلى هذا فإن حج غير المسلمين انحراف عن خط الأنبياء، وطريقهم الذى لا ريب فيه ولا شك. ومن الواضح أنّهم بُعثوا لخير البشر وهدايتهم ومحاربة الشرك وعبادة الأصنام، ولفهم هذا الأمر بشكل واضح يكفينا قراءة هذه الآية الشريفة:

وما أرسلنا من قبلك من رسول إلّانوحى إليه أنّه لا إله إلّاأنا فاعبدون (۱)

.وفى هذه الآية نجد توضيحاً جلياً لمهمة الأنبياء فى إزالة مظاهر الشرك بأنواعه فى كلّ آنٍ ومكان...

۱- ۱ الانبياء: ۲۵.

ص: ۲۶۶

وعلى هذا الأساس فالانحراف عن خط الأنبياء والرسل هو الضلال المبين والتيه والضياع والانحراف عن جادة الحق.

وقد انحرف أكثر البشر فى الحج- كما رأينا ذلك فى الفصول السابقة- انحرفوا عن الخط الصحيح؛ خط الأنبياء والرسل فى التوجه فى الحج إلى بيت اللَّه الحرام، واتخذوا لهم وجهات متعددة وأماكن مختلفة كما قرأنا ذلك فى الفصول السابقة فى حج الأمم والحضارات وحج اليهود والنصارى كلّ ذلك يُعدُّ ابتعاداً وانحرافاً عن الخط الذى رسمه اللَّه تعالى للأنبياء، والذى أمرهم بتبليغه للبشر، فمن لم يمتثل لهم فقد ضلَّ ضلالًا بعيداً وانحرف انحرافاً كبيراً، ولعلّ هذه أهم نقطة اختلاف بين الحج عند المسلمين والحج عند غيرهم.

۲- التقليد الأعمى

وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل اللَّه قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون (۱)

.«الإلفاء، الوجدان أى وجدنا عليه آباءنا... وبيانه أنه قول بغير علم ولا- تبيّن، وينافيه صريح العقل فإنّ قولهم: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، قول مطلق، أى نتبع آباءنا على أى حال وعلى أى وصف كانوا، حتى لو لم يعلموا شيئاً ولم يهتدوا ونقول ما فعلوه حقّ، وهذا هو القول بغير علم، ويؤدى إلى القول بما لا يقول به عاقل لو تنبه له ولو كانوا اتبعوا آباءهم فيما عملوه واهتدوا فيه وهم يعلمون: أنهم علموا واهتدوا فيه لم يكن من قبيل الاهتداء بغير علم» (۲).

۱- ۱ البقرة: ۱۷۰.

۲- ۲ الميزان فى تفسير القرآن ۱: ۴۱۸.

ص: ۲۶۷

إن اتباع السلف بدون تفكير وتعقل لا شك يؤدى إلى الانحراف والابتعاد عن الحقيقة؛ لأنّ فى السلف الغث والسمين والصحيح والخطأ. وعليه فالحكمة والطريق الصحيح هو انتقاء الصحيح والمناسب الذى يُرضى اللَّه تعالى ويحقق المصلحة والإيمان الذى أمر به اللَّه عزّوجلّ، وإلّا عاش الانسان الجهل والخرافة كما عاش الأجداد، وبالنتيجة فهو بعيد عن الخط الصحيح الذى يرضى اللَّه تعالى والأنبياء والرسل عليهم صلوات اللَّه وسلامه.

وهذه نقطة مهمة أيضاً من نقاط الاختلاف بين حج المسلمين وحج غير المسلمين، حيث إنّ المسلمين اتبعوا سُنة محمد صلى الله عليه و آله فى الحج، وغيرهم اتبعوا آباءهم وأجدادهم فى الضلال والانحراف، واعتبروا سُنة الاجداد والآباء سُنة الحق والصواب، واتخذوا بيوتاً لهم غير بيت اللَّه، وحجوا وطافوا، وقدموا القرابين والأضاحى، وأتعبوا أنفسهم بأمور لا تضر ولا تنفع، بل فى أحيان كثيرة تضرّ دنيا الانسان الطالب لها بالاضافة إلى آخرته.

۳- البِدع والخرافات

البِدعة: إدخال ما ليس من الدين فى الدين (۱).

الخرافة: اعتقاد أو فكرة لا تتفق مع الواقع الموضوعى بل تتعارض معه (۲).

والخرافة مفهوم عام يشمل عدداً من الأفكار غير العلمية، يشمل الشعوذات والأساطير والأوهام والفأل، ويرتبط بالخيال والكذب والابتعاد عن الواقع الموضوعى (۳).

۱- ۱ البِدعة، د. الشيخ جعفر الباقرى: ۱۳۶.

۲- ۲ التفكير الخرافى بحث تجريبى، منصور ابراهيم: ۱۸.

۳- ۳ مكانة الفلك والتنجيم، عبدالأمير المؤمن: ۲۸۰.

ص: ۲۶۸

ولو رجعنا إلى الفصول السابقة واستقرأنا خزعبلات الأمم السابقة فى الحج فلا نراها إلّامجموعة من البِدع والخرافات والاساطير والألاعيب والأكاذيب، وأحكام لم ينزل اللّه بها من سلطان. وبهذا تحدث البدعة.

قال النبى صلى الله عليه و آله: «لا يذهب من السُنة شىء، حتى يظهر من البِدعة مثله، حتى تذهب السُنة، تظهر البِدعة، حتى يستوفى البِدعة من لا يعرف السُنة» (۱).

وقال صلى الله عليه و آله أيضاً: ما من أُمة ابتدعت بعد نبيها فى دينها بِدعة، إلّاأضاعت مثلها من السُنة» (۲).

كما قال الإمام على عليه السلام: «ما أحدثت بِدعة إلّاتُرك بها سُنة» (۳).

وقد مرَّ علينا ابتداع سُنة الحج إلى بيت المقدس وغيره عند اليهود والنصارى وأسباب نشوئها، وذكرنا أنها إما اسطورة خيالية أو خرافية أو نتيجة أوهام وكذب أو لمصلحة سياسية أو اجتماعية أو عنصرية، وما إلى ذلك من الخزعبلات...

يقول العلامة الطباطبائى: «وربما هيّج الخيال حسن الدفاع عن الانسان أو يضع أعمالًا لدفع شر هذا الموجود الموهوم ويحث غيره على العمل بها؛ للأمن من شره فيذهب سُنة خرافية. ولم يزل الانسان منذ أقدم أعصار حياته مبتلى بآراء خرافية حتى اليوم، وليس كما يظن من أنها من خصائص الشرقيين، فهى موجودة بين الغربيين مثلهم لو لم يكونوا أحرص عليها منهم» (۴).

إذن فالحج عند غير المسلمين هو مجموعة من الخيالات والبِدع والخرافات

۱- ۱ كنز العمال، علاء الدين الهندى ۱: ۲۲۲. ح ۱۱۱۹.

۲- ۲ المصدر السابق: ۳۱۹، ح ۱۰۱.

۳- ۳ نهج البلاغة، الخطبة ۱۴۵.

۴- ۴ الميزان فى تفسير القرآن ۱: ۴۲۲.

ص: ۲۶۹

یدخل فیها عامل العنصریة؛ لیکون حجّاً مستقلًا عن بیت اللّه الحرام الذی فرض حجه منذ زمن آدم علیه السلام.

۴- الشرک باللّه ومعصیته

الحج فی نظر الاسلام إعلان العبودیة والولاء للّهوحده لا شریک له، والتحرر من کلّ آثار الشرک والجاهلیة، بطریقة جماعیة حرکیة، تؤثر فی النفس، وتشبع المشاعر والأحاسیس بمستوحیات الایمان، ومدالیل التوحید، وإذا خالف الحج هذا الإعلان فلا یمکن أن یسمی حجّاً، بل إجهاد النفس فی مقابل اللاشیء، کما یقول القرآن الکریم: والذین کفروا أعمالهم کسراب بقیعة یحسبُهُ الضمآنُ مآءً حتی إذا جآءَهُ لم یجدهُ شیئاً ووجد اللّه عنده فوفّاه حِسابَهُ واللّه سَریع الحساب (۱)

.فأصحاب الأدیان الوضعیة أشرکوا باللّه فی حجّهم وأتعبوا أنفسهم وبذلوا أموالهم فی سبیل أحجار صامتة لا تنفع ولا تضر، وأصحاب الدیانات السماویة کالیهود والنصاری جعلوا واسطة بینهم وبین اللّه عزّوجلّ وجعلوها تقربهم إلیه، والنصّ التوراتی التالی یؤید کلامنا: «فأقبل رؤساء الیهود وسجدوا للملک، فأقرّهم علی ذلک، ثم ترکوا (بیت الرب) إله آبائهم وعبدوا عشتروت وسائر الأصنام، فحلّ غضبٌ علی یهوذا وأورشلیم لأجل معصیتهم هذه، فأرسل إلیهم أنبیاء لیردوهم إلی الرب. وأشهدوا علیهم فلم یسمعوا. وفاض روح اللّه علی زکریا بن یویاداع الکاهن. فوقف أمام العشب وقال لهم: هکذا قال اللّه: لِمَ تتعدون وصایا الربّ؟ إنکم لا تفلحون لأنکم

۱- ۱ النور: ۳۹.

ص: ٢٧٠

تركتم الربّ، فترككم. فتجمعوا عليه ورجموه بالحجارة بأمر الملك وفى داخل بيت الرب» (١).

والقرآن الكريم يبين أنّ بعض النـاس يأخـذون إحـدى مخلوقـات اللّه تعالى من ناس أو حجارة أو غير ذلك ويحبونها ويجعلونها نِدّاً للّه‌تعالى ويتقربون إليها كأنها خالقهم وصاحب نعمتهم.

يقول اللّه تعـالى فى القرآن الكريم: ومن النـاس من يتخـذ من دون اللّه أنـداداً يحبونهم كحب اللّه والـذين آمنوا أشـدُّ حُباً للّه‌ولو يرى الذين ظلموا إذ يرونَ العذاب أنّ القُوةَ للّه‌جميعاً وأنّ اللّه شديدُ العذاب (٢)

.والنـدُّ هنا: يعنى الشـريك والمماثل، وتصف الآيـة الكريمـة الذين يجعلون ندّاً للّه، بالظالمين، يطيعون الند ويثقون به ويتوكلون عليه، ويتصورون أنه دفع عنهم الشر ويأتيهم بالخير.

والآية الكريمة أعلاه تبين أنّ هناك فريقاً آخر آمنوا باللّه وكان حبّهم للّه‌أشدَّ من حب الظالمين للشركاء.

وهـذا فرقٌ كبير بين الحج عند المسـلمين وحجٍّ من أشـرك باللّه تعالى من خلال هذه العبادة الجماعية الكبرى وفرقٌ عظيم؛ لأنّ الحج هو العبادة الخالصة للّه، وحجّ هؤلاء يفتقد لهذا الشرط العظيم...

٥- الازدواجية فى ممارسة طقوس الحج

أصل الحج تشريع إلهى، وشاع فى زمن النبى ابراهيم عليه السلام، ومن الصعب الوصول عبر النصوص أو الوثائق الباقية أو الآثار إلى ما يمكن رسم حقيقة ما

١- ١ سفر أخبار الأيام الثانى، الاصحاح ٢٤، الفقرات ١٧- ٢١.

٢- ٢ البقرة: ١٦٥.

ص: ۲۷۱

مارسه الأنبياء من أفعال قبل الخليل ابراهيم عليه السلام وبعده، وكلّ ما وصل إلينا بالشكل الواضح وعن طريق القرآن الكريم والسُنة الشريفة هو الحج الإبراهيمى وما بقى من آثاره عند الجاهلية ثم الحج المحمدى.

والثابت عندنا أنّ جميع الأمم والأديان مارست الحج رغم ابتعادها وانحرافها عن سُنة الأنبياء، مارسته بالشكل الذى حلى لها... فكان فى بعض الأحيان يتخلله رقص وموسيقى ويقارن الذهاب إلى المكان المقدس شرب الخمر والفساد الأخلاقى وغيرها...

ولو استقرأنا طقوس الحج عند المنحرفين عن خط الأنبياء والرسل؛ لوجدنا الازدواجية فى ممارسة طقوس الحج واضحة، أوضح من نارٍ على علم، وإن دلَّ هذا على شىء، فإنما يدل على قصر الإنسان حين يُشرّع أمراً هو للّه‌وحده فى الأصل باعتباره عبادة يتقرب بها العبد إلى ربّه.

يقول د. حسن ظاظا فى وصفه طقوس الحج عند اليهود: «ويبدو أنّ وصول بنى إسرائيل إلى أماكن الحج كان مصحوباً برقص جماعى، وموسيقى إيقاعية احتفالًا بالوصول إلى المكان المقدس عندهم، بل كثيراً ما كانوا يشربون الخمر إلى درجة السكر البيّن» (۱).

۶- تعدد المكان والزمان

لو قارنا أماكن الحج عند غير المسلمين وعند المسلمين لاتضح لنا الفارق بين هؤلاء وأولئك، فالمسلمون يقطعون آلاف الأميال ويخترقون كلّ حواجز الحدود، ويجتازون كلّ الموانع التى صنعها الإنسان على أرض اللّه سبحانه... استجابةً لنداء

۱- ۱ الفيصل، طقوس الحج عند اليهود، د. حسن ظاظا، العدد ۲۱۰: ۷.

ص: ٢٧٢

العقيدة، وتلبيةً لهتاف الإيمان... فهم يستشعرون وحدة الأرض، ووحدة الزمان، ووحدة البشر، ويمثلون عملية إسقاط الحدود التى صنعتها الأنانيات والأطماع البشرية: الإقليمية، والقومية، والعنصرية، وغيرها...

أما غيرهم فقد تعددت عندهم الأماكن، كأن يحج قوم فى سنة واحدة إلى عدّة أماكن، أو قوم ينتمون إلى دين واحد، ولكن كلٌ يتخذ له وجهة خاصة به وهكذا... فاليهود مثلًا حين تعددت فرقهم كلٌ اتخذ له وجهة خاصة، وفى بعض الأحيان خالف الفرقة الأخرى وعاداها، واعتبر وجهة نظره هى الأفضل والأصح... والنصارى كذلك وغيرهم أيضاً كما ذكرنا سابقاً-.

يقول د. حسن ظاظا عن أماكن الحج عند اليهود: «إنّ أماكن الحج عندهم تتغير مع الزمن. فإبراهيم عليه السلام كان يقيم عند سنديانة قمرا بالقرب من مدينة الخليل، ثم توقف يعقوب عند جبل جرزيم بالقرب من نابلس، وبنى هناك معبداً اشتهر باسم «بيت اللّه» وبالعبرية «بيت إيل»، فصار حرماً له وللأسباط. وتوقف موسى عند نبع عين قديس (قادش) فصار مكان حج أيضاً، وتبرك اليهود بنخلة دبورة البنية، وبجبل سعير فى إقليم غزة، ثم بقبور السلف الصالح فى الخليل إلى أن تمّ تشييد هيكل سليمان بالقدس. ومع ذلك ما زال اليهود يحجون إلى قبر العُزير فى العراق، وقبر المتصوف اليهودى أبى حصيرة فى دمنهور، وقبر فقيههم عَمْرام فى المغرب بالقرب من وزّان، بل قبر المتصوف بَعَلْ شِمْ طُوف فى فلنيوس بليتوانيا» (١).

وهذا فارقٌ كبير بين حج المسلمين على اختلاف مذاهبهم وثنائية الزمان والمكان التى التزموا بها وبين حج غير المسلمين.

١- ١ طقوس الحج عند اليهود، الفيصل، مقال د. حسن ظاظا، العدد ٢١٠: ٨.

ص: ۲۷۳

۷- الانصهار فی الهوی

وینحرف الإنسان أحیاناً نتیجة لاستسلامه لضغوط قوة الهوی علیه، وقد یندفع کذلک إلی ما هو أبشع من ذلک، تلبیةً للنزعات الأنانیة الکامنة فی نفسه، أی أنه یعرف الحق ولا یتبعه، ویحرف تعالیم السماء وهو یعلم أنها الحق، یحرفها وفق أهوائه ومیوله الخاصة لکی یُتبع ویضل الآخرین لیبرز علیهم، فیردی ویُردی الآخرین إلی هاویة الضلال...

قال تعالی ومن أضلُّ ممن اتبع هواه بغیر هُدًی مِنَ اللَّه (۱)

.فالنفس الإنسانیة تتجاذبها تیارات وشهوات متعددة، وهی تنساق مع مغریات الحیاة وملاذّها، وتستعصی علی الحق، وتأبی قبوله، والسیر علی هداه؛ لما فیه من منعٍ للنفس عن أهوائها، ومشتهیاتها الفانیة...

قال الإمام الباقر علیه السلام فی قوله تعالی قل هل ننبئکم بالأخسرین أعمالًا الذین ضلَّ سعیهم فی الحیاة الدنیا وهم یحسبون أنهم یُحسنون صُنعاً (۲)

قال علیه السلام:

«هم النصاری والقسیسون، والرهبان، وأهل الشبهات والأهواء من أهل القبلة، والحروریة، وأهل البدع» (۳).

وعنه علیه السلام أیضاً فی قوله تعالی والذین کسبوا السیئات جزاء سیئةٍ بمثلها وترهقهم ذِلةٌ ما لهم من اللَّه من عاصم (۴)

قال علیه السلام: «هؤلاء أهل البدع والشبهات والشهوات، یسوّد اللَّه وجوههم، ثم یلقونه» (۵).

۱- ۱ القصص: ۵۰.

۲- ۲ الکهف: ۱۰۳- ۱۰۴.

۳- ۳ تفسیر القمی، علی بن ابراهیم القمی ۲: ۴۶.

۴- ۴ یونس: ۲۷.

۵- ۵ تفسیر القمی ۱: ۳۱۱.

ص: ۲۷۴

فإذا تمكنت الأهواء من الانسان وتحكمت الشهوات عليه وخضع واستسلم لها عرضته للسقوط والانحراف عن جادة الاستقامة، وتحول الانسان حينئذ مصدراً للشر فی علاقاته وحياته، وحتی علاقته مع خالقه. فالهوی حرف كثيراً من البشر عن جادة الحق فی الحج.

خاتمة

وفی نهاية المطاف، وبعد جولة سريعة فی رحاب فريضة إلهية متميزة، تمتاز علی غيرها بمواصفات خاصة أهمها اجتماعيتها والتقاء أكبر عدد من المسلمين فی عمل واحد وهدف واحد وروح واحدة و...

بعد هذه الجولة، لابدّ من القول: ما هی غايتنا من هذا الدخول فی طقوس الحج عند الحضارات والأُمم المختلفة؟ هل لمجرّد استعراض تاريخ جزء من دياناتهم وأفكارهم وسلوكهم، وبالتالی يصبح خزينُنا من التاريخ كبيراً وشاملًا؟ هل لمجرّد إشباع حبّ الاستطلاع الملحّ داخل العقل والنفس؟ هل لشیء أو أشياء أخری

بالتأكيد أنّ هذا الذی أوردناه داخلًا فی غايتنا وهدفنا من هذه الدراسة المتواضعة، ولكنْ هناك هدف آخر أكبر داخل فی طبيعة تفكيرنا الاسلامی المتميز بالصدق والعلمية والمنهجية.

هدفنا هو محاولة معرفة الحج الحقيقی الصحيح بين أنواع الحج الكثيرة، معرفة علمية برهانية، نقرأها قراءة من خلال التاريخ وما فيه من تنوعات، وإلّا فليس هنا شك فی أن الحج الحقيقی هو الذی أتی به الاسلام ضمن الدين الإسلامی، وجعله ركناً غاية فی الأهمية ضمن دين اللّه الحنيف الذی هو الاسلام.

قال تعالی إنّ الدين عند اللّه الاسلام.

ص: ۲۷۵

إنّ أنواع الحج الأخرى الكثيرة، سواء منها الحج المحرّف فى الديانات السماوية أو أنواع الحج الوضعية التى تفرضها الفطرة الانسانية، هى التى تضع أصابعنا على الحج الحقيقى، من باب التضاد، فمن خلال الخطإ نعرف الصواب، وممَّا تمجهُ النفس نحس بما تحبه الروح وهكذا...

من هنا تتضح الغاية الأساسية من هذا البحث، تتضح بشكل جلى وواضح، ينعزل فيه الباطل عن الحق، والخطأ عن الصحيح.

وهكذا يتبين الحج الذى جاء به الدين الإسلامى، بأعلى درجات الوضوح... يتبين من خلال طقوس وعادات وأهواء الآخرين... يتبين حجّاً إلهياً كبيراً كبر الدين الإسلامى وأهدافه العظمى التى انفردت وتعالت على كلّ الأديان.

فأين هو من حج أولئك الذين صنعوا لأنفسهم حجّاً خاصاً غذّوه من خرافاتهم وخزعبلاتهم وأوهامهم، فبنوا بأيديهم أماكن خاصة مُلئت بطقوس وأعمال ما أنزل اللّه تعالى بها من سلطان.

المحصلة النهائية من كلّ ما ذكرنا، ومن دراسة كلّ أنواع الحج الأخرى وأشكاله، هو أنّ الحق والصدق فى الحج الإسلامى... الحج الذى أجمله القرآن الكريم وفصلته سُنة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وآل بيته الكرام، وأخيراً لابدّ وأن نقرأ الآية المباركة الآتية ونلتزم بها:

ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين (۱)

۱- ۱ آل عمران: ۸۵.

ص: ۲۷۶

ص: ۲۷۷

مصادر الكتاب

۱- القرآن الكريم.

۲- الكتاب المقدس: العهد القديم والعهد الجديد.

الكتب العربية

۳- إبراهيم أبوالأنبياء، عباس محمود العقاد، منشورات المكتبة العصرية، بيروت- صيدا.

۴- أخبار مكة، محمد بن عبداللّه المعروف بأبى الوليد الأزرقى المكى، تحقيق رشدى صالح ملحس، دار الأندلس، بيروت ۱۹۸۳ ط ۳.

۵- أصول الكافى، محمد بن يعقوب بن إسحاق أبو جعفر الكلينى.

۶- الأبعاد الاجتماعية لفريضة الحج، د. زهير الاعرجى، ط: أمير- قم، الطبعة الأولى

۷- الاسلام فى مسائل الحلال والحرام، كتاب الحج، المحقق الحلى.

۸- الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل، القاضى مجير الدين الحنبلى.

۹- بحار الأنوار، العلامة المجلسى، الطبعة البيروتية.

۱۰- البدعة، د. الشيخ جعفر الباقرى، ط: أمير- قم، الطبعة الأولى

۱۱- البيان والتبين، الجاحظ.

ص: ۲۷۸

۱۲- تاريخ الطبرى، أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى.

۱۳- تاريخ اليعقوبى، أحمد بن إسحاق اليعقوبى.

۱۴- ترتيب القاموس، مادة حجّ.

۱۵- تفسير فى ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، طبعة عام ۱۹۹۸.

۱۶- تفسير القمى، على بن إبراهيم القمى.

۱۷- تفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، دار العلم للملايين، بيروت.

۱۸- الميزان فى تفسير القرآن، العلامة الطباطبائى، الطبعة البيروتية.

۱۹- التفكير الخرافى فى بحث تجريبى، منصور إبراهيم.

۲۰- التهذيب، الشيخ الطوسى.

۲۱- الجواهر، محمد حسن النجفى.

۲۲- الحجّ عبادة وتربية، منشورات دار التوحيد، الكويت، الطبعة الأولى ۱۹۷۸ م.

۲۳- الحجّ حكمة ورموز، تحقيق ظفر الاسلام خان، المعهد الاسلامى، لندن ۱۹۸۲ م.

۲۴- الحجّ على مختلف المذاهب، محمد جواد مغنية، ط: سپهر- إيران، عام ۱۹۷۹ م.

۲۵- الحجّ وآثاره على الحياة الاجتماعية، الشيخ التسخيرى والشيخ محمود قالصنوة ط:

سپهر- ايران.

۲۶- الحجّ ودوره الهام فى حياة الانسان، ط: سپهر- ايران ۱۹۹۷ م، رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية.

۲۷- حجّة الوداع، ابن حزم.

۲۸- حقائق وأباطيل، محمد فوزى، دار الصفدى- دمشق، سوريا.

۲۹- الروضة البهية فى شرح (اللمعة الدمشقية)، الشهيد الأول- محمد بن جمال الدين المكى العاملى، ج ۱، باب الحجّ، الطبعة السادسة، مكتب الإعلام الإسلامى.

۳۰- زوال إسرائيل حتمية قرآنية، أسعد بيوض التميمى، منشورات أوپن پرس المحدودة، لندن، عام ۱۹۸۴ م.

ص: ۲۷۹

۳۱- سفينة البحار، شيخ عباس القمى.

۳۲- سنن ابن ماجة، محمد بن يزيد القزوينى، ابن ماجة.

۳۳- شرايع الاسلام، المحقق الحلّى، باب الحجّ، منشورات الأعلمى- طهران.

۳۴- الطبقات الكبرى ابن سعد.

۳۵- صحيح مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيرى، شرح النووى.

۳۶- غوالى اللئالى العزيزية، إبراهيم الإحسانى ج ۱، مطبعة سيد الشهداء- قم.

۳۷- عقائد الإسلام، السيد مرتضى العسكرى.

۳۸- العرب واليهود فى التاريخ، د. أحمد سوسة، دار إحياء التراث العربى، الطبعة الثانية.

۳۹- الفصل فى الملل والأهواء والنحل، ابن حزم الأندلسى.

۴۰- فقه القرآن، للراوندى.

۴۱- الفقيه، للشيخ الصدوق.

۴۲- قصص الأنبياء، عبدالوهاب النجار، دار إحياء التراث العربى، بيروت.

۴۳- الكافى، الكلينى.

۴۴- الكامل فى التاريخ، ابن الأثير ج ۱.

۴۵- كتاب التعريفات، الجرجانى.

۴۶- كتاب الأصنام، أبو منذر هشام بن محمد الكلبى.

۴۷- نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۲ (القاصعة).

۴۸- لسان العرب، ابن منظور، منشورات أدب الحوزة، قم، مادة (شعر).

۴۹- اللمعة الدمشقية، العاملى، باب الحجّ.

۵۰- المحجّة البيضاء، الفيض الكاشانى، مؤسسة الأعلمى- بيروت.

۵۱- المختصر النافع فى فقه الإمامية، المحقق الحلى، ت ۶۷۶ ه، منشورات المكتبة الاسلامية الكبرى وقسم الإعلام الخارجى للمؤسسة طهران- إيران.

ص: ۲۸۰

۵۲- المستدرک، کتاب الحجّ، باب ۲۴، من أبواب الحجّ وشرائطه- حدیث ۲۲.

۵۳- مسند أحمد، أحمد بن حنبل.

۵۴- المصباح المنیر، الفیومی، منشورات دار الهجرة- ایران- قم. معالم المدرستین، العلّامة مرتضی العسکری، المجمع العلمی الإسلامی، ط: الکلینی.

۵۵- مع الأنبیاء، عفیف عبدالفتاح طبارة، انتشارات الشریف الرضی- قم.

۵۶- معجم البلدان، یاقوت الحموی، مجمع اللغة العربیة بالقاهرة.

۵۷- المعجم الوسیط، دار إحیاء التراث العربی- بیروت- لبنان.

۵۸- مفاتیح الجنان، الشیخ عباس القمی، دعاء السمات، الطبعة الإیرانیة.

۵۹- المفردات، الراغب الاصفهانی، ت ۵۰۲ ه، دفتر نشر الکتاب- ایران.

۶۰- مروج الذهب، المسعودی ج ۱.

۶۱- الملل والنحل، الشهرستانی، ت ۵۴۸ ه، منشورات الشریف الرضی- قم.

۶۲- من لا یحضره الفقیه، الشیخ الصدوق.

۶۳- الموسوعة العربیة المیسرة، إشراف محمد شفیق غربال، الطبعة الثانیة، دار الشعب، القاهرة، عام ۱۹۷۲ م.

۶۴- موسوعة کشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد علی التهانونی ج ۱.

۶۵- مهذب الأحکام، السید السبزواری، ج ۱۴، الفائدة الثالثة.

۶۶- میزان الحکمة، محمد محمدی ری شهری، مکتب الإعلام الإسلامی.

۶۷- الوثنیة فی الأدب الجاهلی، د. عبدالغنی زیتونة.

۶۸- وسائل الشیعة، العاملی.

۶۹- الیهود والیهودیة، د. علی عبدالواحد وافی، دار نهضة مصر للطبع والنشر.

الکتب المترجمة إلی العربیة

۷۰- بابل تاریخ مصور، جون اوستی، ترجمة: سمیر عبدالرحیم الحلبی، دائرة الآثار

ص: ۲۸۱

والتراث ۱۹۹۰، ط. دار الشؤون الثقافية- بغداد- العراق.

۷۱- تاريخ الحضارات العام، موسوعة، منشورات عويدات- بيروت.

۷۲- دائرة المعارف الإسلامية، ج ۷، باب الحاء، ط: دار المعرفة.

۷۳- عظمة بابل، د. هادى شاكر، ت: د. عامر سليمان إبراهيم، ط: مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر- العراق.

۷۴- قصة الحضارة، ول وايرئيل ديوارنت، دار الفكر.

۷۵- معجم الحضارات السامية، هنرى س. عبودى، جروس برس- طرابلس- لبنان.

۷۶- المنجد، لويس معلوف، دار الشروق، بيروت، لبنان.

۷۷- موسوعة علم الآثار، كلينى دانيال، ت: ليون يونس، ط: دائرة الاعلام بغداد، سلسلة المأمون.

۷۸- موسوعة المورد، منير البعلبكى، دار العلم للملايين.

المجلات العربية

۷۹- إكتوبر، الصادرة عام ۱۹۷۶ م، الجمهورية العربية المصرية.

۸۰- الطاهرة، العدد ۷۰، طهران- ايران.

۸۱- العربى، العدد ۳۴۳، الكويت، الصادرة ۱۹۸۷ م.

۸۲- الفيصل، العددان ۲۱۰ و ۲۵۸، المملكة العربية السعودية، الصادرة عام ۱۹۹۸ م و ۱۹۹۶ م.

۸۳- الهلال، العدد ۵، الجمهورية العربية المصرية، الصادرة عام ۱۹۷۵ م.

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلّامة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المكتب الرّئيسيّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹